

تاريخ الأزمان



ترجمة وتقديم:

شادية توفيق حافظ

مراجعة:

السباعي محمد السباعي



يمثل "تاريخ الأزمان"، الذي ألفه ديونيسيوس التلمحري باللغة السريانية، الحلقة الأولى في سلسلة الكتاب اليعاقبة، وهو واحد من أشهر مؤرخي القرن التاسع الميلادي (الثاني الهجري) يشتمل على أحداث (260 عاماً تحدث فيه عن ظهور الإسلام والفتوحات الإسلامية.

استقى مادته التاريخية ممن سبقه من المؤرخين، إما نقلاً أو تلخيصاً حتى وقت تأليف الكتاب في العصر العباسي؛ عصر المأمون والمعتصم والواثق فسجل ما عاينه من أحداث.

كان ديونيسيوس بطريركاً لأنطاكية؛ لذا لم يكتف بذكر الأحداث السياسية، بل ربطها بغيرها من الأحداث الكنسية والاجتماعية.

تاريخ الأمان

المركز القومي للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٢٧٧
- تاريخ الأزمان
- ديونسيوس التلمحري
- شادية توفيق حافظ
- السباعي محمد السباعي
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هذه ترجمة كتاب:

ملاحمة الحزن بينه وبين الحزن

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

تاريخ الأزمان

تأليف
ديونسيوس التلمحري

ترجمة وتقديم
شادية توفيق حافظ

مراجعة
السباعي محمد السباعي



٢٠٠٨

<p>بطاقة الفهرسة</p> <p>إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية</p> <p>إدارة الشؤون الفنية</p>	
<p>التمحري، ديونسيوس</p> <p>تاريخ الأزمان، تأليف: ديونسيوس التمحري، ترجمة وتقديم: شادية توفيق حافظ، مراجعة: السباعي محمد السباعي. ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٨م.</p> <p>٢٦٠ ص، ٢٤ سم.</p> <p>أ- توفيق حافظ، شادية (مترجم ومقدم)</p> <p>ب- محمد السباعي، السباعي (مراجع)</p> <p>ج- العنوان</p> <p>٢١٠،٩</p>	<p>رقم الإيداع: ٢٤٥٥٢ / ٢٠٠٨</p> <p>التسجيل الدولي: 978-977-479-011-9</p> <p>طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية</p>

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

٩	- تقديم المترجمة.....
١٥	- المقدمة.....
١٩	- نبداً من عام ٨٩٨ يونانية.....
٣٦	- عن علامة الإعجاز التي قام بها مار حبيب أسقف الرها.....
٤١	- عن تيودوت أسقف آمد.....
٤١	- عن القديس مار قزما أسقف آمد.....
٥٤	- عن الجفاف والمجاعة الشديدة التي حلت بالبلاد في ذلك الوقت.....
٥٦	- عن الطاعون العظيم الذي حدث في ذلك الوقت.....
٦٦	- عن قساوسة الكنيسة الذين برزوا في ذلك الوقت.....
٦٦	- عن نقل كنز الملوك من الغرب إلى الجزيرة.....
	- عن فصول الشتاء الثلاثة المتتالية قارسة البرودة، وعن السنج
	الكثيف الذي سقط في تلك الفترة، وعن إبادة المواشي والحيوانات
٧٦	والطيور التي نفقت بسبب الصقيع الشديد.....
	- عن المجاعة التي حدثت في تلك السنوات، وعن غزو شعب أرمينيا
٧٧	والأويغور لسوريا.....
	- عن سوس القمح والأرق الذي ازدهمت بهما الأرض في تلك
٧٨	السنوات.....
٧٩	- عن الجندب.....
٧٩	- عن الجراد.....
	- عن شعب أرمينيا والأويغور الذين غزوا سوريا بسبب المجاعة،
	وعن العدوى والبثور والطاعون ومختلف الأمراض التي انتشرت
٨٠	في البلاد عند وصولهم.....

- ٨٧ - عن اجتماع السينودوس لانتخاب جورجىوس بطريركا لأنطاكية فى
مبوج - مدينة على نهر الفرات - فى كنيسة مار توما الرسول
المقامة خارج البلدة.....
- عن المناقشات والمنازعات والاضطرابات التى حدثت فى الكنيسة
المقدسة وبين أساقفتها فى ذلك العام ١٠٧٨ يونانية (٧٦٦-٧٦٧م)
وخاصة بسبب وجود جورجىوس بطريرك الكرسي الرسولي فى
أنطاكية.....
- ١١٦ - عن العلامة التى ظهرت فى السماء على هيئة مكسبة.....
- ١٣٠ - عن الشعب الذى قدم من المنطقة السفلى ويدعى "عمالقة" فى اللغة
البدائية القديمة عام ١٠٧٨ يونانية (٧٦٦-٧٦٧م).....
- ١٣١ - عن ترميم كنيسة أمّ الكبرى.....
- ١٣٢ - عن الأمر الملكى بإحصاء خيرات الكنائس والأبيرة.....
- ١٣٢ - عن ازدهار المدينة، وعن الذنوب التى اقترفوها.....
- ١٣٤ - عن ثورة العبيد فى حران، بلدة فيما بين النهرين.....
- ١٣٥ - عن قيام الملك بغزو المنطقة الشمالية، وعن بناء الرقة وتعرض
البلاد للأضرار منذ ذلك الوقت.....
- ١٣٦ - عن إعادة بناء الرقة.....
- ١٣٨ - عن هروب الأرمن من مملكة الرومان، وعن الهزيمة التى سببها
العرب للرومان.....
- ١٣٨ - عن المعدل الذى أرسل إلى البلاد.....
- ١٣٩ - عن الصافي والمعشر اللذين أرسلهما أيضا إلى البلاد.....
- ١٣٩ - عن المعشر.....
- ١٤٠ - عن أصحاب الوشم والأختام.....
- ١٤٢ - عن المنفى.....
- ١٤٣ - عن الأمراء والكتاب والصيارفة ورؤساء المقاطعات والحكام.....
- ١٤٦ - عن السماح للرجال بانتهاك حرمة المقابر.....
- ١٤٩

- عن قوس الرب الذى ظهر فى هذا العام مقلوباً، وعن العصا البيضاء التى ظهرت فى وسط السماء متجهة ناحية انحناء القوس على هيئة سهم..... ١٥٠
- عن علامة أخرى ظهرت من ناحية الشمال فى العام نفسه..... ١٥١
- عن كيفية دفع الضريبة، وعن السجن فى كنيسة..... ١٥٢
- عن السجن فى الكنيسة..... ١٥٣
- عن الدجال الذى ظهر فى الجزيرة عام ١٠٨١ يونانية (٧٦٩-٧٧٠م)..... ١٥٦
- عن أول سنة للكارثة التى وقعت عام ١٠٨٤ يونانية (٧٧٢-٧٧٣م) عن الكتاب والحكام والصرافين..... ١٦٣
- عن صانعى الوشم والعلامات..... ١٦٥
- عن المعشرين (فارضى ضريبة العشر)..... ١٦٦
- عن الصافى..... ١٦٧
- عن الذين يبحثون عن الهاربين، وعن الأذى التى اقترفوه..... ١٦٩
- عن الحاكم المعين على صدقة مال العرب..... ١٧١
- عن العلامة القديمة التى ظهرت فى منطقة الشمال فى ذلك العام..... ١٧٤
- عن جباية ضريبة الرعوس فى السنة الأولى للكارثة..... ١٧٥
- عن الحاكم الثانى..... ١٧٨
- عن الحاكم الثالث..... ١٨٠
- عن ضرائب هذا العام..... ١٨٢
- عن الاعتقال فى الكنيسة الذى حدث ذلك العام..... ١٨٥
- عن أنواع المذاب التى تكبدها الرجال فى تلك الفترة..... ١٨٧
- عن الجفاف والمجاعة التى حدثت فى ذلك العام، وعن غزو الشعب الجنوبى والشرقى للمنطقة الشمالية..... ١٩١
- عن انتهاك حرمت المقابر التى ارتكبها الناس من نيش القبور وإخراج العظام ونثرها على الأرض..... ١٩٤

- عن المصائب التي تراكمت على الأرض بسبب شهود الزور، وعن الكذب، وعن الدائنين والمدينين، وعن الوشائيات، وعن رحمة الرب الذي تحمل غضبنا بصبر دون إثارة..... ١٩٤
- عن شهادة الزور التي نقشت بيننا..... ١٩٨
- عن الدائنين والمدينين، وعن الكذب..... ١٩٩
- عن الوشاية والظلم والنهب المتبادل، وعن شهود الزور..... ٢٠٢
- عن العام الثاني للكارثة، أي عام ١٠٨٥ يونانية (٧٤٤-٧٧٥م)..... ٢٠٧
- عن الشتاء القارس، وعن الماشية والحيوانات والطيور التي نفقت، وعن الرياح العنيفة التي حدثت في هذا الشتاء..... ٢٠٩
- عن نفوق الماشية والحيوانات الذي حدث ذلك العام، وعن نقص علف الحيوانات..... ٢١٠
- عن الرياح العاصفة التي هبت في ذلك العام..... ٢١١
- عن البرد الذي سقط ذلك العام..... ٢١١
- عن العودة إلى بلدة موسى بن مصعب، وعن الحكام الذين عينهم، وعن العذاب الذي تحمله الأهالي من جانبهم..... ٢١٢
- عن الكارثة التي تحملها سكان القرى نتيجة للسلب، وعن المساوي التي ارتكبها الفلاحون أنفسهم..... ٢٢١
- عن المرارة التي عانى منها الرجال، وعن النهب الذي مارسه القرويون بعضهم ضد بعض..... ٢٢٣
- عن المجاعة التي نقشت بين البشر، وعن الأمراض الوحشية، وعن الطاعون العظيم الذي حل في ذلك العام..... ٢٢٩
- عن انتهاك حرمة المقابر، وعن سلب الموتى..... ٢٣٨
- عن الطاعون وما سببه من دمار، وعن الحيوانات المفترسة التي ظهرت بعد ذلك..... ٢٤٠
- عن وفاة أمير أمد..... ٢٤٤
- عن أمراء مكلفين للعشر، وعن أمراء مكلفين للصافي..... ٢٤٩
- عن الأمير الثاني المكلف بالمرابط..... ٢٥٠
- مراجع الترجمة..... ٢٥٢

تقديم المترجمة

حظى التاريخ بعامة والتاريخ الإسلامى بصفة خاصة باهتمام كبير من الباحثين فى الشرق والغرب، من المسلمين ومن غيرهم، وتنوعت الكتابة التاريخية تنوعاً شمل كل مناحى الحياة الفكرية والسياسية والدينية وغيرها. وتباينت وجهات نظر الباحثين حولها أحياناً وتطابقت أحياناً أخرى، ولم يسلم تاريخنا من ذلك. ولاشك أن العقيدة تؤدى دوراً بارزاً فيما يعبر عنه كل هؤلاء للباحثين والمؤرخين مهما حاولوا تفادى ذلك. والباحث الثبت والمؤرخ الجيد هو من استطاع أن ينظر إلى الأمور والأحداث نظرة موضوعية بعيدة عن الهوى والغرض.

ورأيت أن نقل ما كتبه المؤرخون من غير المسلمين عن تاريخنا الإسلامى يثرى مكتبتنا العربية ويضيف إليها وجهات للنظر المختلفة، ولذا اخترت كتاب "تاريخ الأزمان" الذى ألفه "ديونسيوس التلمحرى" لما يتناول من أخبار عن ظهور الإسلام وانتشاره وما قام به المسلمون من فتوحات.

لقد ألف "ديونسيوس" كتابه "تاريخ الأزمان" باللغة السريانية، وهى اللغة التى يؤثر رجال الدين من المسيحيين للتعامل بها فى كنائسهم وأديرتهم، كما كانت هى اللغة السائدة بين المسيحيين بصفة عامة فى هذه المنطقة التى كانت مسرحاً لتلك الأحداث والخطوب.

ويرجع تاريخ تأليف هذه النسخة الخطية التى قمت بترجمتها إلى القرن التاسع الميلادى (الثانى الهجرى).

وقد استقى ديونسيوس - كغيره من المؤرخين السريان - مادته التاريخية عن العصور المتقدمة عن سابقه إما نقلاً أو تلخيصاً حتى وصلت إلى عصره، فبدأ بكتب ما عاينه أو شاهده من أحداث، فجاء كتابه صورة حية لأحداث عصره ووقائعه.

ومما هو جدير بالذكر أن المؤرخين السريان كانوا في تلك الفترة أرسخ قدما من العرب في تدوين التاريخ، والمعروف أن العرب بدأوا في تدوين تاريخهم عن طريق المشافهة، وكان ذلك دأبهم في استقاء كل علومهم. على أن الجيل الأول الذى شهد هذه الأحداث وشارك فيها عمد إلى روايتها ثم نقلتها عنه الأجيال التالية، وقام من هذا الجيل من دون بعض هذه الأحداث في أواخر القرن الأول الهجرى وبداية القرن الثانى، فقد كان العلماء يجمعون أخبار الحادثة الواحدة من رواة مختلفين ثم يضمنون هذه الروايات بعضها إلى بعض ويدونون ذلك كله فى كتيب. ولكن لم يكن عمل هذه الطبقة من المؤلفين مرتباً بوجه عام ولا شاملاً وإفياً، وإنما كثر الترتيب والتنظيم فى العليقة التى جاءت بعدهم من أمثال "البلاذرى" و"الطبرى".

وإذا رجعنا إلى "البلاذرى" و"الطبرى" وغيرهما وجدنا أنهم لا يعتمدون فى تاريخهم على قصص سلسلة تحكى وقائع متتابعة وحوادث ثابتة فى أماكن محددة بأشخاص معينة، وإنما يراهم يعتمدون على روايات السلف المتعددة. ولذلك نجد حادثة واحدة يكثر ورودها فى أكثر من مكان فى المؤلف الواحد، وعلى لسان أكثر من راوٍ واحد. وليس الأمر وفقاً على هذا الاختلاف فى تفاصيل الحادث الواحد، بل لقد تعداه إلى سنة وقوع الحادث، وكل مؤلفاتهم خير شاهد على ذلك.

أما السريان فقد بدأوا فى كتابة التاريخ على أثر حوادث الاضطهاد التى عانتها المسيحية تحت حكم الفرس والروم وتكوين سير شهدائهم، وكان ذلك فى القرن الثالث الميلادى. فإذا كان القرن السادس أو قبله بقليل بدأت حوالباتهم فى التاريخ إلى جانب ما كانوا يسطرونه من سير القديسين والأبطال.

ولما كان المسلمون قد فتحوا بلاد السريان عام ١٧ من الهجرة، أى منتصف القرن السابع الميلادى فلا ريب أن السريان - وقد رسخت أقدامهم فى تدوين التاريخ - قد أخذوا فى تسجيل أحداث هذه الفترة ليأتى وقوعها، كما كان شأنهم قبل هذا العصر. وتشهد على ذلك تلك المخطوطات التى لا تزال تحتفظ ببقاياها حتى الآن فى المتاحف ودور الكتب. ولم يجد المؤرخ السريانى غضاضة فى الاعتماد على الكتب القديمة، فكان يستعين بمؤلفات السابقين، بل إنه كان ينقل الأجزاء

الكاملة من هذه المؤلفات ويضمنها كتابه، ثم يضيف إليها من عنده ما شاهده من أحداث عصره.

وعلى هذا النهج سار مؤرخنا "ديونسيوس التلمحرى" إذ نقل عن سابقيه عدداً غير يسير من الأحداث التي لم يعشها، نظراً لوقوعها في عصور متقدمة عن العصر الذي عاش فيه وشاهد أحداثه.

ديونسيوس

في القرن التاسع الميلادي عاش "مار ديونسيوس الأول المعروف بالتلمحرى" بطريرك أنطاكية، والذي يمثل الحلقة الأولى في سلسلة للكتاب البعاقبة. ورغم أننا لا ندرى حقيقة اسمه على وجه التحديد أو حتى لقبه أو أسرته أو تاريخ ميلاده، فإنه باستقراء عدد غير يسير من المراجع والمصادر التي تناولت حياته تسنى لنا أن نقف على أن مولده كان في الربع الأخير من القرن الثامن الميلادي، ولكن هذه المصادر والمراجع جميعها لم تذكر علماً محدداً لمولده. والراجح أن تاريخ ميلاده ينحصر بين عامي ٧٨٥ و ٨٠٠م؛ إذ نجد أن الدير الذي نشأ به قد احترق عام ٨١٥م فانتقل إلى دير آخر ليستكمل فيه دراسته. وفي عام ٨١٨م انتخب بطريركاً؛ الأمر الذي يرجح معه أنه كان يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين أو ثلاثة وثلاثين عاماً عند توليه الأسقفية، وربما كان ذلك سبباً مناسباً لتوليه هذا المنصب. وهذا الاستنتاج تبيّن من مراجعة عمر بعض البطارقة عند تنصيبهم مثل مار ميخائيل الكبير (ولد ١١٢٦م ونُصّب ١١٦٦م) وابن العبري (ولد ١٢٢٦م ونُصّب ١٢٦٤م) وساويرس الأنطاكي (ولد ٤٥٩م ونُصّب ٥١٢م) ومسعود الزازي (ولد ١٤٣١م ونُصّب ١٤٩٣م) ونوح اللبناي (ولد ١٤٥١م ونُصّب ١٤٩٣م). ولأن ديونسيوس التلمحرى توفي بعد حياة قصيرة مما ينبغي توليه في سن متأخرة نجد أن الأرجح أنه تولى وهو في الثلاثينيات من عمره، وبذلك نصل إلى تحديد عمره بالتقريب.

نشأ ديونسيوس في بلدة تلمحرة^(*) إحدى قرى العراق، بالقرب من نهر بلخ أحد روافد نهر الفرات.

بدأ ديونسيوس التلمحري يتلقى العلم في دير قنسرين الذي كان يعد في ذلك الوقت مركز إشعاع للثقافة اليونانية، فذاع صيته وطبقت شهرته أنحاء العالم. وفي عام ٨١٥م احترق دير قنسرين؛ الأمر الذي اضطر الرهبان أن يتفرقوا وينفردوا عنهم ويولوا وجوههم شطر الأديرة المحيطة بهم. فأتجه ديونسيوس إلى دير مار يعقوب في كيسوم بين حلب والرها في مقاطعة سميساط، حيث أتم فيه دراساته العلمية والعلمانية ونال شهرة واسعة. وفي عام ٨١٨م نصب ديونسيوس بطريكا لأنطاكية لمدة سبعة وعشرين عاما.

وإلى جانب أعماله ومسئوليته ومهامه الداخلية امتد نفوذه إلى خارج بلده، فقد بدأ أعماله بطريكا بزيارة الأقاليم التي تقع تحت رعايته، مثل سدوم وأنطاكية وقرقيساء ونصيبين ودارا وكفر تونا، ثم انتقل إلى الرقة حيث كان يتمتع بحماية أميرها "عبد الله بن طاهر"، واستطاع أن يحصل منه على موافقة بإعادة بناء دير قنسرين الذي كان قد احترق. ولكن عبد الله سافر فجأة إلى مصر في عام ٨٢٥م لإخماد الفتنة التي ترعها "أبو السرايا" وبقي في مصر حتى عام ٨٢٧م. وأثناء غيابه في مصر خلفه على الرقة شقيقه محمد بن طاهر ليدير شئونها، ولكنه كان على عكس أخيه لايميل إلى النصاري، فأمر بهدم الكنائس التي كان شقيقه قد أمر بإنشائها في الرها، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تقدم على تحويل بعض الكنائس إلى مساجد. ونتيجة لهذا التغيير المفاجئ في معاملة النصاري شد ديونسيوس رحاله إلى مصر وقابل الأمير عبد الله بن طاهر، ورجاه أن يكتب إلى أخيه محمد بن طاهر أن يخفف من وطأة معاداته وتشدده مع المسيحية والمسيحيين،

(*) تلمحرة أو تل محرة: بلدة بين حصن مسلمة بن عبد الملك والرقة واسمها اليوم تل المنخير. (المترجمة) ونفوه هنا إلى أن كل الهولاش والحواشي والتعليقات في هذا الكتاب إنما هي للمترجمة، ولذلك أوردناها مرقمة في صفحاتها دون ذكر كلمة (المترجمة). [التحرير]

وبالفعل حقق مسعاه، وغادر مصر إلى سوريا فرحا بنصره ونجاح مسعاه في هذه الرحلة. وما كاد عام ٨٢٩م يبدأ حتى غادر ديونسيوس المدينة ميمما شطر بغداد لزيارة الخليفة المأمون، وظل مقيما بها حتى شهر أكتوبر، حيث غادرها إلى أنطاكية مارا بتكريت فالموصل. وفي عام ٨٣٠م تحققت له مقابلة للخليفة المأمون الذي استقبله استقبالا رائعا. وعندما اعتزم الخليفة السفر إلى مصر لتهنئة الثورة التي قام بها مسيحيو مصر اصطحب معه ديونسيوس، وكانت خطة الخليفة أن يعهد إليه بإقناع الأقباط الثائرين لاعتقاده أن ديونسيوس قادر على إخماد الثورة وإخضاع الأقباط المتمردين، إلا أن هذه الخطة قد باءت بالفشل فاضطربت نار الثورة، وكان من نتيجتها أن هدمت المدن والأحياء التي يقيم بها المسيحيون.

وفي عام ٨٣٥م توجه ديونسيوس إلى بغداد لتهنئة الخليفة المعتصم الذي تولى الخلافة بعد وفاة المأمون، محاولا توطيد الروابط والعلاقات الودية بينهما.

في هذه الفترة كان ديونسيوس يعاني حالة من الاكتئاب والتشاؤم جعلته يتمنى الموت، وذلك لإحساسه بالفشل في عدم توفيقه في إخماد الثورات التي نشبت في عهده سواء بين المسيحيين أنفسهم أو من جراء تهديدات العرب وغزواتهم. وسرعان ما تحقق له ما كان يتمناه، حيث وافته المنية ولفظ أنفاسه الأخيرة في ٢٢ أغسطس عام ٨٤٥م بعد أن شغل كرسي البطريركية لمدة سبعة وعشرين عاما، كانت كلها مليئة بالاضطهادات والفتن، ودفن في دير قنشرين الذي أمضى فيه زهرة شبابه وبدأ فيه حياة التمسك والرهينة.

شادية توفيق حافظ

المقدمة

يبدأ سرد وقائع هذه الأحداث - أعنى هذه المخطوطة - منذ بدء الخليقة، ويمتد حتى ميلاد إبراهيم وإلى حكم نينلوى الذى أسس مدينة نينوى وبسط نفوذه عليها لمدة اثنين وخمسين عاما.

ففى العام الثانى والأربعين من حكم نينلوى ولد رئيس البطارقة إبراهيم وذلك بشهادة أوسابيوس^(١) الذى استقينا منه وثائق هذا التاريخ الذى امتد حتى عهد قسطنطين المؤمن. ومنذ تلك الفترة وحتى حكم تيودسيوس الصغير اقتفينا أثر سقراط. ثم منذ تيودسيوس حتى عهد الإمبراطور يوستينيوس،^(٢) أى حتى عام ٨٨٥ يونانية (٥٧٤م) عاوننا القديس يوحنا^(٣) أسقف آسيا.

فى الحقيقة منذ ذلك الوقت وحتى العام الذى نحن بصدده الآن، أى عام ١٠٨٦ الإسكندر (١٥٨م) لم نجد أحدا أدق وأصدق فى كتابة التاريخ أو وصف الأزمة القاسية والمريرة التى حلت بنا وبأبنا من تلك الكتابات القديمة، وخاصة تلك المجموعة من الأزمات التى تحملناها بسبب ما لفرقتة أدينا من أثام، عندما وقعنا فى أيدي الأسوريين والبربرة.^(٤)

(١) يعتبر أوسابيوس القيصرى CAESARENSIS EUSEBIUS (٢٦٥-٣٤٠م) أبا للتاريخ الكنسى، فقد اشتهر تاريخه الذى وضعه باليونانية، والذى ترجم إلى عدة لغات منها السريانية فى وقت مبكر، فاستفاد منه معظم المؤرخين الكنسيين استفادة كبيرة. ومن أشهر كتبه "شهداء فلسطين". وهو صديق الملك قسطنطين الكبير وإليه تنسب حياة قسطنطين. (تواريخ كنسية ١٢٦)

(٢) هو يوستينيوس الثانى (٥٦٥-٥٧٨م)، لم يخلف يوستينيوس حقا ولكنه كان يتق بائن أخيه يوستينيوس ويستشير فى أمور الدولة. لمس أعضاء مجلس الشيوخ هذه القوة وأحبوا يوستينيوس فعولوا على انتخابه نور وفاة الإمبراطور الشيخ، وكان يوستينيوس قد أنرك ثلاثة وثمانين حين مرضه الأخير. (أند رستم: الروم ١١٥)

(٣) هو يوحنا الأنسى. ولد فى بلدة (نكل) من ولاية آمد (ديار بكر) عام ٥٠٧م تقريبا. رسمه يوحنا مطران "تلا" شملنا، وترهب عام ٥٢٩م. رحل إلى أنطاكية عام ٥٣٢م، وإلى مصر عام ٥٣٤م، والقطنينية عام ٥٣٥م. وفى عام ٥٥٨م رسمه يعقوب البرادعى مطرانا لأقصى قنسب إليها وإلى آسيا الصغرى. (أغناطيوس أقرام الأول: الأول: المنشور، ص ٢٦٤) WRIGHT(W): SYRIAC LITERATURE P.103-107.

(٤) المقصود بالبربرة "قرياء" أو "الأجانب" بالنسبة إلى اليونانيين والرومان. (تاريخ الكنيسة ١٥٥)

لقد تركزت في نفوسنا ذكرى تلك الفترة الأليمة وذلك الحزن الكئيب الذى تكبده الناس من قبل الآشوريين، والذي أشار إليه النبي عندما قال: (ويل لأشور قضيب غضبى، والعصا فى يدهم هى سخطى. على أمة منافقة أرسله وعلى شعب سخطى أوصيه ليقتنم غنيمة وينهب نهبا ويجعلهم مدوسين كطين الأثرقة)،^(٥) ولقد أردنا أن نعرف للقضيب عصا الرب التى سلمها إلى آشور ليعاقب العالم، والتى ظهرت فى السماء لعدة أيام.^(٦) ربما سيرتجف الذين سيأتون من بعدنا سيخشون الرب وسيسيرون أمامه بالعدل خشية أن يقعوا هم أنفسهم فى أبهى هذا الذنب المفترس. فإنه مكتوب: (قال لهم وجهوا قلوبكم إلى جميع الكلمات التى أنا أشهد عليكم بها اليوم لكي توصوا بها أولادكم ليحرصوا أن يعملوا بجميع كلمات هذه التوراة)،^(٧) وأيضا: (انكر أيام القدم وتأملوا سنى دور فدور، اسأل أباك فيخبرك وشيوخك فيقولوا لك).^(٨)

لقد طوفنا ببلاذ كثيرة ولم نصانف تاريخا دقيقا لهذه الحوادث، بل وجدنا أنها كلها مجرد شروح لبعض الأحداث من وجهة النظر الذاتية. ولقد سلطنا نهجا منظما فى جمع المعلومات وتنسيقها فى كتاب واحد سواء تلك التى استقيناها من المعمرين الذين كانوا شهود عيان أو التى عاصرنا أحداثها بأنفسنا. ومن ينظر إلى هذا الكتاب ويطلع عليه يجب أن يلاحظ أن تلك الأحداث المتباعدة لم تقع فى مكان واحد ولا فى مملكة واحدة ولا حتى فى منطقة واحدة. وإذا صادفوا حولية أخرى لاتفق أحداثها مع هذه فليطعنوا إلى أن الكتاب السابقين أنفسهم لم يتفقوا على منهج واحد فيما بينهم فكان أحدهم يفضل الإيجاز والثانى يلجأ إلى المبالغة والثالث يؤرخ لكنيسة والرابع يتناول موضوعات متفرقة.

(٥) المهد القديم: إشعيا ١٠: ٦/٥.

(٦) هنا إشارة إلى ظواهر فلكية مثل كوكب سيلا وشهب وغيرها.

(٧) المهد القديم: التثنية ٣٢: ٤٦.

(٨) المهد القديم: التثنية ٣٢: ٧.

إن الحكماء والذين يخشون الرب لم ييتموا كثيرا بالتوقيات الدقيق، لوقوع
الحادثة، فربما كان ذلك قبل أو بعد وقوعها بعام أو عامين. وإنما كان يكفيهم
الإحاطة بما نزل بالأجيال للماضية من عقاب حتى يباعدوا بين أنفسهم وبين
ارتكاب المعاصي خشية أن يجلبوا على أنفسهم نفس الكوارث. احترس إذن واذكر
الإله ربك، خشية أن يحل بك غضبه.

نبدأ من عام ٨٩٨ يونانية

فى عام ٨٩٨ يونانية (٥٨٦م) توفى الملك يوستينيوس^(٩) وتولى الحكم بعده يوستينيوس الرابع^(١٠) بالاشتراك مع طيباريوس.

وفى عام ٩٠١ يونانية (٥٨٩-٥٩٠م) توفى يوستينيوس^(١١) وانفرد بالحكم طيباريوس^(١٢).

وفى عام ٩٠٢ يونانية (٥٩٠-٥٩١م) توفى الملك القديس بطرس^(١٣) بطريرك أنطاكية.

عام ٩٠٥ يونانية (٥٩٣-٥٩٤م) توفى طيباريوس^(١٤) وخلفه موريقيوس الذى ظل فى الحكم لمدة ثمان سنوات.

(٩) كان يلقب يوستينيوس العظيم (٥٢٧-٥٦٥م)، وكان مقدونى الأصل، إلا أن بعض الأساطير التى جاءت فى فترة متأخرة جعلته من أصل سلافي. عندما اعتلى العرش كان يبلغ من العمر ٤٥ عاما وكان نشطا لا تعرف نفسه الكمال، حتى وصفه أحد معاصريه بقوله "الإمبراطور الساهر". (ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٨٦) LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T.X; P.2.

(١٠) المقصود هنا هو يوستينيوس الثانى JUSTIN II ابن اللبس والخط الذى حدث بين لسمى "يوستينيوس" أمر طيبي عند الكتاب السريان. أما بالنسبة "يوستينيوس الرابع" الذى ورد ذكره هنا فلم يكن له أى وجود فى التاريخ.

(١١) هو يوستينيوس الثانى (٥٦٥-٥٧٨م)، توفى فى الخامس من أكتوبر عام ٥٧٨م (٨٨٩ يونانية) بعد أن حكم اثني عشر عاما وعشرة أشهر وولحدا وعشرين يوما. (ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ١ ص ١٩١)

(١٢) هو طيباريوس الثانى (٥٧٨-٥٨٢م-٨٨٩-٨٩٣ يونانية) إمبراطور بيزنطة. عندما أصيب يوستينيوس الثانى بالجنون واشتكت وطأة المرض عليه اغتارت الإمبراطورة صوفيا طيباريوس إمبراطورا فى ٢٦ سبتمبر عام ٥٧٨م. (ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ١ ص ١٩١)

(١٣) بطرس الثالث القالونيقي، ولد عام ٥٧٨م فى مدينة قالونيقي، أى الرقة، وفى عام ٥٨١م رسم بطريركا لأنطاكية، فى دير "مار حنينا". رحل إلى الإسكندرية وولاية العرب أى حوزن، سميا وراء الروابط الدينية بين كرسى أنطاكية والإسكندرية. كانت وفاته فى دير الجب الخارجى، فى ٢٢ أبريل عام ٥٩١م، وقيل عام ٥٩٠م. BAR-HEBRAUES: CHRON.ECCL.TI P.250.

(١٤) طيباريوس الثانى، توفى فى اليوم الرابع من أغسطس عام ٥٨٢م (٨٩٣ يونانية)، بعد أن حكم أربع سنوات، ونقل جثمانه بحرا إلى القسطنطينية. (ابن القداء: المختصر فى أخبار البشر، ص ٦٦)

عام ٩١٢ يونانية (٦٠٠-٦٠١م) حدث إظلام شديد فى وضح النهار وتراعت الكواكب كما لو كان ليلا، واستمرت هذه الظاهرة لمدة ثلاث ساعات، وبعدها اتجلى الظلام وأضاء النهار كما كان من قبل. فى هذا العام توفى موريقيوس،^(١٥) وتولى الحكم بعده شخص آخر يدعى أيضا موريقيوس بالاشتراك مع تيودسيوس لمدة اثنى عشر عاما.

عام ٩١٤ يونانية (٦٠٢-٦٠٣م) استولى نرسى قائد جند الفرس على الرها ولما دخلها قبض على ساويرس^(١٦) أسقف المدينة وتم رجمه بالحجارة حتى فارق الحياة.

عام ٩١٥ يونانية (٦٠٣-٦٠٤م) أصبح القديس أنثاسيوس^(١٧) بطريركا لأنطاكية.

فى عام ٩١٦ يونانية (٦٠٤-٦٠٥م) وقعت الرها^(١٨) فريسة الاحتلال.

(١٥) اختلفت الآراء حول شخصية موريقيوس، هل هما شخصان حكما فى فترتين متتاليتين؟ أو أنه شخصية واحدة حكمت لمدة ٢٠ عاما؟ فبعض المصادر تخفت الراى الأول. (مثل تاريخ لى الفداء: المختصر فى أخبار البشر، ص ٦٦، وديونسيوس التلمجرى فى مخطوطته) أما الذين أيدوا الراى الثانى فهم الأغلبية. (ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ١ ص ١٩٢)

GOUBERT: BYSANCE AVANT L' ISLAM. P.36-41 PARIS 1951

ويعد موريقيوس (٥٨٢-٦٠٢م) أشهر خلفاء يوستينوس ولتكامهم وفنرتهم، ولد فى أربيوسوس فى آسيا الصغرى عام ٥٣٩م، وفيها تلقى علومه، ثم تركها واتجه إلى القسطنطينية. كان خييرا فى شئون الدولة العسكرية والإدارية والمالية. (أد رستم: الروم، ج ١ ص ١٩٧)

(١٦) فى عام ٥٧٨م خلف ساويرس يحقوب اليرامى فى أسقفية الرها، وظل بها حتى وفاته حين رجم عام ٦٠٣م. ASSEMANI: Bibl. Orient.T.I P.424

(١٧) هو أنثاسيوس الأول، يعتبر من خيرة بطاركة أنطاكية، ميساطلى الوطن، ترحب فى دير قنسرين، واحتير للكرسى البطريركى من عام ٥٩٥ حتى ٦٣١م، وفى رواية ضعيفة من عام ٦٠٤ حتى ٦٣١م حيث توفى. (أغناطيوس الأول: اللاذلى المقثور، ص ٢٧٧) ASSEMANI: BIBL. OR. II.333

(١٨) اختلفت المصادر فى تاريخ احتلال الرها، فبعض المصادر الأجنبية قررت أنه تم الاحتلال عام ٦٠٩م، مثل: BAR- HEBRAEUS: CHRON.SYR. P. 98.

DUVAL (R): HISTOIRE D'EDASSE. P. 223, NOTE.

أما المصادر العربية، فالبعض منها قال: عام ٢ هـ (٦٢٤-٦٢٥م). والبعض قال: عام ٦ هـ (٦٢٧-٦٢٨م).

فى عام ٩٢٣ يونانية (٦١١-٦١٢م) قتل موريقيوس^(١٩) وابنه تيودسيوس^(٢٠) وتولى فوقاس^(٢١) الحكم لمدة ثمان سنوات.

عام ٩٢٨ يونانية (٦١٧-٦١٨م) أصدر الملك فوقاس^(٢٢) أمرا بتعميد كل اليهود الواقعين تحت نفوذه، وأرسل فوقاس جورجيوس الحاكم إلى أورشليم وإلى كل إقليم فلسطين لإجبار اليهود على التعميد، فذهب إلى فلسطين وجمع كل يهود أورشليم وضواحيها. فلما مثل عظمائهم أمامه بالبرهم قاتلا: "هل أنتم عبيد الملك؟" فقالوا: "نعم". فقال لهم: "لقد أمر سيد البلاد^(٢٣) أن نتمدوا". حينئذ لانوا بالصمت ولم يفكروا بكلمة، فسألهم الحاكم: "لماذا لم تجيبوا؟" فاجابوا: "نحن نرى أحدهم ويدعى يونان قاتلا: "إن كل ما يأمر به رب الأرض مستجاب ولكن بالنسبة لهذا الأمر فلا نستطيع تنفيذه لأنه لم يحن بعد ميعاد العماد المقدس". فلما سمع الحاكم هذا الكلام استشاط غضبا وانتفض واقفا حيث صفع يونان على وجهه ثم توجه إليهم بقوله: "إن كنتم حقاً عبيداً فلم لا تطيعون سيديكم؟" وأصدر أمراً بتعميدهم سواء قبلوا أو رفضوا هذا التعميد.

(١٩) أصدر فوقاس أوامره - بعد أن أصبح إمبراطوراً - بنقل موريقيوس إلى خلقدونية، وقتله هو وعائلته. فقاموا بقطع رقاب أولاده الخمسة أمامه، ثم قضا عليه فى يوم ٢٧ نوفمبر عام ٦١٢م بالغاً من العمر ٦٣ عاماً و ٣ أشهر و ١٣ يوماً، وألقوا بجثمانه فى البحر. (جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، ج ٤ ص ٥٢)

(٢٠) ولد تيودسيوس عام ٥٨٥م، وفى عام ٥٩٠م فى يوم ٢٦ مارس اختار له والده موريقيوس اسم أغسطس، ووضع البطريرك التاج على رأسه، وفى عام ٦١٠م أى بعد ١١ عاماً تقريباً تزوج تيودسيوس من بنت البطريرك جرماني. و ليس صحيحاً أنه بعد علمين من ولادته أطلق عليه والده لقب قيصر، ومما هو معروف أنه لم يحصل مطلقاً على هذا اللقب. LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T. X P. 232-274.

(٢١) فوقاس: PHOCAS إمبراطور بيزنطة (٦٠٢-٦١٠م). وصل إلى الحكم عن طريق انتفاضة عسكرية، وفى ٢٣ نوفمبر عام ٦٠٢م نصبه الشعب إمبراطوراً، ولكن بدلت المؤامرات ضده عام ٦٠٥م، وقام الفرس بغزو الإمبراطورية البيزنطية عام ٦٠٧م، وفى عام ٦١٠م دخل هرقل العاصمة البيزنطية وخلق فوقاس. وتقدر مدة حكمه بنحو ٧ سنوات و ١٠ أشهر و ٩ أيام. (د. إبراهيم المدوحى: الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٩٦)

(٢٢) كثير من المؤلفين نسبوا هذا الحادث إلى هرقل، ولكن ذلك العمل يتغلب أكثر مع شخصية فوقاس. LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T. X P. 450-451

(٢٣) كان يطلق عادة - من باب الرسمية - على أبطر بيزنطة لقب سيد البلاد.

في هذا الوقت ظهر يعقوب اليهودي،^(٢٤) وأنتاسيوس بطريرك أنطاكية، ويوحنا^(٢٥) أسقف العرب، وشمعون^(٢٦) أسقف حران، وقرياقوس^(٢٧) أسقف آمد.^(٢٨)

عام ٩٣٢ يونانية (٦٢٠-٦٢١م) استولى العرب على فلسطين حتى نهر الفرات العظيم، فهرب الرومان وعبروا إلى الضفة الشرقية للفرات التي أصبحت تحت السيطرة العربية أيضا.

لقد ظهر من بينهم أول ملك يدعى "محمدًا"^(٢٩) وهو الذي كانوا يدعونه "نبيًا"، لأنه هو الذي صرفهم عن دياناتهم المتعددة إلى عبادة إله واحد خالق للكون، وسن لهم القوانين بعد أن كانوا متجهين إلى عبادة الشياطين والأصنام ولاسيما عبادة الأشجار. ولما كان قد أثبت لهم وحدانية الله وبفضل توجيهه انتصروا على الرومان، فسُن لهم القوانين التي تتفق مع نزعاتهم؛ لذا فقد أطلقوا عليه اسم "النبي" واسم "رسول الله" أيضا. كان هذا الشعب مقبلا على كل ما هو محرم وكل ما يحقق شهواتهم، فكانوا يرفضون كل قانون لا يحقق لهم منفعته سواء أكان صادرا من محمد أم من أي شخص آخر يرعى حدود الله، فكانوا يقبلون على كل ما يحقق لهم رغباتهم، حتى ولو كان صادرا من أشر الناس لديهم. كانوا يقولون: "هذا ما قد سنه النبي رسول الله". وأيضا: "هذا ما كان الرب قد أمر به".

(٢٤) ربما كان المقصود هنا يعقوب الرهنوي.

(٢٥) يوحنا هنا هو جرجس، وليس يوحنا أسقف العرب، وهو من البابليين المشهورين في ذلك الوقت، وصديق أنتاسيوس الثاني. رسم أسقفا لعرب بني طبرستان وعقيل وقنوق، فعرف بأسقف العرب أو أسقف عرب الجزيرة المؤمنين، وكان مقر أسقفيته حالولا، أي الكوفة. توفي في فبراير عام ٧٢٥م. (أغناطيوس أفرام الأول: اللاذلو المنتور، ص ٣٠٩)

(٢٦) يعتبر اليعاقبة "شمعون" كنيسا، ويحتفلون بذكره يوم ٣ يناير من كل عام.

(٢٧) مطران آمد، تروث وتعلم في دير مار زكي، ثم تنلذ على البطريرك بطريرك الثالث الذي رسمه مطرانا لآمد حوالي عام ٥٨٢ أو ٥٨٣م. من سنة قواطين، وتضمن كتاب الهدايات لابن العبري

بعضها. توفي عام ٦٢٣م. ASSEMANI: BIBL. OR. T.II. P.98.

(٢٨) مدينة آمد أو ديار بكر، تقع على دجلة في تركيا حاليا، وكان "ديوقليطوس" قد حصنها لحماية نصيبين. (تاريخ سريانية ١٤٩)

(٢٩) لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم ملكا، وإن عرف العرب ملوكا في الجاهلية مثل ملوك الفرسنة والمناذرة والكنعانيين والحميريين.

لقد حكمهم "محمد" لمدة سبع سنوات.

عام ٩٣٣ يونانية (٦٢١-٦٢٢م) توفي فوقاس^(٣٠) ملك الرومان وخلفه هرقل^(٣١) لمدة واحد وثلاثين عاما.

عام ٩٣٤ يونانية (٦٢٢-٦٢٣م) مات مار قرياقوس أسقف آمد وخلفه مار توما.

عام ٩٣٧ يونانية (٦٢٥-٦٢٦م) غابت نجوم السماء واتجهت صوب الشمال كالسهام. كان هذا فالاً سينا ينذر بهزيمة الرومان واستيلاء العرب على بلادهم؛ الأمر الذي تحقق فعلا بعد فترة وجيزة.

عام ٩٣٨ يونانية (٦٢٦-٦٢٧م) مات ملك العرب، أي نبيهم محمد^(٣٢) فخلفه أبو بكر^(٣٣) لمدة خمس سنوات.^(٣٤)

عام ٩٤٠ يونانية (٦٢٨-٦٢٩م) بدأ هرقل ملك الرومان في بناء كنيسة آمد العظيمة.

(٣٠) كان "فوقاس" PHOCAS خلفا جاعلا لنبضته الرعية، فقام "هرقل" بقتله وتولى الإمبراطورية مكانه عام ٦١٠م. (جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، ج ٤ ص ٥٢)

(٣١) هرقل HERACLIUS الأول هو الإمبراطور الرومانى على الشرق (٦١٠-٦٤١م)، أزاح "فوقاس" سلفه وتولى الحكم فى السابع من أكتوبر عام ٦١٠م، وكان يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاما. حاول إصلاح المملكة المفككة بسبب نزاع المونوفيزيين الدينية وغزوات الفرس والمصريين واللوبيين. تمكن من الفرس حتى دخل تبريز وأذربيجان وأرمينيا وجورجيا، كما دخل نينوى وطيسفون. كهره العرب فى اليرموك عام ٦٣٦م. (تاريخ ميخائيل السريانى الكبير، ج ٢ ص ٢٩٢)

(٣٢) عاش النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) ثلاثا وستين عاما، ولا ريب أن المصاعب السياسية والاجتماعية التى حطت بها سنواته الأخيرة قد أثرت فى صحته. إن الرسول قد مرض فجأة، وكان مرضه الحمى. (كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ٦٧)

(٣٣) أبو بكر الصديق (رضى الله عنه)، كان له فى خلافة (٦٣٢-٦٣٤م) بيت مال ينفق كل ما فيه على المسلمين، ولما مات لم يجدوا فيه إلا دينارا واحدا. (جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، ج ٤ ص ٤٤)

(٣٤) الصحيح أن مدة خلافة كانت سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال. (ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٢ ص ٢٨٧)

عام ٩٤٣ يونانية (٦٣١-٦٣٢م) مات أبو بكر ملك العرب وجاء خلفا له عمر^(٣٥) الذي حكم لمدة اثني عشر عاما.

عام ٩٤٤ يونانية (٦٣٢-٦٣٣م) نزل هرقل ملك الرومان إلى الرها حيث دارت معركة في الجابية^(٣٦) انهزم فيها الفرس وانسحبوا من ما بين النهرين.

عام ٩٤٨ يونانية (٦٣٦-٦٣٧م) هاجم العرب الجزيرة فانهزم الرومان ودخل "عياض" الرها.

عام ٩٥٢ يونانية (٦٤٠-٦٤١م) لنقض العرب على مدينة دارا^(٣٧) وهاجموها. قتل من كلا الجانبين أعداد كبيرة وكان أكثرهم من العرب. وفي النهاية عقدت معاهدة بين الطرفين فتحت أبواب المدينة، ومنذ ذلك الوقت لم يقتل أحد.

وفي نفس هذا العام حاصروا "أدين" حيث قتل عدد غفير بلغ حوالي اثني عشر ألفا من "أرمينيا".

في ٩٥٣ يونانية (٦٤١-٦٤٢م) استولى العرب على قيسارية^(٣٨) في فلسطين.

عام ٩٥٥ يونانية (٦٤٣-٦٤٤م) جاء "ولنتين بطريق" قائد القوات الرومانية لمحاربة العرب ولكنه جبن أمامهم وهرب تاركا كل ما لديه من عدد وعتاد فاستولى عليها العرب.

(٣٥) هو عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، فتحت في أيام خلافته (٦٣٤-٦٤٤م) البلاد وكشرت الغنائم، وأصبحت خزائن كسرى وتمصر بين يدي رجائه، ومع ذلك بلغ من ازدهد والتشرف ما ليس بعده غاية، حتى قيل إنه كان يقف للخطبة وعليه لزار مرقع بالجلد، (جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٤ ص ٤٥)

(٣٦) قرية من أعمال دمشق، بالقرب منها تل يسمى تل الجابية. وفي الجابية خطب عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) خطبته المشهورة. كانت الجابية مقر الأمراء الفلستنة من قبل، وقد احتفظت بأهميتها العسكرية حتى عهد الأمويين. (كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٩٨)

(٣٧) بلدة واقعة في لحف جبل بين نصيبين وماردين. (الكنيسة الشرقية ١٣٠)

(٣٨) بلدة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام. كانت قديما من أعيان أمهات المدن. أما الآن فليست كذلك، وهي بالقرى تتبع منها بالمدن. (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ص ٤٢)

وفى نفس هذا العام دخل "بروقوب" و"تيودور" بطنن فى "سروج" وقد تملكهم غضب شديد؛ فنهبوا وسرقوا وسلبوا كل ما وقعت عليه أيديهم، ثم قتلوا إلى بلادهم عاندين.

خلف البطريرك أنثاسيوس القديس يوحنا تلميذه. فى تلك الفترة اشترى القديس يوحنا بطريرك أنطاكية ويوحنا أسقف العرب وشمعون أسقف الرها ومثي أسقف حلب من دير زوقتين^(٣٩) للمقدس والقديس توما أسقف آمد من نفس الدير.

عام ٩٥٦ يونانية (٦٤٣-٦٤٤م) مات عمر^(٤٠) ملك العرب، وخلفه عثمان^(٤١) الذى حكم اثنى عشر عاما.

عام ٩٦٠ يونانية (٦٤٨-٦٤٩م) دخل معاوية قبرص، وفى نفس العام استولى على "أرود"^(٤٢) (أدور- أرود).

عام ٩٦١ يونانية (٦٤٩-٦٥٠م) توفى القديس مار^(٤٣) يوحنا بطريرك أنطاكية، ودفن فى آمد فى كنيسة مار زعورا المقدسة.

وفى نفس العام توفى القديس مار يوحنا أسقف العرب، حيث دفن فى آمد فى كنيسة القديس مار يوحنا المعمدان.

(٣٩) دير عظيم فى آمد (ديار بكر) وله شهرة واسعة. نشأ فيه ثيودورس الأول المتوفى عام ٧٥٥م، وأربعة عشر أسقفا. (الغناطيوس أفرام الأول: اللاذلو المنشور، ص ٥١١)

(٤٠) قتل عمر بعد عودته من الحج الذى اعتكف على أدائه كل عام، فقام غلام فارسي يدهى أبو لولة لوروز^(٤٠) وطعنه بالخنجر طعنتين. (المسعودى: مروج الذهب، ج ١ ص ٣٠١)

(٤١) ولى عثمان بن عفان (رضى الله عنه) الخلافة (٦٤٤-٦٥٦م=٢٣-٢٥هـ)، وكان أول خليفة لقتلى المال لنفسه، وقيل أيضا إنه قتل فى ليلة القتيى الصمغية الضياع ولبتقوا الدور واخترنوا الأموال. (جورجى زيدان: تاريخ القسطنطينية الإسلامية، ج ٤ ص ٤٦)

(٤٢) أرود: هذا الاسم غير واضح بالنسبة لثيودورس، فقد قال إنه "أدور" ووضع بين قوسين "أرود"، ولكن الصحيح "أرود"، وهى جزيرة بالقرب من القسطنطينية غزاها وفتحها المسلمون عام ٥٤٤م مع جنادة ابن أبى أمية، فى أيام معاوية بن أبى سفيان، وسكنها "معاوية"، وأسلموا بها سبع سنوات. (بهاوت الحموى: مجمع البلدان، ج ١ ص ١٦٢)

(٤٣) "مار" لفظة مريانية تعنى السيد أو الرب، وتطلق على القديسين والرؤساء الكهنين تعظيما. (تاريخ الكنيسة ٨)

وفى العام نفسه توفي أيضا فى آمد القديس مار شمعون^(٤٤) أسقف الرها،
والذى دفن أيضا فى كنيسة مار زعورا.

عام ٩٦٢ يونانية (٦٥٠-٦٥١م) أصبح مار تيودور بطريركا لأنطاكية،
وفى الرها كان (قرياقوس).

عام ٩٦٣ يونانية (٦٥١-٦٥٢م) نشب قتال بين العرب والرومان فى
طرابلس^(٤٥).

عام ٩٦٤ يونانية (٦٥٢-٦٥٣م) دخل حبيب^(٤٦) الجزيرة، وجاء بروقوب
لعقد صلح مع العرب.

عام ٩٦٥ يونانية (٦٥٣-٦٥٤م) مات هرقل^(٤٧) ملك الرومان بعد أن حكم
فترة تقدر بنحو واحد وثلاثين عاما، ثم جاء خلفا له قسطنطين الصغير^(٤٨) لمدة عام
واحد.

عام ٩٦٦ يونانية (٦٥٤-٦٥٥م) مات قسطنطين فخلفه قسطنطين آخر^(٤٩)
لمدة سبعة وعشرين عاما.

(٤٤) لم يخلف مار شمعون ساويرس مباشرة فى الأسقفية؛ فهناك أسقفان جاءا بعد ساويرس، هما يعقوب
وإشعياء، بخلاف الأساقفة النسطوريين الذين فرضوا على المدينة بأمر الفرس.

DUVAL: HISTOIRE D' EDESSE P.237-239-240.

(٤٥) فى عام ٢٣ هـ، أى عام ٦٤٣م قام عمرو بن العاص بغزو إقليم طرابلس، وكانت مدينة حصينة
مسورة من سائر الجهات ما عدا الجهة لاشمالية المطلّة على البحر، فعاصرها شهرا وامتنعت عليه،
ثم تم له فتحها فى هذا العام. (البلاذرى: فتوح البلدان، ج ١ ص ٢٦٥)

(٤٦) هو حبيب بن مسلمة الفهرى.

(٤٧) ضعفت طاقة هرقل الجسائية، لدرجة كعدمته عن تولى قيادة الجيوش البيزنطية بنفسه لمقاومة القوات
الإسلامية، فكان يعهد إلى أولاده وأقاربه قيادة الجيوش، غير أن القوضى شملت أرجاء البلاط
البيزنطى وقتئذ، فترك وصية تقص على أن يتولى شئون الدولة من بعده ابنه الأكبر قسطنطين،
وتشاركه زوجته مارتينا مع ابنها. (إبراهيم العنوي: الإمبراطورية البيزنطية ص ٥٠)

(٤٨) تولى الحكم بعد وفاة هرقل فى أن واحد كل من ولديه قسطنطين الثانى وهرقلون، على أن يحكما
بإشراف مارتينا زوجة هرقل الثانية ووالدة هرقلون، وتوفي قسطنطين الثانى فى أواخر ساوير عام
٦٤١م مسوما، فقامت مارتينا بقتل ابن ضررتها لكى يستأثر ابنها هرقلون وحده بالحكم. (أند رستم:
الروم ج ١ ص ٢٥٤).

(٤٩) فى عام ٦٤٢م نشبت ثورة، وقطع لسان مارتينا وجده ألف هرقلون ونفيا إلى رودس، وتولى الحكم
قسطنطين الثالث وهو بعد فى الحادية عشرة من عمره، ويدعى قسطنطين الثانى II. CONSTANS II.
وتولى الحكم عام ٦٤٤م، واستهل نشاطه البحرى بهجوم على قبرص عام ٦٤٩م، وباحتلال أرواد
عام ٦٥٠م. (أند رستم: الروم ج ١ ص ٢٥٥)

عام ٩٦٧ يونانية (٦٥٥-٦٥٦م) مات عثمان^(٥٠) ملك العرب. نشب الخلاف واهتزت المنطقة، واضطرب العرب، وانتشر الفساد في البلاد، وسفكت دماء عربية كثيرة بأيدي العرب أنفسهم، وذلك لرفضهم الخضوع لرئيس واحد؛ إذ إن كل واحد منهم كان يتطلع إلى الحكم، فقد كان معاوية قائد القوات في المنطقة الغربية^(٥١) يتمنى الحكم. وكان الغربيون يحبونه فيلبعوه ودانوا له بالطاعة، ولكن المنطقة الشرقية والجزيرة تصدوا له، واستجابوا للرئيس آخر يدعى عباسا^(٥٢) ونصبوه خليفة، ومنذ ذلك الحين نشبت بينهم الحروب وسفكت الدماء وارتوت الأرض بدمائهم. قامت حروب كثيرة في كل مكان، ومضت حوالى خمس سنوات على هذا الحال من الخلافات والحروب.

عام ٩٦٨ يونانية (٦٥٦-٦٥٧م) نشبت معركة في صفين^(٥٣) بين عباس ومعاوية، وسفكت دماء كثيرة من الجانبين.

عام ٩٧٣ يونانية (٦٦١-٦٦٢م) قتل عباس^(٥٤) غدرا من العظماء في يوم الجمعة أثناء سجوده للصلاة. ومنذ ذلك الحين انفرد معاوية بالملك لمدة واحد وعشرين عاما، شاملة السنوات الخمس التى مضت في الحروب بينه وبين عباس.

(٥٠) كان قتله لثمان عشرة خلت من ذى الحجة عام ٣٥ يوم الجمعة، وكانت خلافته اثني عشرة عاما إلا اثني عشر يوما. سمي يوم قتله يوم الدار لأنهم هجموا عليه في داره وقتلوه بها. (ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٩٠)

(٥١) المقصود بالمنطقة الغربية هنا سوريا ومصر، على عكس المنطقة الشرقية وهي المقصود بها الجزيرة وبلاد آشور. إن كلمتي المنطقة الغربية والشرقية استخدمتا الكتاب اليمانية، وذلك لتقسيم المنطقة إلى أسام أو وحدات كسبية. فواحدة منها توضع لبطريرك أنطاكية، والأخرى إلى مفرسان نكريت. ASSEMANI: BIBL. ORIEN. T. II P. 362.

(٥٢) المقصود هنا دون شك هو "على" وليس "عيسى". وهو على بن أبى طالب (٦٥٦-٦٦١م ٣٥-٤١ هـ). هناك ظن أو قول بأن ديونيسيوس، لأنه كان يدون كتيبه في سوريا، وكان السوريون وثيقي الصلة بمعاوية، فأضرموا المداوة لملكي وأبنته. وتبنا لميل تلك الأمة فقد محوا أسماء على وأبنائه من قائمة الخلفاء، وأضافوا سنوات حكمهم إلى سنوات حكم معاوية. ASSEMANI: BIBL. ORIEN. T. II. P. 103.

(٥٣) موقع بالقرب من الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي، بين الرقة ونابلس. وكلفت وقعة صفين بين على (رضى الله عنه) ومعاوية في غرة صفر عام ٣٧ هـ ٦٥٦م. (ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٣ ص ٤١٤)

(٥٤) المقصود هنا هو "على" (رضى الله عنه) ربيع الخلفاء الراشدين، كان قتله صبيحة الجمعة سبع عشرة ليلة خلت من رمضان عام ٤٠ هـ. (ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١ ص ١٨١).

عام ٩٧٦ يونانية (٦٦٤-٦٦٥م) توفي القديس مار تيودور بطريرك أنطاكية، وخلفه القديس مار ساويرس بزمشقا. (وفي للرها خلف قرياقوس القديس مار يعقوب).^(٥٥) وفي هذا الوقت ظهر أهرن للفارسي الذي أطلق عليه اسم المفسر الفارسي.

عام ٩٨٨ يونانية (٦٧٦-٦٧٧م) مات معلوية^(٥٦) ملك العرب، وجاء خلفا له يزيد^(٥٧) الذي حكم لمدة ثلاث سنوات ونصف السنة.

عام ٩٩٠ يونانية (٦٧٨-٦٧٩م) في الثالث من شهر نيسان (أبريل) يوم الأحد وقع زلزال هائل وعنيف، هدمت على أثره بطن في سروج، وكذلك كنيسة الرها القديمة، حيث لقي الكثير مصرعهم.

عام ٩٩٢ يونانية (٦٨٠-٦٨١م) توفي يزيد^(٥٨) ملك العرب، وحكم بعده مروان^(٥٩) لمدة عام واحد، وفي نفس العام توفي قسطنطين ملك الرومان، وجاء خلفا له قسطنطين آخر^(٦٠) لمدة ستة عشر عاما.

(٥٥) أضيفت هذه الجملة في هامش المخطوطة لأنها يجب أن نقرأ هنا. ويعقوب اسم يخلف القديس قرياقوس مبشرة، بل كان هناك قديس يدعى كاتيل، توفي عام ٦٦٩م، وهو تاريخ وفاة قرياقوس. Duval: Histoire D'edesse p.241

(٥٦) توفي معلوية بدمشق في رجب عام ٦٠ هـ = ٦٧٩ م بالفا من العمر ثمانين عاما (الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٤).

(٥٧) كانت مدة حكم يزيد ثلاث سنوات وثمانية أشهر. (ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ١١١)
(٥٨) أغفل ديونسيوس معلوية وابنيه يزيد وعبد الملك، وأضاف سنوات حكمهم إلى مدة حكم مروان. توفي يزيد في ١٤ من ربيع الأول عام ٦٤ هـ = ٦٨٣ م، وكانت مدة خلافته ثلاث سنوات وستة أشهر. (أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٩٢)

(٥٩) بويع مروان بالأردن عام ٦٤ هـ = ٦٨٣م، وهو أول من أخذ الخلافة بالسيف. مات بدمشق، وكانت مدة ولايته سبعة أشهر وأياما. (ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٤٨)

(٦٠) هو قسطنطين الرابع (٤٨-٦٦ هـ = ٦٦٨-٦٨٥م). في أثناء غياب قسطنطين الثالث في إيطاليا وصقلية كان ابنه قسطنطين الرابع يسوس الملك وهو بعد قتي، فلما علم بقتل والده ونشوب الثورة في صقلية نهض إليها، فأخذ بالثغر، وعاد والشعر قد نبت في وجهه فلقب بالألحي POGONATUS (أند رستم: الروم ج ١ ص ٢٥٨)

عام ٩٩٣ يونانية (٦٨٢-٦٨٣م) مات مروان ملك العرب، وجاء خلفا له عبد الملك^(١١) الذي حكم لمدة واحد وعشرين عاما. وفي أثناء حكمه حدث شقاق استمر تسعة أعوام، رفض العرب أثناءها الخضوع لحاكم واحد؛ فلم يتوقفوا عن الحروب والمعارك طيلة السنوات التسع.

عام ٩٩٤ يونانية (٦٨٢-٦٨٣م) مات للقديس مار سلويرس برمشقا، وظل منصب البطريرك شاغرا لمدة خمس سنوات بسبب النزاع بين الأساقفة.

عام ٩٩٩ يونانية (٦٨٧-٦٨٨م) أصبح للقديس أنثاسيوس^(١٢) بطريركا.

عام ١٠٠٢ يونانية (٦٩٠-٦٩١م) ساد السلام ودانت البلاد كلها لعبد الملك، واستقر على العرش.

عام ١٠٠٣ يونانية (٦٩١-٦٩٢م) أجرى عبد الملك تعديلا^(١٣) في سوريا، فقد أصدر قانونا صارما ينص على أن يلحق كل فرد ببلدته أو قريته أو مسقط رأسه، ويسجل اسمه واسم أبيه، وكذلك كرومه وزيتونه وثروته وعدد أولاده وكل ما يملك. كان هذا بداية الجزية المفروضة على رموس الأفراد؛ فقد كان ذلك بداية المساوي التي حلت بالمسيحيين. كان الملوك حتى ذلك الوقت يستولون على خير

(٦١) عبد الملك بن مروان هو خاس خليفته، بويع عام ٦٥هـ=٦٤٨م عقب موت مروان، واستتب له الأمر بالشام ومصر، وتوفي عام ٨٦هـ=٧٠٥م. (جورجي زيدان: تاريخ القسطنطينية الإسلامية ج ٤ ص ٦٧)

(٦٢) عام ٩٩٥ يونانية نصب أنثاسيوس المضر الملقب بـ"البلدي" بطريركا، وتوفي بعد جلوسه على الكرسي بثلاث سنوات، أي عام ٩٩٨ يونانية، في أيلول، وكان قد رسم مار يعقوب أسقفا للرها، وأنشاء احتفاره أو عز إلى مرجيس الزوقيني الذي كان يعتبر نفسه رئيسا للأساقفة، يرسم جورجيس أسقفا للعرب، فتم ذلك في تشرين الثاني. (تاريخ ميخائيل السرياني ٣٦٨)

(٦٣) كان رأى السمعاني ASSEMANI من التعديل أنه المساواة، وهو المذى يسمى الآن بالفرج. (السمعاني: المكتبة الشرقية ج ٢ ص ١٠٤) وقد اختلفت الآراء حول من الذى فرض هذا النظام المالى فى البلاد، أهو عبد الملك بن مروان أم هو عمر بن عبد العزيز؟ فيقول البعض إنه عبد الملك مثل ديونسيوس التلمحوى (المخطوطة).

DUVAL: HISTOIRE D'EDESSE P.228/ LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T. XIII P. 23./BAR-HEBRAEUS: CHRON.ECCL. P. 108.

ولكن أغلب المراجع والمصادر العربية تؤيد أنه عمر بن عبد العزيز، وهو الظن الغالب.

البلاد، وليس فقط من الأفراة. منذ ذلك الوقت بدأ أولاد هاجر يستعبدون أولاد آرام، ولكن الولد لنا لأتنا ارتضينا أن يحكمنا العبيد، تلك هي الضريبة الأولى التي فرضها العرب.

عام ١٠١٤ يونانية (٧٠٢-٧٠٣م) توفي الملك عبد الملك^(١٤) ملك العرب، بعد فترة من الحكم استمرت ولحذاً وعشرين عاماً، شاملة للسنوات التسع التي وقعت فيها الفتنة؛ فحكم بدلاً منه الوليد^(١٥) لمدة تسع سنوات.

عام ١٠١٥ يونانية (٧٠٣-٧٠٤م) توفي القديس أنثاسيوس بطريرك أنطاكية، الذي خلفه القديس مار يوليان.

عام ١٠١٦ يونانية (٧٠٤-٧٠٥م) حل طاعون عظيم وشديد على البلاد، لدرجة أن الأهالي لم يتمكنوا من دفن الموتى، وقد استقل خاصة في بلدة سروج. وعلى أثر هذا الطاعون توفي لثان وسبعون شخصاً في دير مار سبلا.^(١٦)

عام ١٠٠٨ يونانية^(١٧) (٦٩٦-٦٩٧م) توفي قسطنطين^(١٨) إمبراطور الرومان، وجاء خلفاً له جستنيان^(١٩) الذي حكم لمدة عشر سنوات.

عام ١٠١٧ يونانية (٧٠٥-٧٠٦م) اجتمع سينودس (مجمع كنسي) في دير مار سبلا، وكان رؤساؤه مشهورين، وهم البطريرك يوليان وتوما أسقف آمد ويعقوب أسقف الرها مفسر الكتب والقديس مار يعقوب^(٢٠) أسقف الرها.

(١٤) عن عبد الملك بن مروان استعمال اللغة العربية في الدولتين. وتوفي عام ٨٦ هـ = ٧٠٥م في النصف من شعبان، (جورجي زيدان: ج ٤ ص ٦٧)

(١٥) سادس الخلفاء، وهو ابن عبد الملك (٨٦-٩٦ هـ = ٧٠٥-٧١٥م) شدد العرب في أيامه أزمى إيمانهم وأعظم قوتهم. كان عند أهل الشام من أفضل خلقهم، بنى المساجد ومنها مسجد دمشق ومسجد المدينة والمسجد الأقصى ووضع المنابر. (ابن الأثير ج ٤ ص ١٣٧)

(١٦) يقع دير مار سبلا في ضواحي سروج. (الأنطاكي المقتور ٥٠٢)

(١٧) هذا رجوع بالتاريخ.

(١٨) هو قسطنطين الرابع (٦٦٨-٦٨٥م).

(١٩) هو جستنيان الثاني (٦٨٥-٦٩٥م)، وهو ابن قسطنطين الرابع.

(٢٠) قال السمعاني إن يعقوب رسم أسقفاً عام ٦٥١م، بينما أرجحه ديونيسيوس في المخطوطة إلى عام ٦٧٧

أو ٦٨٠م. WRIGHT: SYRIAC LITERATURE P.141- 145.

عام ١٠١٨ يونانية (٧٠٦-٧٠٧م) توفي جستنيان^(٧١) إمبراطور الرومان، وخلفه على العرش ليونتيوس^(٧٢) الذي حكم أربع سنوات.

عام ١٠١٩ يونانية (٧٠٧-٧٠٨م) توفي القديس مار يولييان بطريرك أنطاكية، وخلفه مار إليا.

عام ١٠٢٠ يونانية (٧٠٨-٧٠٩م) فرضت ضريبة جديدة أضيفت إلى الضريبة السابقة، مما ضاعف من المساوي.

عام ١٠٢١ يونانية (٧٠٩-٧١٠م) توفي القديس مار يعقوب أسقف الرها، وجاء خلفا له مار حبيب^(٧٣) في هذا الوقت اشتهر القديس مار توما العمودي من تلا^(٧٤).

عام ١٠٢٢ يونانية (٧١٠-٧١١م) مات لونتئوس إمبراطور الرومان، والذي تولى الحكم بعده طيباريوس أنيسمار^(٧٥) لمدة سبع سنوات.

عام ١٠٢٣ يونانية (٧١١-٧١٢م) مات الوليد^(٧٦) ملك العرب، وجاء خلفا له سليمان^(٧٧) الذي حكم لمدة سنتين ونصف السنة.

(٧١) لم يمت جستنيان في ذلك التاريخ، ولكن ليونتيوس قام بنفيه. (أند رستم: الروم ج ١ ص ٢٧٠)
(٧٢) استغل ليونتيوس LEONTIUS (٦٩٥-٦٩٨م) انتفاضة أمالي القسطنطينية لكي يخذل إمبراطورا بعد يوسطينيانوس، ولكن سرعان ما حل طيباريوس مكانه، فحبسه في دير ثم قطع رأسه عام ٧٠٥م.

LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T. XII.P.3.

(٧٣) الحقيقة أن مار حبيب لم يخلف مار يعقوب، ولكن الذي حدث أن يعقوب ترك الأسقفية لمدة عشرين عاما بدءا من عام ٦٨٨م، وفي هذه الفترة حل محله مار حبيب. وبعد موت حبيب عام ٧٠٨م رجع يعقوب إلى الرها أسقفا، وتوفي بعد عدة أشهر، وجاء خلفا له جبرائيل. D'EDESSE P. 245-25

(٧٤) تلا أو تل موزلت كانت مدينة في بلاد ما بين النهرين، وتبعد تقريبا بمسافة مساوية من الشرق عن نصيبين ومن الشمال عن آمد، وبمعنى أدق بين نصيبين والرها.

ASSEMANI: DISS. DE SYRIS. MONOPH.P.114.

(٧٥) هو طيباريوس الثالث (٦٩٨-٧٠٥م) قام بالاستيلاء على العاصمة بعد أن حبس ليونتيوس في أحد الأديرة، وقد اشترك في الحكم معه ولده تيودور "مستظنين".

LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T. XII P. 44-62.

(٧٦) مات الوليد عام ٩٦هـ-٧١٥م، وكانت مدة خلافته سبع سنوات وسبعة أشهر، وكانت وفاته بسلام مروان، ودفن بدمشق. (ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٣٧)

(٧٧) هو سليمان بن عبد الملك. في عام ١٠٢٦ توفي الوليد أمير المسلمين، وخلفه أخوه سليمان مدة خمس سنوات وستة أشهر. وفي هذه السنة دخل سليمان منطقة غلاطية واحتل حصونها، وعاد بفنائم وفيرة. (أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ٢٠٠)

عام ١٠٢٤ يونانية (٧١٢-٧١٣م) مات القديس مار توما أسقف آمد، وخلفه مار تيودوت.

بعد الإمبراطور الروماني أبسيمار تولى الحكم جستنيان^(٧٨) لمدة ست سنوات، وبعده حكم فيليبكس^(٧٩) لمدة ثلاث سنوات، وبعد ذلك جاء أنستاس^(٨٠) لمدة سنتين، وأخيرا توداسيوس^(٨١) قسطنطين لمدة عام واحد، وهو الذى كان يتولى الحكم عندما هاجم مصلمة^(٨٢) الأراضى الرومانية. إن جملة سنوات حكم هؤلاء الأباطرة الرومان يقدر بنحو اثنى عشرة عاما. إن هذا الحساب قائم على أساس تقريب تاريخ وقسوع الحدث إلى أقرب سنة. إن العرب لا يحسبون الشهور ولكن يحسبون الأعمار مثل السوريين؛ حتى إن معظم الكتاب لا يقومون بالتأريخ الدقيق، ولكن يحسبون فقط سنوات الحكم ويحذفون سنوات النزاع الذى يقع بين

(٧٨) ظهر جستنيان الثانى مرة أخرى (٧٠٥-٧١٢م) وذلك بعد عشر سنوات من اغتفائه. كان أول إمبراطور سق على العملة صورة المسيح، حكم ست سنوات، وتوفي فى أواخر يناير عام ٧١٢م-١٤هـ، وبموته انتهى أمر الهرقلين بعد فترة حكم تقدر بحوالى مائة عام وستة أشهر. (أسد رستم: الروم ج ١ ص ٢٧٢).
LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T. XII P. 60-83.
(٧٩) لم يكن فيليبكوس البرداني (٧١١-٧١٣م) سوى رجل لهو ولذة، فقد قضى وقته منصرفا إلى المتع. دخل العاصمة بينما كان يوستيوس فى سينوب، فقتله وقتل ابنه طيبيريوس، وبذلك انتهى أمر الهرقلين بعدما حكموا مئة سنة وسنة. (أسد رستم: الروم ج ١ ص ٢٧٢)
(٨٠) أنستاس الثانى أو أنسطاسيوس (٧١٣-٧١٥م)، أما اسمه الحقيقى فهو "أرتامبوس"، وكان رئيس كتاب القصر، وقام الشعب بتميينه ولكن تمرد عليه الجند بعد ذلك وخلصوه.

LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T. XII P. 108.

(٨١) هو توداسيوس الثالث، آخر ملوك الأسرة الهرقلية البيزنطية. (عمر فروغ: تأريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ص ١٦١)

(٨٢) كان قد تولى الخلافة فى دمشق سليمان بن عبد الملك (٧١٥-٧١٧م)، فأعد أسطولا كبيرا وجوشا عظيما، وأخذ القيادة فى البر لأخيه "مسلمة". واعتمد مسلمة على تجويع المدينة أكثر من اعتماده على مهاجمتها جبهيا، فجاء شتاء (٧١٧-٧١٨م) بثلج دلم ثلاثة أشهر، فمات عدد كبير من جنود مسلمة بالبرد وداء الزحار، وبين من لقى حتفهم الوزير سليمان. وفى ربيع عام ٧١٨م وصل أسطول احتياطي من مصر وجيش جديد من طرسوس، واحتل هذا الجيش شاطئ الفسفور الآسيوى، ورسا الأسطول فى مياهه، فتملكت سفن الفلار الرومية إلى مرسى الأسطول المصرى فأحرقت، ونزلت قوة من الروم وراء الجيش الجديد فهاجمته ومزقته إربا، وبلغت المجاعة نهاجم صفوف مسلمة، ثم فاجأه البلغاريون من وراء فقتلوا من رجاله عشرين ألفا، فراجع عن عاصمة الروم بعد أن قد معظم جيشه. وترضى الباقى لمصلحة فى بحر إيجة، فلم يعد إلى شواطئ الشام سوى خمس سفن فقط. (أسد رستم: الروم ج ١ ص ٢٧٤).

CANARD, M: EXPEDITIONS ARABES . JOURNAL ASIATIQUE . 1929, P. 102.

حكيمين. أما أنا فقد لتبعت هذا النظام في حساب تلك الفترة لكي لا يحدث أى لبس لدى القارئ.

عام ١٠٢٨ يونانية (٧١٦-٧١٧م) دخل مسلمة الإمبراطورية الرومانية. لقد جمعت قوات غفيرة من العرب لاحتصار لها، وبدلوا يغيرون على أراضي الروم؛ فهرب كل سكان بلاد آسيا وكبادوكيا وفروا أمامهم، وكذلك كل أهالي المنطقة الساحلية.

لقد زحفوا إلى الجبل الأسود^(٨٣) ولبنان حتى ملتين ونهر أرسيناس، حتى وصلوا إلى داخل أرمينيا. كانت تلك المنطقة مشهورة بكثرة عدد سكانها وكثافة كرومها ومحاصيلها وبكثرة أشجارها الجميلة، ولكن منذ ذلك الحين أصبحت مهجورة وخالية من السكان.

عندما شاهد الملك هذا العدد الصغير زاحفا عليه، وعلم أن لاوون^(٨٤) قائد قواته قد عقد اتفاقية معهم ارتعد قلبه وضعفت يداه وتنازل عن العرش، فخلعوا عنه التاج وقاموا بخلق رأسه. تلك هي عادة ملوك الروم الذين إذا تنحى أحد منهم عن العرش تخلق رأسه ويبقى في منزله. عندئذ استدعاه لاوون رئيس القوات وقال له: "تشجع ولا تخف". فلم يستسلم للهزيمة، ولكنه عاند وأصر على التنازل عن الملك.

كان لاوون هذا رجلا ذا قلب قوى ومحبا للعرب إلى أقصى حد، وكان سورى الجنسية والأصل. وبسبب شجاعته جعلوه قائدا للقوات، وبحكمته استطاع

(٨٣) الجبل الأسود أو جبل موروس يقع بالقرب من أنطاكية في سلوقية التي هي اليوم السويدية. (الزلازل المنشور ص ٥٠٦)

(٨٤) هو مؤسس الأسرة الأسورية أو السورية، اختلفت الآراء في أصله، فإن ثيوفانس^١ المرجع الرئيسى في سيرة لاوون قال عنه إنه من أصول جرمانيكية، ومن أصل سورى THEOPHANES: CHRONOGRAPHIA.ED. BEOR P. 391. كان يشغل أولا منصب حاكم أفتونيا (أى الهند الشرقى من أقاليم آسيا الصغرى)، وحاول المسلمون استملاكته إلى جانيهم إنان زحفهم على القسطنطينية، ولكنه استغل هذه الفرصة وصحب الجيوش الإسلامية إلى أسوار العاصمة، حيث عزم على تنفيذ ما بيته فى نفسه من تحقيق مأربه الخاصة؛ فتمكن من الدخول إلى القسطنطينية، وأنهى قصة اضطراب أحوالها، وتقلد أئنة الإمبراطورية. ولما كان خبيراً بأساليب العرب ومطامحهم فقد تمكن من توجيه دفة الدفاع عن العاصمة بشكل ضمن له الفوز. (إبراهيم العدوى: الإمبراطورية البيزنطية ص ٦١)

أن يحمي الأرض من أن تروى بدماء الرجال، فقد عقد اتفاقاً مع مسلمة ووعده أن يدخل القسطنطينية دون قتال. وقد وثق فيه مسلمة عندما دخل ولم يحارب ولم يقم بأسر أحد، واتجه إلى القسطنطينية وذهب وصوب الحصار حول المدينة.

وعندما دخل لاوون المدينة، ورأى الرومان في حالة من اليأس، وأن الإمبراطور تنازل عن الملك، أخذ يشجعهم قتلاً لهم: "لاتخشوا شيئاً". فعندما رأوا شجاعته وخافوا أن يحدث له ما حدث للإمبراطور السابق أخذوه ونصبوه ملكاً.^(٨٥) وبمجرد أن استقر التاج الملكي على رأسه تحلى بالقوة والشجاعة، فحصد سور المدينة، وأرسل قوة لتقطع الطرق وتسمح فقط بمرور القوافل القادمة من سوريا، كما هدم وكسر معبر السفن.

لقد وجد العرب أنفسهم وقواتهم في الحصار^(٨٦) كالمساجين، فأمر مسلمة بزرع الكروم، ولكن حدث أن حلت بهم مجاعة^(٨٧) قاسية وشديدة، وصلت بهم إلى حد أن الخبز نقص في معسكرهم، فاضطروا أن يأكلوا دوابهم وخيولهم. وعندما سأل مسلمة لاوون: "أين القسم الذي أقسمته بالسماح لي بدخول القسطنطينية دون قتال؟" أجاب لاوون بهدوء: "تنتظر بضعة أيام حتى يخضع لي عظماء الإمبراطورية".

لقد ظلوا هكذا دون قتال في مراكزهم، بعضهم في الداخل والبعض الآخر في الخارج لمدة ثلاث سنوات^(٨٨) ولقد اشتدت وطأة المجاعة على العرب، لدرجة أنهم أكلوا أحذيتهم وجثث الموتى، بل كانوا يفتكون بعضهم ببعض، حتى أصبح الواحد منهم لا يأمن الخروج بمفرده.

(٨٥) دخل لاوون من الباب الذهبي، واستقبل بحفلة بالغة في المدينة، ووفرة عظيمة ذهب إلى كنيسة أبنا صوفيا، وتزوج في ٢٥ مارس عام ٧١٧م.

LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T.XII. P. 108.

(٨٦) لم يدم هذا الحصار أكثر من عام واحد، فقد زال في ١٥ أغسطس عام ٧١٨م. كثير من الكتاب قدروا هذا الحصار بنحو ثلاث سنوات. (إبراهيم الحنوي: الدولة البيزنطية ص ٦١)

(٨٧) لقد اشتدت هذه المجاعة بالعرب لدرجة أنهم من قسوتها بدأوا يأكلوا الجياد والبغال والجمال وأوراق الشجر وحتى جلود أسلحتهم وأحذيتهم كانوا على استعداد لأكل الجثث.

LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T.XII. P. 122-123.

(٨٨) دام الحصار لمدة عام واحد ورفع في ١٥ أغسطس عام ٧١٨م.

وبينما كان مسلمة يستحث لاوون كل يوم قاتلاً: "لقد بوعدك أو أحارب" وصلهم نبأ وفاة سليمان خليفة العرب، وتولى عمر الثاني^(٨٩) خلفاً له. ثم أرسل لهم عمر خطاباً يقول: "أخرجوا من هنا حتى لا تموتوا جوعاً أنتم ومن معكم". وبعد أن تسلم مسلمة الخطاب طلب من لاوون أن يدخل المدينة لزيارتها؛ فدخلها مع ثلاثين فارساً، ومكث بها ثلاثة أيام حيث شاهد الأعمال الملكية، ثم انسحب العرب من هناك وخرجوا دون أن يفعلوا شيئاً، حتى وصلوا إلى بلدة تسمى طلونا،^(٩٠) فلما رآهم حاكم المدينة جائعين وفي حالة من الهزال والضعف احتقرهم، وتوجه إلى لاوون قائلاً: "أرسل لي قوة وسأهاجمهم سرّاً".

ولكن تلك الخطة لم تخف عليهم، فعندما شعروا أن هناك قوة أتية خلفهم قام أحد رؤساء قوات مسلمة ويدعى عباساً، وطلب من المجموعة الملكية قائلاً: "أعطوني جيشاً حتى أذهب وأنتقي بهم قبل أن يصلوا، خشية أن يحاصرونا ويمحوا أثرنا من على وجه الأرض، وتصبح نهائيتنا أسوأ مما حدث لنا في هذا الطريق". فأخذ قوة هائلة وذهب لمقابلتهم، وكان الآخرون يسبرون في جماعات متفرقة لعدم استعدادهم للحرب، وأيضاً بسبب عدم معرفتهم بقوة العرب القادمين إليهم. لقد نزل عباس قبلهم في مكان واسع، كانوا هم أنفسهم مستعدين لنصب خيامهم فيه في ذلك اليوم، وقام بوضع القوات كلها في كمين أعده في خنادق ومنازل من بوص كانت موجودة هناك. جاء الرومان ونزلوا في الحقول لا يعرفون شيئاً، ولم يدركوا قط ما فعله العرب، فنصبوا خيامهم وأرسلوا جيادهم للرعى كما هي عادة

(٨٩) هو عمر بن عبد العزيز (٧١٧ - ٧٢٠ م = ٩٩ - ١٠١ هـ) ثلث الخلفاء الأمويين، أوصى إليه بالخلافة سليمان بن عبد الملك لما اشتد مرضه بدقيق. لقد قطع عمر بن عبد العزيز السب عن علي ابن أبي طالب عقب خطبة الجمعة، كما أنه أبطل تمصيل الجزية من أسلم. وقد توفي مسموماً سنة ١٠١ هـ لخمس بقين من رجب يوم الجمعة بالمناصرة ودفن بدير سمان، وقيل توفي بدير سمان ودفن به، وهو المعروف الآن بدير النقيرة من عمل مرة الفصان، وكلفت مدة خلافته سنتين وخمسة أشهر، وكان عمره أربعين سنة وأشهرًا. كان في وجهه شجة من رمح دابة وهو غلام، ولهذا كان يدعى بالأنثى. (أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ٢٠١)

(٩٠) بلدة في كبادوكيا مشهورة منذ عدة قرون، كانت واسعة وغنية وأهلة بالسكان، ولكنها اليوم مهجورة ولا تحتفظ إلا باسمها وبأساطيرها، وقد سقطت طوفاً أو طلونا (من أعمال آسيا الصغرى) في أيدي العرب بعد حصار طويل. (تاريخ ميخائيل السرياني الكبير ج ٢ ص ٣٧٥)

الجيش. حينئذ خرجوا من كمائنهم وخنادقهم حيث كانوا يقيمون، فانقض عليهم العرب وفقا للإشارة المتفق عليها بينهم فأبادوهم جميعا بحد السيف، ولم ينج منهم أحد. كان الرومان حوالى ستين ألفا،^(٩١) وبعد أن نهب العرب الغنائم رجعوا إلى زملانهم. وحدث أن كانت قوة رومانية أخرى آتية بعدهم، ولكن عندما علمت بما حدث لسابقتها تملكها الخوف وقفلت راجعة. أما العرب فبعد أن سلبوا ونهبوا كل ما وقعت عليه أيديهم خرجوا من تلك المنطقة وعادوا إلى سوريا.

عام ١٠٣٢ يونانية (٧٢٠-٧٢١م) التي كانت أول سنة لعمر خليفة العرب، والسنة الرابعة للارون ملك الروم، خرج مسلمة من مملكة الروم بعد أن خرب ونهب كل تلك المنطقة، وحولها إلى صحراء قاحلة. إنى قد أغفلت أحداثا كثيرة وقعت فى تلك الغزوة، وذلك لكى لأطيل... تمت القصة.

فى تلك الفترة ظهر البطريق إليا والأسقف مار حبيب من الرها وشمعون من حران وتبوءوت من آمد.

عن علامة الإعجاز التى قام بها مار حبيب أسقف الرها

(أما سر الملك فخير أن يكتف وأما أعمال الله فإذاعتها والاعتراف بها كرامة).^(٩٢)

إنه إن يكون غريبا، كما أن آذان المستمعين إن تستاء، إذا رويت معجزة تدل على عظمة الرب التى حدثت على يد أحد رسله فى أيامنا. عندما أراد العرب غزو البلاد الرومانية كان من بين تلك القوات العربية رجل عربى جاء وأقام فى دير القديس مار هابيل^(٩٣) فى أرض الرها، فلما رأى أن حارس هذا الدير رجل تقى

(٩١) لقد فقد الرومان نحو أربعين ألف محارب فى تلك المعركة.

BAR-HEBRAEUS: CHRON. SYR. P. 120.

(٩٢) العهد القديم: الأمغار القانونية، سفر طوبيا ١٢: ٧.

(٩٣) دير يقع فى قرية فى كورة سعرت، وهى مدينة جنوبى بليس، جنوب شرقى بحيرة "وان". (الزولو المنشور ص ٥١٦)

متواضع يقظ يتحلى بكل الفضائل الإلهية عهد إليه بمبلغ لا بأس به من الذهب، وقال له: "احتفظ لى بهذا، فإذا رجعت حيًا استرددته منك، أما إذا وصاك خبر موتى فوزعه على الفقراء". ثم غادر المكان.

قبل الراهب الأمانة، فأخذ الكنز وحفر فى الأرض لإخفائه فيها، حتى لا يشعر به أحد ممن معه. غاب العرب لمدة ثلاث سنوات ولم يكشف السر، فحدث - لحكمة من الخالق - أن خرج الحارس من هذا العالم المضطرب قبل أن يخرج العرب من بلاد الروم. ثم جاء صاحب الأمانة وسأل عن الرجل فأخبروه أنه قد مات، فقال لهم: "أعطونى ما أودعته لديه". فأجاب الراهب: "لا علم لنا بما تقول، وأيضا لم يتحدث عن هذا ولم يوص أحدًا منا بشيء كان يوجد لديه...".

ولما كان هذا الرجل العربى قويا فقد ددد وتوعد الراهب قائلا: "أعطونى مالى وإلا فسأهدم ديركم". ولأن الأمر كان يتعلق بمبلغ غير بسيط فقد كانوا مضطربين جدا، فأمرهم الحاكم أن يبيعوا كل ما يملكون ويعطوا الرجل المبلغ ثمنا لتحريرهم، وإذا لم يكف هذا المبلغ فسيبيع راهبان هذا الدير حتى يسددوا المبلغ. وعندما علم كل أهالى البلدة والمنطقة بهذا الحكم القاسى الذى صدر ضد الراهبان الأتقياء أصابهم هلع شديد من غدر الزمن، ففضلوا أن يبيعوا أبناءهم وإخوانهم عبيدا على أن يقوموا بخدمة الوثنيين.

لقد شعر أسقف البلدة العفيف مار حبيب بحزن عميق، عندما رأى أن إخوانه على وشك أن يساقوا إلى العبودية، وبعد أن ذرف دموع الحسرة بجوار المخلص امتطى جواده واتجه إلى الدير بصحبة حشد عظيم من نبلاء المدينة والمنطقة، حتى يلتمسوا الرحمة من هذا الرجل. لقد حاولوا أن يقموه بكل الطرق بأن الراهبان سيأتون من كل مكان ليدبروا له المبلغ المطلوب، ولكنه لم يستجب قائلا: "إن لديهم مالى فليعطونى ما هو لى وسأذهب". أما الآخرون فكانوا من جانبهم يؤكدون له دائما بالقسم وبالنواح أنهم لا يعرفون شيئا عن ذهبه، ولكنه لم يقع بكلامهم.

كان القديس مار حبيب مضطرب للفؤاد ومشئت الفكر، فالبعض يقول نحن لانعرف شيئا، ولكنه لم يتقبل ذلك قط، ولم يصدق. وتسليح بدرع الإيمان الحقيقي، تسليح بالرب ويمم شطر بيت عنيا وسأل عن لعازر (وقال أين وضعتموه؟ قالوا له يا سيد تعال وانظره).^(٩٤) لقد أخذ بيده الأبخرة والمباخر وذهب إلى مقبرة الدير دون أن يسمح لأحد أن يصحبه، فذهب ووقف على الضريح حيث دفن الراهب الطيب. هنا سجد وصلى ثم قام وقدم البخور وأطلق أمام الرب رائحة دموع قلبه المعطرة.

لقد وقف على باب الضريح بهذا الإيمان الراسخ كما يتصرف رب المعجزات، ونادى قائلا: "يا فلان انتفض باسم الرب". عندما سمع هذا القول جلس أمامه بوجه باسم، كما لو كان لم يعرف فساد المقبرة، فقال له حبيب: "يا بني قل إذا ما كان السيد فلان من العرب قد عهد إليك بشيء إيان ذهابه إلى أرض الروم؟" أجاب: "نعم يا سيدي". "كم؟" سأل الأسقف. أجاب: "آلآفا من اللن". سأل حبيب: "أين هي؟" أجاب: "لقد دفنتها بين أبواب الدير تحت الكرسي الفلاني، فإذا أمرت فسأذهب بنفسى وأرد له ماله". فسأله مرة أخرى: "هل يعرف أحد غيرك في هذا الدير مكان الدين؟" فأجاب: "لا يا سيدي". فقال له القديس: "إن ميعاد بعث الموتى لم يحن بعد، استرح الآن حتى يأمرك صوت الرب بالنهوض". وعلى الفور تحول وأصبح كما كان من قبل.

عندما علم القديس الحقيقة كلها ارتاح، فجاء وأمرهم بأن يحضروا له فأساء، وتوجه إلى المكان الذي عينه له "الميت"، وأمرهم أن يقلبوا المقعد وأن يحفروا ويفتشوا تحته. ولما نفذوا أمره ظهر الذهب، فأعاده إلى صاحبه، وبذلك تمكن من إنقاذ الدير المقدس.

(٩٤) العهد الجديد: إنجيل يوحنا ١١: ٣٤.

عام ١٠٣٤ يونانية (٧٢٢-٧٢٣م) توفي عمر^(٩٥) خليفة العرب بعد أن حكم مدة سنتين وأربعة أشهر، وجاء بعده يزيد^(٩٦) الذي حكم أربع سنوات.

عام ١٠٣٥ يونانية (٧٢٣-٧٢٤م) أمر يزيد بإزالة الأصنام^(٩٧) حيثما وجدت، سواء في المعابد أو في الكنائس أو في المنازل، ولذا أرسل عمالا مكلفين بتعطيم الأصنام حيثما كانت.

عام ١٠٣٦ يونانية (٧٢٤-٧٢٥م) أصدر يزيد مرسوما قاسيا يأمر بقتل الكلاب البيضاء والحمم الأبيض والديوك البيضاء. لقد أبيدت الحيوانات الخرساء البرينة، بحيث أصبحت أسواق المدن والقرى معبأة برائحة جثثهم. كان مكتوبا (وباركها الله قائلا أتمري واكثرى واملئى المياه فى البحار وليكثر الطير على الأرض)،^(٩٨) كان ذلك يودى بحياتهم على عكس ما كان يأمر به الخالق، وكانوا بوحشيتهم يريدون أن يهلكوا ما كان قد صنع فى اللدى الأموى وثبت بإرادة الخالق، وفقا لقاعدة الخليفة وإصرارا على تحدى أوامر الخالق، وأن يمنع العالم من أن يسير وفقا للقوانين التى فرضت عليه من كتابه. لقد أمر يزيد بالقضاء على كل الرجال الشقر،^(٩٩) ولكن هذا المشروع فشل بفضل من يخشون الرب، ولم يسفر

(٩٥) توفي عمر بن عبد العزيز فى رجب عام واحد ومائة من الهجرة، يوم الجمعة ٩ فبراير عام ٧٢٠م، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر، بالغا من العمر تسعة وثلاثين عاما وأشهرها، وقيل كان عمره أربعين عاما وأشهرها، وكانت كنيته أبا حفص. قيل إنه مات مسموما عند أكثر أهل التاريخ. (ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ١٦٦)

(٩٦) هو يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ=٧٢٠-٧٢٤م)، كنى بأبى خالد، كانوا يسمونه خليف بنى أمية، شغل بجارتين إحداهما سلامة والأخرى حبيبة. تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز لمدة أربع سنوات، وسار فى طريق غير طريقه. أصدر أمرا بإزالة جميع الصور والتماثيل سواء صور البشر أو الحيوانات، من الكنائس والمباني والمحيطان، ومن الخشب والحجر، حتى الرسوم التى نسي الكتب. (ابن العبري: تاريخ مختصر للنول ص ١١٥)

(٩٧) كان هناك يهودى من اللاتنية فى سوريا قد تنبأ للآلوان بأنه سيكون إمبراطورا إذا أزال الصور والأصنام من المعابد، فجاء هذا اليهودى وتنبأ ليزيد بن عبد الملك بأنه سحكم لمدة ثلاثين عاما وقيل أربعين عاما فى هذا وسرور إذا أزال من كل مملكته الصور والأصنام التى يعبدونها ويقنسها المسيحيون. فقام يزيد بتنفيذ طلبه أملا فى الحكم، ولكنه توفي بعد أربع سنوات. (ألد رستم: الروم ج ١ ص ٣٠٥)

(٩٨) العهد القديم: التكوين ١: ٢٢.

(٩٩) المقصود هنا الرجال ذوو العيون الزرقاء.

عن موت أحد. كما أمر أيضا ألا تؤخذ شهادة سوري ضد عربي، وحدد فدية العربي ١٢ ألف دينار والسوري ستة آلاف، من هنا جاءت القوانين الجائرة. لقد أمر أيضا أن تقطع ذراع اللص بدلا من يده، ولهذا فقد احتقره العرب كما احتقروا تعاليمه.

عام ١٠٣٨ يونانية (٧٢٦-٧٢٧م) مات يزيد^(١٠٠) في البداية كان أبو رين^(١٠١) أميرا له في الجزيرة ثم عين مرداسا^(١٠٢) الذي غضب عليه هو الآخر فأعاد أبارين.

عام ١٠٣٩ يونانية (٧٢٧-٧٢٨م) حكم العرب هشام بن عبد الملك^(١٠٣) مدة تسعة عشر عاما وأربعة أشهر.

عام ١٠٤٠ يونانية (٧٢٨-٧٢٩م) توفي القديس مار حبيب أسقف الرها، وخلفه قسطنطين^(١٠٤).

في هذه الفترة ظهر البطريرك مار إلياس وشمعون أسقف حران وقسطنطين أسقف الرها وتيودوت^(١٠٥) أسقف آمد.

(١٠٠) توفي يزيد لغس بقين من شعبان عام ١٠٥هـ الموافق ليوم الثلاثاء ٢٥ من يناير عام ٧٢٤م وله أربعون سنة، وقيل خمس وثلاثون سنة وقيل غير ذلك. وكانت ولايته أربع سنوات وشهرا وليانسا، ويقال إن مرضه كان السيل. (ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٩٠)

(١٠١) أغلب الظن أن هذا الاسم خطأ، والمقصود هو "عمر بن هبيرة" فإن يزيد بن عبد الملك لما ولي الأمر استعمل على العراقيين وخراسان "عمر بن هبيرة القزاري". (ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ١١٥)

(١٠٢) أغلب الظن أن هذا الاسم خطأ، والمقصود هو "مروان بن محمد بن مروان". لما مات يزيد بن الوليد بن عبد الملك سار مروان في جنود الجزيرة إلى الشام لمحاربة يراهم بن الوليد بن عبد الملك، ولما دخل دمشق أتى بالفلاطين "الحكم و شملن" ابني الوليد مقتولين لفنقهما، وبايعه الناس. (ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ١١٩)

(١٠٣) عاشر الخلفاء الأمويين (١٠٥-١٢٥هـ=٧٢٤-٧٤٣م) وكان عمره لما ولي الخلافة أربعة وثلاثين عاما وأشهرًا. لما ولي هشام بن عبد الملك الخلافة اعتمد المصيبة اليمنية؛ فعزل عمر بن هبيرة عن العراق ثم ولي مكانه خالد بن عبد الله القسري، وكان يمينيا. (أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ٢٠٤)

(١٠٤) رسم قسطنطين أسقا للرما عام ٧٢٩ وتوفي عام ٧٥٤م. في عهده حدث فيضان نهر ديسان عام ٧٤٣م. DUVAL: HISTOIRE D'EDESSE P. 254

(١٠٥) يعتبر تيودوت من أشهر القديسين السيلقية، يحتفل بذكراه في يوم السادس عشر من أغسطس DUVAL: HIST. D'EDESSE P. 254.

عن تيودوت أسقف آمد

هو القديس تيودوت أسقف آمد الذي نشأ في عزلة، وقد وهب نفسه لأعمال الرهبنة المتواضعة التي كان يحبها. كان رجلا مسالما لطيف للمعشر صبوراً يتحلى بكل الفضائل الإلهية، لقد تنازل عن أسقفية المدينة، فقد استقال من منصبه وترك المدينة وذهب إلى منطقة دارا بين حدود دارا وآمد، وسلك نهج مارنوما من تلاً؛ فبنى لنفسه هناك عموداً وصعد عليه، كما بنى أيضاً في نفس هذا المكان ديراً كبيراً، هو الموجود حالياً بجوار بلدة تسمى قالوق^(١٠٦) حيث أنهى حياته، وقد تولى القديس مار قزما الأسقفية خلفاً له.

عن القديس مار قزما أسقف آمد

كان القديس مار قزما أيضاً راهباً عظيماً متحلياً بكل الفضائل، لقد أتى بأمور عجيبة مثل إلبا ومثل الرسل الأوائل. ولكن لأنه كان متحمساً وكان يعدل في المعاملة بين الكبار والصغار، لم يكن محبوباً من عظماء المدينة، حيث كان دائم اللوم لهم صراحة دون مواربة وبالألفاظ قاسية على ما يرتكبون من أعمال منافية للأداب، فكانوا يتحاشون أن يتقوه ليلعنهم، لأنه كان رجلاً صريحاً وصارماً، ولم يتجرأوا على عصيانه علناً، ولذا كانوا يحرضون سكان البلاد على عدم استقباله عند قدومه لزيارتهم، ليكون ذلك سبباً لطرده من بلدهم. ولكل هذا لم يستفد به أحد، كما لم يستفد به حتى القلة القليلة التي اتبعت تعليماته.

(١٠٦) قرية قالوق من أعمال الصور، كانت آهلة بالسريين من أواسط القرن السابع عشر. (اغناطيوس أفرام الأول: التلاوة المنشورة ص ٥١٨)

ووفقا للخطة التي دبرها التدماء فقد قام بزيارة للمنطقة دون أن يعلم بالفخ الذي نصبوه له، فوصل إلى بلدة تسمى تل حكوم، كان أهلها محتقرين. وكالعادة عندما دق الجرس تجمع القوم، وأظهروا عدم الرغبة في استقباله، واعتبروه غير كفء لأن يتحدث إليه أحد، وأرسلوا إليه امرأة عجوزًا لتقول له: "أذهب باحترامك واترك الطريق، وإلا فلن تخرج من هنا إلا بعد إساءة معاملتك". هؤلاء الرجال المنحرفون (لا يعظمون ولا يفهمون، في الظلمة يتمشون، تترعزع كل أسس الأرض)،^(١٠٧) وليكن كلاما مخلصا إلى تلاميذه لا يكون جواب: (ومن لا يقبلكم ولا يسمع كلامكم فأخرجوا خارجا من ذلك البيت أو من تلك المدينة وانفضوا غبار أرجلكم. الحق أقول لكم ستكون الأرض سدوم وعمورة يوم الدين حالة أكثر احتمالا مما لتلك للمدينة).^(١٠٨) وأيضا: (وكل من لا يقبلكم فأخرجوا من تلك المدينة وانفضوا الغبار أيضا عن أرجلكم شهادة عليهم)،^(١٠٩) (وأية مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فأخرجوا إلى شوارعها وقولوا).^(١١٠)

لقد استفاد القديس من مكرهم بواسطة المعجزة، فأمر تلميذه أن يغير من اتجاه العربة التي يركبها، وأن يتجه إلى الجانب الجنوبي للبلدة. إن القول النبوي: (الرجل البليد لا يعرف والجاهل لا يفهم هذا)^(١١١) ينطبق على هؤلاء البؤساء. إن الذنب الأول لم يكنهم ولكنهم ذهبوا وصعدوا إلى باب كنيستهم الذي كان مرتفعا وذلك لكي يستهزئوا من القديس، وانتظروا رد فعله.

ولكن هذا الشجاع عندما رأى مدى احتقارهم لم يضطرب، بل استمر في طريقه حتى تجاوزه محاطا بالإيمان والثقة بربه، وعندما وصل إلى الحدود الشرقية لمدينتهم أمر بوقف المركبة وخلع نعليه ورفعها تجاه البلدة ونفضها فوقها (البلدة)

(١٠٧) العهد القديم: المزمير ٨٢: ٥.

(١٠٨) العهد الجديد: إنجيل متى ١٠: ١٤/١٥.

(١٠٩) العهد الجديد: إنجيل لوقا ٩: ٥.

(١١٠) العهد الجديد: إنجيل لوقا ١٠: ١٠.

(١١١) العهد القديم: المزمير ٩٢: ٦.

قائلاً: "مادمت لم تستقبلى أسقفك فانتظري وتقي أن غضب الله ينتظرك قريباً ودون تأخر". ثم استأنف طريقه سريعاً ماراً بالبلدة التي تقع في الشرق وتدعى طرمزل الكبيرة^(١١٢) وكان قادماً من الغرب.

كان ذلك وقت حصاد الشعير، ولم يكن هناك أي أثر لسحب تكدر صفو السماء في هذا اليوم. ولكن حدث أن نزل فجأة ودون تأخر على المدينة البائسة الغضب الإلهي، الذي كان قد أراد أن يكون أداة ظلم في أيدي عظماء البلدة، حتى يصبح مثار ندم وخوف لكل المنطقة، وكل الذين يتجولون على احتقار قديسهم، وليكون تحذيراً للأجيال القادمة.

دخل طرمزل التي أنظمتها السحب، وبينما كان أهلها مشغولين هنا وهناك إذا بريح عاصف تهب على المدينة تكاد تزيل الجبال، ثم سقط برد أشبه بالحجارة، أصاب كرومهم وتينهم وحطم الأشجار التي على الحدود، وقضى على كل الأعشاب الخضراء التي في حقولهم، وحول محاصيلهم إلى رماد، لدرجة أنه أزال كل أثر لها وبعرها، حتى إنهم لم يتمكنوا من جمعها، وفقدوا كل أمل في الحياة على وجه الأرض.

عندما رأى المحقرون ما حدث لهم (لم يزوغوا عن شهواتهم. طعائمهم بعد في أفواههم فصعد عليهم غضب الله وقتل من أسمنهم، وصرع مختارى إسرائيل)^(١١٣) أدركوا أن الغضب ينزل عليهم وتنبهوا كما لو كانوا في نوم عميق، كالثمل الذي غلب عليه النوم. لقد تذكروا ما قد صنعوا بأسقفهم وعرفوا أن هذه الكارثة حلت بهم لأنهم احتقروه، ولقد ازداد يقينهم بهذه الفكرة عندما وجدوا أن هذه الكارثة لم تتجاوز حدود بلادتهم، ولهذا خرجوا جميعاً كباراً وصغاراً حفاة خاضعين باكين بدموع الحسرة ومجولين بالخجل، وذهبوا إلى حيث يوجد الأسقف. عندما

(١١٢) كان هناك دير موجوداً في مكان يسمى طرمزل، يقع على مقربة من "دارا"، ولكن هذا المكان يبدو أنه كان بعيداً جداً عن آمد. 61. ASSEMANI: BIBL. ORIENT. T. XII P. 31/30.
(١١٣) العهد القديم: المزمير ٧٨: ٣١/٣٠.

رأهم القديس فعل مثل الإشع أمام هؤلاء الأطفال الذين قد فرقتهم الدب، فقد حزن حزنا شديدا، خاصة وأن الغضب الإلهي قد أتى على كل ما يملكون. لقد وقف في جانبهم وصلى من أجلهم.

بهذه الطريقة نشر الرب هيئته ورهبته على المنطقة كلها، وأيضا على عظماء المدينة، حتى إنه عندما ترك القديس المدينة - حيث كان يقيم - جاء سكان المدن الأخرى جميعا كبيرهم وصغيرهم بكل خشوع لاستقباله. بعد القديس مار إليا بطريرك أنطاكية خلفه القديس أنثاسيوس.

عام ١٠٤٢ يونانية (٧٣٠-٧٣١م) عبر مسلمة باب الأتراك^(١١٤) ولأن الهون أي الأتراك^(١١٥) كانوا قد خرجوا من بلادهم واقتربوا جرما في أرمينيا وفي كل المنطقة الشمالية، لذلك خرج إليهم مسلمة مع قوة كبيرة العدد. كانوا يخرجون كل عام ويقتربون لقطع الجرائم، لذلك تقدم نحوهم فتصدوا له ولكنه شن عليهم حربا وأباد عددا كبيرا. وهنا أصابهم الخوف والفرع وسجدوا تحت أقدامه يطلبون السلام، فمنحهم إياه متوهما أنهم سيحافظون على وعدهم له.

في نفس هذا العام هدم مسلمة باب الأتراك الذي يقع في مدخل منطقة الأتراك. ولأنهم كانوا في الداخل فقد أعلنوا الحرب عليه، فخاف أن يغامر في المنطقة المجهولة التي يملكها الأتراك خشية أن يتجمعوا ضده ويبيدوه من على وجه الأرض. إنهم شعب ليس لهم رب مثل غيرهم من المجوس، ولذلك أمر مسلمة بهدم هذا الباب التركي الذي كان قد بنى على يد الإسكندر المقدوني، فقاموا في البداية بحل وإخراج كل الجمال ثم الحمير ثم الممال، وأخيرا خرجوا هم ناثرين خلفهم الأشواك في كل الممرات.

(١١٤) هو باب الأبواب، أي الدريفة شرون أو باب النار. وباب الأبواب على بحر الفخر، وهي مدينة أكبر من أربيل، نحو ميلين في ميلين، وهي محكمة البناء موقفة الأساس من بناء ألو شرون، وإلى جانبه جبل عظيم يعرف "بالنبت"، ويطلق عليه أهل أرمينا "باب الزور". (يقول الحموي: معجم البلدان ج ١ ص ٣٠٣)

(١١٥) كلمة الأتراك هنا خطأ، والصحيح "الفخر". لقد حدث خلط في الأحداث بالنسبة لديونيسيوس، وقد علق على هذا "لوبو" في كتابه. LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T.XII P.165.

عام ١٠٤٣ يونانية (٧٣١-٧٣٢م) جمع مسلمة حشدا كبيرا من الصناعات والحرفيين والعمال، وأعدوا كل المعدات اللازمة للبناء، وأعادوا بناء باب الأتراك الذي كان قد هدم في العلم السابق.

بعد أن أعاد بناءه عقد مع الأتراك معاهدة مؤبدة بقسم، تنص على: "أن لايعبر أحد حدود صديقه ثم يخرج". ولكن هؤلاء الأتراك الذين كانوا لايعرفون الرب ولايفهمون أنهم عباده ولايتقنعون بوجود إله في السماء، لم يوفوا بوعدهم، كانوا حمقى تجاه الرب، واحتقروا عهده فعبروا الحدود واقترفوا كثيرا من الجرائم في المنطقة الخارجة عن حدودهم.

فأرسل هشام قائد الجراح^(١١٦) لملاقاتهم مع عدد غفير من الفرسان، فدخل المدينة وقت الحصاد، وأثناء دخوله اقترب كثيرا من الجرائم في تلك المنطقة. ولأنه كان رجلا لا أخلاق له، بالإضافة إلى شعوره بالقوة، لم يكن يتحري العدل في حكمه، فافسد مزارع الفلاحين. وفي طريقه سبب كثيرا من الأضرار للمساكين، فجاء إليه الأهالي وشكوا إليه، ولكن لم يوجد أحد راضيا ممن كان معه، لأنهم قاسوا مثل الباقيين من دخوله، وكانوا يتمنون أن ينال جزاءه. وعندما دخل منطقة الأتراك وشن حربا عليهم قاموا بقتل عدد كبير من جنوده، وأخذوا كثيرا من الأسرى إلى بلادهم. بعد أن حدث ذلك طلب من هشام أن يرسل له نجدة، فدخل مسلمة مع قوة عظيمة ليلحق به، ولكن قبل أن تتركه كان الجراح وكل قواته قد أهيئت بعد السيف،^(١١٧) لأن الأتراك قد أحاطوا بهم من كل جانب في أعداد غفيرة، وقضوا عليهم دون أن يفلت أحد. لقد رد الرب إلى الشرير جزاء الجرم الذي ارتكبه والذنوب التي اقترفها في طريقه هو وجيشه تجاه الفلاحين، كل ما اقترفوه أثناء زحفهم تراكم مرة واحدة على رأسهم.

(١١٦) هو عبد الله بن الجراح.

(١١٧) تلك المعركة وقعت على مقربة من أردبيل في بلدة أنريجان، وقد قتل فيها الجراح.

LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE TXII P. 168.

عندما دخل مسلمة اضطرب الأتراك أمامه وتملكهم الخوف، فقد كانوا يخشونه بمجرد السمع به من قبل أن يروه. لقد أعلن عليهم للحرب وسكب دماءهم على سطح الأرض كالمياه، وأُشيع طيور السماء وحيوانات الأرض من لحومهم. وبعد أن هزمهم نصب مروان بن محمد^(١١٨) على أرمينيا، وهو نفسه الذي حكم العرب في فترة بعد الحرب ثم انسحب تاركاً خلفه قوة عظيمة، وقد سبب هذا الأخير خسائر أكثر ممن سبقوه.

عام ١٠٢٩ يونانية (٧١٧-٧١٨م) وقعت زلزلة عنيفة ومخيفة في أماكن كثيرة في المعابد والكنائس، وفي أبنية عظيمة، وخصوصاً بيت العماد وكنيسة الرها القديمة^(١١٩) لقد تهدمت منازل قديمة وعريقة على سكانها، بينما تلك التي صمدت ولم تتدثر في تلك الهزة احتفظت بأطلالها، وذلك حتى يستشعر الأهالي الخوف من الرب كلما نظروا إلى ما تبقى من آثار الهزة الأرضية.

في تلك الفترة قام هشام بتوسيع الزينونة^(١٢٠) حيث بنى على روافده مدناً وقصوراً حصينة وكثيراً من القرى، وقد زينها بأنواع مختلفة من النباتات. كما وسع أيضاً نهر بالش،^(١٢١) حيث بنى قصراً فخماً وزرع نباتات من كل نوع، كما وسّع أيضاً نهر عاقه،^(١٢٢) حيث بنى قلاعاً وحدائق.

(١١٨) مروان بن محمد هو آخر خلفاء بني أمية، يبدو أن الذي حدث غير الحقيقة، فإن مسلمة - لأنه لم يتمكن من مقاومة الأتراك - قد عزله الخليفة داخل محطة مروان عام ٧٢١م، فقد تمكن مروان من مواجهة أمراء القوقاز وصد الغزير الذين هدد معهم هدنة مؤقتة، ذلك هو رأي توبو. قتل مروان في صعيد مصر عام ٧٥٠م وصارت الخلافة للمبشرين.

LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE TXII P. 169.

(١١٩) حتى عام ٢٠١م لم تكن توجد لمسيحي الرها إلا كنيسة واحدة، ولذلك سميت كنيسة الرها القديمة. لقد تهدمت في ذلك الفيضان وكذلك فيضان عام ٣٠٣م، وقد أعيد بناؤها عام ٣١٣م في عهد "غولسا" أسقف الرها. وفي عام ٥٢٥م حُدمت مرة أخرى نتيجة للفيضان، فأعاد "جستيان" بناءها بطريقة رائعة وفخمة، حتى أصبحت من روائع العالم. وهدمت مرة أخرى عام ٦٧٩م في الثالث من أبريل، وكذلك عام ٧١٨م. DUAL: HISTOIRE D'EDASSE P.15-245.

(١٢٠) موضع كان ينزله هشام بن عبد الملك في بداية الشام فلما عثر الرصافة انتقل إليها فكانت منزله إلى أن مات. (إقوت الحموي: معجم البلدان ج ٣ ص ١٦٣)

(١٢١) بالش أو بالش بلدة بأرض الشام بين حلب والرقّة، وهي برهالوس القديمة. تسمى في وقتنا الحالي "مسكنة" وهي أول مدن الشام من جهة العراق. (اغناطيوس أفرام الأول: للؤلؤ المنثور ص ٥٠٥)

(١٢٢) عانة بلد مشهور غربي الفرات، جنوب شرقي دير الزور، من بلاد العراق، وبها قلعة حصينة. (اغناطيوس أفرام الأول: للؤلؤ المنثور ص ٥١٧)

من جانبه وسع شقيقه مسلمة بالاش، وبنى بجوار النهر الذى وسعه قصورا
وقرى ومنازل زينها بأشكال مختلفة من الخزارف.

عام ١٠٤٠ يونانية (٧٢٨-٧٢٩م) استولى مسلمة على قيصرية الجديدة،
حيث أسر سكان تلك المنطقة وباعهم فى سوق العبيد كالحوانات، فيما عدا اليهود
الذين سلموه المدينة، فقد انضموا سرًا إلى جانب مسلمة، وبعد أن أخذوا منه وعدًا
مهدوا له فدخل المدينة بالخديعة. لقد أسرهم ولكنه لم يبيعهم قط، فقد اصطحبهم
معه.

عام ١٠٤٥ يونانية (٧٣٣-٧٣٤م) دخل سليمان^(١٢٣) مملكة الروم، واستولى
على بلوزيوم،^(١٢٤) وساق كل أهلها إلى الأسر. فى ذلك الوقت ثار أرتباس صهر
الإمبراطور قسطنطين^(١٢٥) إمبراطور الرومان، وبعد أن أصبح سيد مدينة
القسطنطينية فقد تمسك بالثأج الملكى. وبينما سار قسطنطين مع جيشه لصد أعدائه
ترك فى المدينة أرتباس^(١٢٦) الطاغية، ليحميها مع حامية كبيرة من بلوزيوم، فتسلم
المدينة ووطد نفوذه، ولكنه نسي العهد الذى أبرمه مع لاوون،^(١٢٧) ورأى أن يحتل
المدينة ويصبح بالقوة سيد الإمبراطورية، وبينما كان يحتل هو المدينة، والقوة
الملكية مع قسطنطين تعسكر فى الخارج، كانت قوات البلوزيوم تحارب فى الداخل
ضد الإمبراطور.

(١٢٣) فى عام ٧٣١م قام معاوية ويراثقه سليمان - ابنا الخليفة هشام - وظهرا فى بلوزيوم. ولكن هموفان
يقول إن الذى قام بهذه الرحلة هو معاوية بمفرده.

LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T XII P.169.

(١٢٤) بلوزيوم هى بلدة الفرما أو مفتاح مصر الشرقى. (إبراهيم المدنى: الإمبراطورية البيزنطية والدولة
الإسلامية ص ٤٩)

(١٢٥) يقال هنا إن قسطنطين إمبراطور الرومان. ولكن الإمبراطور الرومانى فى تلك الفترة كان لاوون
الثالث (٧١٧-٧٤٠م). كان لاوون هذا له ابن يدعى قسطنطين، ولكنه فى تلك الفترة لم يكن يبلغ

إلا الثانية عشرة من عمره. LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T.XIIP.191

(١٢٦) كان أرتباس يجاهد من أجل الوصول إلى الإمبراطورية ويصبح حاكما، فقد نجح فى استمالة الوالى
الذى كان الإمبراطور قد قلبه فى إدارة شئون الإمبراطورية فى غيبه.

LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T XII P. 191.

(١٢٧) هنا رجع ديونيسيوس وذكر أن لاوون هو الإمبراطور.

عندما دخل سليمان أرسل له لاوون قائلا: "لا تقترب مني فلن تغتلب بسلام من تحت يدي، ولكن اذهب إلى بلوزيوم فخذها أو خربها، افعل بها كل ما تريد لأنك هناك لن تجد أحدا يقاومك". وهكذا ذهب إليها وسلبها ونهبها وفقا لإرادته، حاملا من الغنائم ما لم يحمله أحد غيره.

عندما أمسك لاوون بالطاغية^(١٢٨) فقا عينيه وأوقف رواتب الجند العسكريين الذين تعاونوا معه.

عام ١٠٤٦ يونانية (٧٣٤-٧٣٥م) وصل مالك بن شبيب أمير مليتين، وعبد الله البطل، وحاصرا مدينة سينادا، وبينما كانا بعسكران في مزارعها تجمععت ضدتهما قوة عظيمة العدد تريد الانتقام مما ارتكبه العرب في العام الماضي في بلوزيوم. في ذلك الوقت كان العرب - الذين كان يبلغ عددهم نحو خمسين ألفا - معسكرين في مخيمهم دون حذر، وإذ بالرومان يحاصرونهم فجأة، وينقضون عليهم من كل جانب، ويقضون عليهم جميعا بحد السيف. ولقد تمكن من الهرب منهم عدد قليل جدا، وذلك بفضل بزوغ النهار، فكانوا يهربون مدافعين عن أنفسهم بالسيف والرمح والقوس، بعد أن أمضوا الليل سيرا على الأقدام. ولم يتمكن من الهرب من بين الآلاف الخمسين الذين جاءوا إلا نحو خمسة آلاف فقط. ولقد نقي القواد أنفسهم حتفهم بالحراب في تلك المعركة. ومما هو جدير بالذكر أنه لم ينزل بالعرب أسوأ مما نزل بهم في تلك المعركة.^(١٢٩)

في تلك الفترة ظهر في المنطقة الغريبة داهية، خدع وأغوى عددا كبيرا من اليهود وأضلهم. إن الشيطان الذي كان عامل دهم وغواية منذ الأزل كان يقوم دائما بخداع الرجال، ليس بعضهم ولكن جميعهم على حد سواء، وذلك على اختلاف

(١٢٨) يقولون في بعض المراجع إن الذي قام بذلك هو قسطنطين، فهو لم يكتب بذلك فقط، بل أحدث مذبحا في المدينة، وقتل الجند وكل من كان في يوم ما في جانب أرتبلس، فقطع أسيحتهم وأرجلهم وسمل أعينهم ونهب منازلهم وخربها. ويقولون أيضا إنه جعل أرتبلس ولولاده وأصدقائه يركب كل واحد منهم حملا ووجهه ناحية الذيل، ويمسك بالذيل في يده ويلف المدينة.

LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T XII P. 197.

(١٢٩) وقعت تلك المعركة عند فكرينوس. THEOPHANES: AD. ANN. 22 LEONIS.

جنسياتهم وألسنتهم، لا يميز بين فريق وآخر، مستغلاً قدرته على إغراء نصيره بارتكاب المعاصي والآثام، موهمًا إياه أن للخير كل الخير له في اتباعها. لقد اشتق اسمه "شيطان" من صميم الدور الذي يؤديه، ففي الواقع هذا الاسم معناه خصم ومعارض وعدو، حيث كان لا يتغاضى عن شيء، ولا يكف عن إيقاع العداوة والبغضاء بين الشعوب على مر الأجيال، ولا تخونه الشجاعة، ولا يتخلى أبداً عن شروبه القديمة التي كان قد ابتدعها للقضاء على الجنس البشري.

في ذلك الوقت ظهر في أرض الجزيرة رجل من بلدة قلقت في إقليم ماردين، ومر بالمنطقة الغربية بحذاء السامراء.^(١٢٠) هذا الرجل وجد مأوى في منزل أحد عظماء اليهود، وما إن استقر فيه حتى أغوى ابنة هذا اليهودي، فعندما علم اليهود بهذا اقتادوه إلى الموت. ولكن لأنه كان مسيحياً فقد حكموا عليه بالعذاب، إلا أنه وهو في غمرة التعذيب سحنت له فرصة للهرب من بين أيديهم.

منذ ذلك الوقت فكر في إبطال كل أنواع العذاب بهم، فذهب إلى بلاد الأراميين التي كانت غارقة في بحار من السحر، وهناك وهب نفسه لسلطان السحر والسحرة، حيث برع في فنون الضرر والأذى وتفنن فيها، ثم نزح من هذا المكان وصعد إلى السامراء، وقال لليهود: "هأنذا موسى الذي أخرج بنفسه منذ القدم إسرائيل من مصر، والذي لزمهم في البحر والصحراء لمدة أربعين عاماً. أنا مرسل مرة أخرى لأخلص إسرائيل وأقودكم إلى الصحراء، وأخذ بأيديكم مرة أخرى إلى أرض الميعاد الموروثة التي ستملكونها كما كنتم من قبل. وأيضاً مثلما حدث قديماً سيفعل الرب كل الأمم التي تسكنها لكي ينقلد أبائكم مناصبهم، كما سيجعلهم يختفون جميعاً من أمامكم لكي تدخلوها وتملكوها كسابق عهدكم، وكل الإسرائيليين المشتتين سيجمعون وفقاً لما هو مكتوب". (يقول السيد الرب جسامع منفئي إسرائيل: أجمع بعد إليه إلى مجموعيه).^(١٢١)

(١٢٠) مدينة كانت بين بغداد وتكريت شرقي دجلة. (ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٣ من ١٧٢)

(١٢١) العهد القديم: إشعياء ٥٦: ٨.

ولما كانوا مرتبطين بلغة واحدة فقد كان سحره يؤثر انتباههم، وكانوا منساقين خلفه، كان تارة يجعلهم يدورون في الجبال ويقذف بهم من قمم منحدرية ويقتلهم، وتارة يحبسهم في كهوف ومغارات حيث يلقون حتفهم. لقد جعلهم يقاسون آلاما كثيرة، فقتل وأهلك عددا كبيرا منهم. وقد استولى على قدر كبير من الذهب عن طريق تهديدهم بالسحر حين قادهم إلى الصحراء. وقد جعلهم يقاسون أشد أنواع العذاب يوميا، ولما فاض بهم بدأ يدبر لهم الحيل، فاستولى على ذهبهم وحليهم وعبيدهم وأخذها منهم وهرب إلى بيته.

ثاب لليهود إلى رشدهم عندما تبينوا الأذى الذي أذاقهم إياه، فطاردوه في مشارق الأرض ومغاربها يسألون وينقبون عنه، وما إن وقعت عليه أيديهم حتى اقتادوه إلى هشام أمير المؤمنين في بابل، حيث أنزلوا به أشد أنواع العذاب والآلام، وفي النهاية صلبوه على شجرة. وهكذا لفظ أنفاسه بعد أن منحه الرب المكافأة التي يستحقها.

عام ١٠٤٧ يونانية (٧٣٥-٧٣٦م) ثار عتيق وضم قطاع الحارورية^(١٣٢)، وعندما أقدم على هذا العمل تصرف كمعادة العرب، حيث يتركون زوجاتهم وكل ما يملكون، فذهب مع عشرين من رفاقه إلى ناحية سنجار^(١٣٣). عندما علم هشام بذلك أصدر أمرا إلى اثنين من قادة فرسان سنجار هما "قاليو" و"زهير" أن يخرجوا إليه ويشنا الحرب عليه. عندما تلقى للقتل الأمر حسدا قوة عظيمة وخرجا لمطاردته، وعندما أدركاها في صحراء سنجار طلب منهما الانتظار إلى الصباح لشن الحرب.

(١٣٢) "الحارورية" هذه الكلمة مأخوذة من السريانية بمعنى "الحرية"، وقد أطلقها ديونسيوس على العرب عندما تركوا زوجاتهم وثرواتهم وحاربوا من أجل الحرية. (تاريخ ميخائيل السرياني الكبير ج ٢ ص ٣٤٧)

(١٣٣) مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، وهي في لحف جبل عال. ويقولون: "إن سفينة نوح عليه السلام لما مرت به نطحته، فقال نوح: هذا من جبل جار علينا. فسميت سنجار". (يافوت الحموي: معجم البلدان ج ٢ ص ٢٦٢)

ونظرا لأنهم كانوا كثيرون العدد والمتمردون فئة قليلة فقد استهانوا بهم، بالإضافة إلى أن الظما اشتد عليهم وذلك لندرة المياه في الصحراء، فضلا عن قرب انبلاج الصباح. إن عتيقا هذا الذي كانوا ينظرون إليه دائما بازدراء كان رجلا يمتاز بالدهاء والجرأة هو وأعوانه، فقد عرض على خصومه ذلك الاقتراح من قبيل المكر والخديعة، إذ ما لبث أن حل ظلام الليل، وخذل أعداؤه إلى النوم بعد أن أكلوا وشربوا، فأنقض عليهم عتيق ورفاقه واستولوا على عديتهم وعنادهم وأغمدوا فيهم سيوفهم. لقد رد الرب سيوفهم إلى نحورهم، فأصابهم الاضطراب وأخذوا يقتلون بعضهم بعضا. وقد كان أعوان عتيق يمرون بينهم مثل نحاتي الحجر ومثل الذين يقودون المحراث، ولم ينج من الموت إلا عدد قليل؛ كانوا قد أسرعوا فامتنطوا سهولت جيادهم وولوا الأدبار. لقد هلك للجميع بحد السيف، وكان قاليو وزهير قائدا الجند من بين القتل.

عام ١٠٥٢ يونانية (٧٤٠-٧٤١م) مات لاوون إمبراطور الرومان، بعد أن حكم مدة خمسة وعشرين عاما،^(١٢٤) فخلفه ابنه قسطنطين الذي حكم لمدة خمسة وثلاثين عاما. في تلك الفترة بنى الخليفة هشام جسرا على الفرات أمام الرقة.^(١٢٥)

عام ١٠٥٣ يونانية (٧٤١-٧٤٢م) حدثت في يوم الأحد هزة أرضية عنيفة وشديدة، طوال ليلة الأحد كنا نسمع الصوت الصادر منها كما لو كان صوت خوار الثور، عندما جاء ميعاد القديس هرع الأماي ودخلوا كنيسة مرق^(١٢٦) التي تهدمت من شدة وقوة الزلزال الذي حدث على حين غفلة، ولقي كل الأماي الذين تجمعوا

(١٢٤) هو لاوون الثالث، يقول بعض الكتّاب إن لاوون قد توفي إثر استنقاء، بينما غيرهم يقولون على إثر دوسلتريا يوم ١٨ يونيو عام ٧٤١م، بعد أن حكم لمدة أربعة وعشرين عاما وشهرين و٢٥ يوما. ودفن في كنيسة القديس المقدس. LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T XII P. 180.
(١٢٥) الرقة هي قلاونيقيس القديمة، وهي مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حران ثلاثة أيام. مسدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي، ويقال لها الرقة البيضاء. وكفت بالجانب الغربي مدينة أخرى تعرف بركة وسط * كان بها قصران لهشام بن عبد الملك. (أغناطيوس أفرام الأول: اللؤلؤ المنثور ص ٥١٦)

(١٢٦) مرق بلدة واقعة بين الموصل ونصيبين. (ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٥ ص ١٠٩)

فيها مصرعهم، ولم يخرج أحد منها حيًا فيما عدا القس الذي كان في نفس الوقت يقدم القربان. إن الهضبة التي كانت تعلوها كنيسة مرق ظلت تسمع زمجرة وجلبة استمرت لمدة ثلاثين يومًا.

عام ١٠٥٤ يونانية (٧٤٢-٧٤٣م) تحطم جسر دجلة العظيم بجوار آمد. كان الشتاء قارسًا، وسقط من السماء ثلج كثيف، وتراكم فوق الأرض لعدة أيام، حتى شارب كل إنسان على نهايته، ولاسيما الحيوانات والطيور التي كانت قد فئيت بالفعل. ثم هب هواء بارد وقارس، وهاجت رياح شديدة، وهطلت أمطار غزيرة لفترة طويلة، وذابت الثلوج فأصبحت الأرض مغمورة بالمياه نتيجة لسقوط الأمطار الغزيرة فضلا عن ذوبان الثلوج، كانت هناك فيضانات في كل الأنهار وخاصة في دجلة.

لقد حدثت في هذا النهر تصدعات وفيضانات عظيمة، أبانت أعدادا غفيرة من البشر، وخربت أماكن لاتحصى. لقد كان هذا الفيضان قويًا وشديدًا جدًا، فنقل كثيرًا من الأخشاب من أماكنها، حتى إن أشجارًا كثيرة اعترضت مجرى النهر بجانب آمد عند الجسر الكبير، وتكدست بداخله الأخشاب الواحدة فوق الأخرى حتى وصل امتدادها إلى خمسة أميال أو ستة. ونتيجة لقوة قطع الأخشاب وصلابتها وشدة هذا الفيضان تحطم ذلك الجسر، وانقلب بسبب تدفق المياه. ومنذ ذلك الحين لم يُعد بناؤه، لأنه لم يكد هشام يجمع العمال والفنيين ويجد كل ما يلزم لإعادة بنائه بهمة وحماس حتى وافته المنية، فرحل عن الدنيا وترك العمل دون أن يتمه.

في نفس الوقت غرقت أيضا الرها، فقد حدث فيضان كبير وعظيم في النهر الذي يمر بالمدينة ويسمى ديسان،^(١٣٧) وأحدث بها أضرارًا بالغة، ودخلت مياه

(١٣٧) لقد تسبب هذا النهر في غرقاب كثيرة بسبب فيضاناته، وقد قام جستين بأعمال كثيرة من أجل منع تلك الفيضانات، ولكن كانت كلها دون جدوى. يمر هذا النهر من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، ثم يسير صوبًا تقريبًا في اتجاه الجنوب حتى "جلاب"، ويمر "بحران" ويصب في "الباليخ". معنى كلمة "ديسلان" بالسريانية "القفز"، وهي من أصل يوناني، ويرجع اسمه إلى أصل أعماله. إن تاريخ الرها يحسب حوالي أربعة فيضانات في عهد "جستين" أعوام ٢٠١ و ٤٠٣ و ٤١٣ و ٥٢٥م. ولكن كما ذكرنا قام جستين بمحاولات عديدة للحد من تلك الفيضانات. ثم نجد أن ديونسيوس يذكر في تأريخه تاريخًا جديدًا لفيضان جديد لنهر ديسان في عام ٧٤٣م.

غزيرة حيث تهدمت مصارف المياه الموجودة بجانب السور الشرقي، وتدفقت المياه بشدة وارتفعت وفاضت على أسواق المدينة، وهدمت كل الحانات، كما أغرقت منازل كثيرة. ولكن لأن ذلك قد حدث في وضح النهار لم يهلك أحد في الفيضان؛ فقد غادر الأهالي مساكنهم ولانوا بالفرار. إن كسر القناة قد أحدث خسائر عظيمة في كل سهل الزها وحران.

عام ١٠٥٥ يونانية (٧٤٣-٧٤٤م) توفي هشام^(١٣٨) خليفة العرب، وجاء بعده الوليد^(١٣٩) لمدة ثمانية أشهر. ولقد قلم الطاغية يزيد والشقيقان عباس وإبراهيم وشقيقهما عبد العزيز أبناء الحجاج^(١٤٠) فثاروا عليه وقتلوه بحد السيف عند مدينة قورى^(١٤١).

حكم يزيد^(١٤٢) بعده لمدة سنة أشهر، ولكن المنطقة لم تكن له بالطاعة، ومات يزيد دون أن يعين ولاية على الجزيرة، فخلفه شقيقه إبراهيم^(١٤٣).

DUVAI: HISTOIRE D'EDESSE P. 7/9/11.

(١٣٨) توفي هشام بن عبد الملك في ربيع الأول عام ١٢٥ هـ الموافق يوم الأربعاء ٦ فبراير عام ٧٤٣م، بعد أن حكم لمدة ١٩ عامًا و٧ أشهر. (تاريخ ميخائيل الكبير ٣٩٦)

(١٣٩) هو الوليد الثاني، أو الوليد بن يزيد. تولى الحكم بعد هشام فأساء معاملة عشيرته، ونهب بيوتهم، وعين عباس بن الوليد حاكمًا، وهو الذي حاول اغتصاب الملك لما شاهده من شراء الدولة، فأتهم الوليد بالعديد من المعاصي بقصد جذب الازعاج إليه. أما الملك فقد كان واقفاً منه وثوقه من نفسه. وفيما كان الوليد خارجاً حاول عباس أن يتسلم السلطة فلم يرض المسلمون لأنه كان من جارية، في حين كانوا يكرهون الوليد لمعارفته الخمر ولتركبه مختلف المنكرات، لذا بايعوا أخاه فسي البرية، وباغتوه وقبضوا عليه وقطعوا رأسه ووضعوه على رأس رمح وأدخلوه إلى دمشق وقد وضع إلى جانبه يريق خمر. وكان ذلك يوم الخميس ١٦ أبريل عام ٧٤٤م. حكم لمدة عام واحد، وإلهمض يقول لمدة ١٥ شهرًا. (تاريخ ميخائيل الكبير ٣٩٦)

(١٤٠) المقصود هو عبد العزيز بن الحجاج (١٤١) هذه الجملة تبدو محرفة. إن الوليد الثاني توفي - وذلك وفقاً للمصادر العربية - في مكان يسمى

كسر نعمان بن بشر. ASSEMANI: BIBL.OR., III, P. 178

(١٤٢) المقصود هو يزيد الثالث، بعد خمسة أشهر في الحكم أصليه ورم حاد في رأسه، وتوفي وخلفه شقيقه إبراهيم. (تاريخ ميخائيل الكبير ٣٩٦)

(١٤٣) هو إبراهيم بن الوليد. لما مات يزيد بن الوليد قلم بالأمر أخوه إبراهيم بعده. غير أنه لم يتم له الأمر، حيث مكث في الحكم سبعين يوماً ثم سار إليه مروان بن محمد فخلفه. (تاريخ ميخائيل الكبير ٣٩٨)

فى نفس هذا العام ازداد الخلاف فى كل المنطقة بسبب طغيان عباس وشقيقه ضد الوليد الذى قتلاه بحد السيف، ولما قاما بالحكم على الرغم من أن الحكم لم يكن من حقهما لم يخضع لهما العرب، وخاصة أهل الجزيرة. وقد قام كل واحد بالسهرة على أمنه، لأن للصوصية والفتنة سادت كل المنطقة بحيث لم يتمكن أحد من الخروج من منزله.

عن الجفاف والمجاعة الشديدة التى حلت بالبلاد فى ذلك الوقت

فى ذلك الوقت أنزل بنا الرب أشد الكوارث وأقساها، وهى السيف والأسر والمجاعة والطاعون، وذلك بسبب خطايانا وشرونا التى اقترفتها أيدينا (ثم قال الرب لى: وإن وقف موسى وصموئيل أمامى لا تكون نفسى نحو هذا الشعب، اطرحهم من أمامى فيخرجوا. ويكون إذا قالوا لك: إلى أين نخرج؟ أنك تقول لهم هكذا قال الرب: الذين للموت فإلى الموت والذين للسيف فإلى السيف والذين للجوع فإلى الجوع والذين للسبى فإلى السبى. وأوكل عليهم أربعة أنواع يقول الرب: السيف للقتل والكلاب للسحب وطيور السماء ووحوش الأرض للأكل والإهلاك. وأدفعهم للقتل فى كل ممالك الأرض من أجل متسئى بن حزقيا ملك يهوذا من أجل ما صنع فى اورشليم)،^(١٤٤) هذا هو الذى تركه لنا إرميا من تعليمه للرؤيا. لقد قال هو نفسه (تاحت يهوذا وأبوابها نبئت، حزنت إلى الأرض وصعد عويل اورشليم. وأشرافهم أرسلوا أساغرم للماء، أتوا إلى الأبواب فلم يجدوا ماء، رجعوا بأنيتهم فارغة، خزوا وخجلوا وغطوا رءوسهم. من أجل أن الأرض قد تشبقت لأنه لم يكن مطر على الأرض خزي الفلاحون، غطوا رءوسهم. حتى أن الإيلة أيضا فى الحقل ولدت وتركت لأنه لم يكن كلاً. القرا وقتت على الهضاب

(١٤٤) العهد القديم: إرميا ١٥: ٤/٣.

تستنشق الريح مثل نبات آوى، كلت عيونها لأنه ليس عشب).^(١٤٥) في الواقع إن كل ما قاله النبي قد تحقق في الوقت الحاضر.

ها هي المذبحة التي قامت بها القوات العربية فيما بينها. لقد ارتوت الأرض بدمائهم وشبعت الطيور والوحوش وحتى الكلاب من لحومهم، وكان الرجال يتبادلون الاختلاس فيما بينهم. لقد نفشى الطاعون فيما بينهم، حتى إنه إذا حدث وخرج أحد كان السيف في انتظاره، وإذا بقي في داره فإن الطاعون والمجاعة سيقتضيان عليه، فلم تكن نسمع سوى العويل والنحيب من كل جانب.

المطر الذي اعتاد السقوط على الأرض في فصل الشتاء تخلى عن عادته ولم يسقط، ولذلك جفت جميع المحاصيل ولم تعد تنبت. لقد عم المنطقة كلها جفاف شديد، وحدثت مجاعة عظيمة لدرجة أن القمح ارتفع سعره، حتى أصبحت الألفزة^(١٤٦) الثمانية أو السبعة دينار، وعلى الرغم من هذا لم يتيسر العثور عليه. لقد كلف بعض الحكام مجموعة من الرجال بمصادرة القمح والاستيلاء عليه أينما وجدوه، سواء في المنازل أو في الحقول. تعرض الجميع للجوع لدرجة الموت، حتى أصحاب القمح الذين كان المفروض ألا يكونوا خاضعين للمجاعة، فقد استولت السلطة على محصولهم من القمح فوقعوا فريسة للجوع.

منذ ذلك الوقت بدأ الأغنياء يشعرون بالمجاعة شأنهم في ذلك شأن الفقراء، فقد انتشرت في كل مكان من المنطقة بحيث لم ينج مكان واحد من هذه المخاطر. عم الضيق والأسى كل بقعة في المنطقة، لقد نفقت أيضا حيوانات الصحراء المتوحشة، مثلها مثل الحيوانات البرية التي تعيش على الكأ، لأنه لم يكن هناك ثمة نبات على وجه الأرض. لقد تملك الناس حزن عميق وكذلك سائر المخلوقات، بسبب تلك المجاعة التي لم يسبق لها مثيل في زماننا ولا في زمن أبائنا، كما أن العيون والبنابيع نضبت والأنهار جفت.

(١٤٥) العهد القديم: إرميا ١٤: ٦/٥/٤/٣/٢.

(١٤٦) الألفزة جمع ألفيز، مكبال روماني قديم. من الصعب تحديد قيمة المسافات والأوزان والأحجام التي اختلفت كثيرا وفقا للأماكن والأزمنة، وقد حدد ابن العبري هذا المقياس بقيمة حولة حمر.

لقد تراكت كل المصائب والمساوئ على الأرض، كل المساوئ ولا سيما الطاعون والمجاعة التي قد ألمت بنا بسبب كثرة خطايانا وسينائنا، وقد حدث ذلك عندما توفي هشام.

عن الطاعون العظيم الذي حدث في ذلك الوقت^(١٤٧)

لقد عاوننا النبي إرميا الذي هو أعلم بحالنا في أن ينوح على المصائب التي أحاطت بنا من كل جانب، كما أخذ يبكي من أجل العذاب الذي يحيط بنا من كل ناحية: (يا ليت رأسى ماء وعينى ينبوع دموع فأبكي نهارا وليلا قتلنى بنت شعبى).^(١٤٨) كما قال أيضا: (على الجبال أرفع بكاء ومرثاة وعلى المراعى البرية ندبا لأنها احترقت فلا إسمان عابر ولا يسمع صوت الماشية، من طير السموات إلى البهائم هربت مضت. ويسرعن ويرفعن علينا مرثاة فتذرف أعيننا دموعا وتفيض أجفاننا ماء. بل اسمعن أيتها النساء كلمة الرب ولتقبل أذانكن كلمة فمه وعلمن بناتكن الرثاية والمرأة صاحبته التندب! لأن الموت طلع إلى كوانا دخل قصورنا ليقطع الأطفال من خارج والشبان من الساحات. تكلم، هكذا يقول الرب: وتسقط جثة الإنسان كدمنة على وجه الحقل وكقبضة وراء الحاصد وليس من يجمع!).^(١٤٩)

(١٤٧) بدأ هذا الطاعون في اليونان في جزر بحر إيجه، ثم انتشر في باقي المدن. ظهر هذا الوباء على هيئة بقع زيت تظهر على الملابس وعلى أبواب الأبنية والكنائس وأبوابها. هذه العلامة كانت تصحبها أعراض غريبة، فهي تؤدي بالشخص إلى نوع من التغيرات بوجود أرواح شريرة تعيش في المنزل وتقوم بالقتل والخفق والإضرار بكل من تتمكن منه. وفي حقيقة الأمر فإن هذا الخيال الذي يودى بحياة الناس لم يكن سوى هذا الطاعون الملعون الذي يفك بالبشر. في ربيع عام ٢٤٨م تضاعف هذا الوباء، وخاصة في موسم الحصاد، لدرجة أن معظم منازل القسطنطينية لم تكن سوى مقابر للأهالي، وكلفت الجثث تتكدس بعضها فوق بعض لعدم وجود المقابر الكافية، ولم يتوقف هذا الطاعون إلا بعد ثلاث سنوات. (ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ٢٤٢)

(١٤٨) العهد القديم: إرميا ٩: ١.

(١٤٩) العهد القديم: إرميا ٩: ١٠/١٨/٢٠/٢٢.

ولبعد الآن النبي ولييك ليس على شعب بعينه أو على مدينة أورشليم فقط، بل على سائر الشعوب، وأيضا على المدن العديدة التي أحالتها الكارثة إلى معصرة تفرى ساكنيها بالأرجل دونما رحمة أو شفقة كأنهم العنب اللذيذ، ولييك أيضا على سائر المعمورة لأن الوضع أشبه بالحاصد الذي وقف وسط حقل من القمح قد أشرف على النضج، فهدد وامتأصل كل العيدان دون تمييز لأحدها عن الآخر، ولييك أيضا على الجثث المتعفنة المتناثرة في شوارع البلاد قاطبة. إن الصديد كان يسيل منها أشبه بالماء في الساحات، ولم تجد من يورى أكفانها، ولييك أيضا على المنازل والديار الرائعة الجميلة الكبيرة منها والصغيرة التي ما لبثت أن أصبحت قبورا لساكنيها، حيث لقي بها الجميع حتفهم على حين غلة عبيدا وأسيادا دون أن ينجو أحد، ولم يتمكن أحد من إخراج الجثث من تحت الأنقاض، ولييك أيضا على الشوارع المهجورة، ولييك أيضا على القرى الكثيرة التي ملك ساكنها جميعهم، ولييك أيضا على القصور التي تصدعت للواحد تلو الآخر، ولييك أيضا على معازل الزوجية التي أعدت للأزواج فظهروا فيها فجأة أمواتا، ولييك أيضا على الكواعب الأبنكار المعصومات وراء الأبواب انتظارا للانتقال إلى عش الزوجية وإذا بهن ينتقلن فجأة إلى القبر، ولييك أيضا على أشياء كثيرة من هذا القبيل تفوق خطيب الخطباء وأحاديث المحدثين. على كل هذه الأشياء أقول إن النبي كان له الحق في أن يبكي ويقول: الويل لي ليس (من أجل سحق بنت شعبي تمسحت، حزنت، أخذتني دهشة)،^(١٥٠) ولكن من أجل الدمار الذي حل بكل أرجاء المعمورة وكل الشعب الذي أباده الطاعون بسبب أخطائه. كان يفضل أن يستخدم الأقوال النبوية لأتباعه وليحضر ويقول لباقي الأحياء: (تنطقوا ونوحوا أيها الكهنة، ولولوا يا خدام المذبح، ادخلوا بيتوا بالمسوح يا خدام إلهي لأنه قد امتنع عن بيت إلهكم التقدمة والسكيب).^(١٥١) ولكن من أجل البشر الذين أيّدوا على سطح الأرض (هكذا قال رب الجنود: تأملوا وادعوا للتدابير فيلتين وأرسلوا إلى الحكيمات

(١٥٠) العهد القديم: إرميا ٨: ٢١.

(١٥١) العهد القديم: يونس ١: ١٣.

فَيَقْبَلُنَ)،^(١٥٢) (لَيْسَ مِنْ أَجْلِ هَذَا تَرْتَعِدُ الْأَرْضُ وَيَنُوحُ كُلُّ سَاكِنٍ فِيهَا وَتَطْمُو كُلُّهَا كَنَهْرٍ وَتَغْبِضُ وَتَتَضَبُّ كَنَيْلِ مِصْرَ)،^(١٥٣) لَيْسَ عَلَى جِثَّةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ، وَلَكِنْ عَلَى شُعُوبٍ، بَلْ عَلَى أُمَمٍ بِأَكْمَلِهَا. (اتَسَحَقَتِ الْأَرْضُ اتَسَحَاقًا، تَشَقَّقَتِ الْأَرْضُ تَشَقُّقًا، تَزْعَزَعَتِ الْأَرْضُ تَزْعَزَعًا. تَرْنَحَتِ الْأَرْضُ تَرْنَحًا كَالسَّكْرَانِ، وَتَدْلُدَلَتِ كَالْعُرْزَالِ، وَثَقُلَ عَلَيْهَا ذَنْبُهَا فَسَقَطَتْ وَلَا تَعُودُ تَقُومُ).^(١٥٤) كُلُّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ تَحَقَّقَتْ فِي هَذَا الْوَقْتِ.

إِنَّ الْكَوَارِثَ الْكَبِيرَةَ وَالْهَزَاتِ الْأَرْضِيَّةَ الْعَنِيفَةَ وَالْجِيُوشَ وَالْحُرُوبَ وَعَدَاوَاتِ الْعَرَبِ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِسَبَبِ الْمَجَاعَةِ الَّتِي تَفْشَتْ بِشَدَّةٍ بَيْنَ الْبَشَرِ، حَتَّى إِنَّ الْأَهَالِيَّ فِي الْمُنَاطِقَةِ الْجَنُوبِيَّةِ وَالشَّرْقِيَّةِ قَامُوا وَانْقَضُوا عَلَى الْمُنَاطِقِ الشَّمَالِيَّةِ وَالْغَرْبِيَّةِ، وَاسْتَعْدَمُوا الْفِتَّةَ مَعَ أَشَدِّ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ.

وَقَالَ النَّبِيُّ إِرْمِيَا: (وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمُ السَّيْفَ وَالْجُوعَ وَالْوَبَاءَ حَتَّى يَفْنَوْا عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ الَّتِي أُعْطِيَتْهُمْ وَأَبَاءَهُمْ إِيَّاهَا).^(١٥٥) كُلُّ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ حَدَثَتْ فِي أَيَّامِنَا بِغَيْرِ اسْتِنَاءٍ، هَا هُوَ سَيْفُ الْعَرَبِ يَدُورُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، هَا هُوَ السَّلْبُ يَنْتَشِرُ حَتَّى بَاتَ مِنْ غَيْرِ الْمُمْكِنِ أَنْ يَبْرَحَ الرَّجُلُ دَارَهُ دُونَ أَنْ تَنْهَبَ أَوْ تَسْلُبَ، هَا هِيَ الْمَجَاعَةُ تَنْتَشِي فِي الدَّخْلِ وَالْخَارِجِ. فَإِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ إِلَى دَارِهِ وَلَاحَظَ الْمَجَاعَةَ وَالطَّاعُونَ، وَإِذَا خَرَجَ إِلَى الصَّحَرَاءِ وَقَعَ فَرِيْسَةً السَّيْفِ وَالْأَسْرِ. مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَصَارٌ مَرِيرٌ وَحُزْنٌ أَلِيمٌ وَرَغْبَةٌ مَلْحَةٌ (تَوَاتَوْا وَابْهَتَوْا، تَلَفَّذُوا وَاعْمَأَوْا، قَدْ سَكَّرُوا وَلَيْسَ مِنَ الْخَمْرِ، تَرْنَحُوا وَلَيْسَ مِنَ الْمُسْكِرِ)،^(١٥٦) أَخَذَ النَّاسُ يَتَجَوَّلُونَ وَيَتَقَلَّبُونَ مِنْ بَلَدٍ إِلَى أُخْرَى وَمِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، كَانُوا يَتَرْنَحُونَ كَمَا لَوْ كَانُوا سَكَارَى، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ إِنَّهُمْ كَانُوا يَطْلُبُونَ الْخَبِيزَ فَلَا يَجِدُونَهُ.

(١٥٢) المهد القديم: إرميا ٩: ١٧.

(١٥٣) المهد القديم: حلمس ٨: ٨.

(١٥٤) المهد القديم: إشعياء ٢٤: ٢٠/١٩.

(١٥٥) المهد القديم: إرميا ٢٤: ١٠.

(١٥٦) المهد القديم: إشعياء ٢٩: ٩.

فى أول الأمر بدأت أعداد غفيرة من كبار العائلات تمرض وتموت نتيجة لتلوث الدم والتآليل، ولم يتمكن أحد من دفنهم. ظل الأمر على هذه الحال طوال فصل الشتاء، كان الناس يرقدون فى الساحات وفى الأروقة والأبراج والمعابد وفى كل الأبنية يعانون من شدة المرض وعنف المجاعة المميتة، حتى إن عدد الذين راحوا ضحية الجوع كان يفوق بكثير عدد الذين فتك بهم المرض، وكان الذين يملكون الخبز لدرجة الشبع هم أنفسهم الذين وقعوا فريسة للمرض. عندما بدأ الدفء يحل على الأرض بدأت التآليل تظهر على المرضى الذين أخذوا يتساقطون فى الأسواق كالزبل على سطح الأرض، دون أن يجدوا من يقوم بدفنهم. بدأ هذا الطاعون يظهر على الفقراء الملقين فى الساحات، وكان الناس يكفونهم باحترام يتلاوة التراتيل، وكانوا يدفنونهم مكرمين. استشرى الطاعون وأطبق على نبلأ القرى والمدن بقسوة، وحينما أراد الكهنة أن يقوموا بدفن أحد الموتى تجمع فى الصباح فى مكان واحد قرابة خمسين نعشاً أو ستين أو ثمانين أو مائة نعش. وقد وُضع بداخل كل نعش جثمان أو ثلاثة أو حتى أربعة أطفال. كان يقضى اليوم فى دفن جثث البشر دون هدنة أو راحة.

لقد ملأ العرب الأرض بالحفائر وكذلك اليهود، وكانت مقابر المسيحيين مكنتة بالموتى حتى إنهم أصبحوا هم أنفسهم مضطرين إلى القيام بالحفر. فى يوم واحد خرج أكثر من خمسمائة نعش من باب واحد. كانت الأبواب لا تفتح طوال اليوم إلا لخروج حاملى الجثث وعودتهم. كانوا يخرجون لدفنها ثم يعودون لحمل غيرها، حتى إن بعض الموتى لم يكن يقام لهم القديس لقطة عدد الكهنة وكثرة عدد الموتى.

فى الصباح أصدر الكهنة تعليماتهم إلى أهالى الموتى بتجميع ذويهم فى أماكن مجاورة لمناطق سكنهم، فكان سكان كل منطقة أو حي يتجمعون فى المكان المحدد لهم، منذ الصباح كان الكهنة ينقسمون للذهاب فى كل اتجاه لتجهيز الموتى وحملهم إلى مدافنهم فى جماعات. حدث أن تجمع فى مكان واحد أكثر من مائة نعش، كان يوجد فى تلك النعوش أكثر من مائتين أو مائتين وخمسين جثة كانت

تتكس بعضها بجانب بعض طوال اليوم دون انقطاع، فلم تكن هناك تفرقة بين الخادم والمخدوم ولا بين السيدة والأمة ولا بين الأجير والمستأجر، فكان الحال أشبه بمعصرة تمتزج فيها النهاية بالعقاب الإلهي للبشر، وكان العبيد والسادة يعذبون دون تفرقة.

إن الرجل سواء كان من عامة الشعب أو من سادة القوم كان يسقط ويعانى سكرات الموت، والكل فى ذلك سواء. فليتأمل كل شخص الأمر الإلهي ولتستبد به الدهشة والحيرة تجاه أحكام الرب التى تخفى على البشر ويتعذر عليهم تفهمها (عدك مثل جبال الله وأحكامك لجة عظيمة، الناس والبهائم تخلص يارب).^(١٥٧) إن الكارثة عمت وأمتد أثرها حتى شمل أولئك الذين يتولون مقاليد السلطة فى البلاد، وكذلك الذين ينعمون برغد العيش، ومن ينغمسون فى الفواحش ويرتكبون الكبائر والآثام، لقد أصبحت ديار للكثيرين منهم تنمى أصحابها ولا تجد من يرثها. كان الرجال يتنازلون لأصدقائهم فجأة عن ممتلكاتهم وثرواتهم ومزارعهم، وأيضا عن قصورهم المنيفة.

كم من قصور مشيدة خربت، وكم من عائلات أبيدت لأنها لم تجد من يرثها. إن اللسان البشرى ليعجز عن وصف الكوارث الهائلة التى حلت بالبقعة التى تمتد من الفرات حتى الغرب، وشملت كل إقليم فلسطين، وامت المنطقة الشمالية والوسطى حتى البحر الأحمر، كذلك باقى كوكبا وآسيا الصغرى وبتينا ليديا وغلاطية وأيضا كبادوكية. إن عذاب هذا الانتقال الجائر قد قاسى منه العالم كله، فهو مثل المطر الذى يصيب كل مكان على الأرض، أو كأشعة الشمس التى تصل إلى كل مكان، هذا الوباء قد خيم أيضا على العالم كله. كان أثره أشد فى المناطق سالفة الذكر، ولقد تحولت فجأة تلك الساحات والمناطق إلى صحارى جرداء لا يمر فيها أو يسكنها أحد. كانت مينة بالجثث المتعفنة الملقاة على الأرض كالزبل على سطح الطريق، لا تجد من يقوم بدفنها لأنه لم ينج أحد من الأهالي، لدرجة أنها كانت تبدو لمن يراها فى حالة انتفاخ وتحلل، أى فى حالة تعفن شديد. كانت

(١٥٧) العهد القديم: المزمير ٣٦: ٦.

المنازل مفتوحة كالمقابر، وكان أصحابها في دخلها في حالة تقيح. أثاثهم وذهبهم وأموالهم ومدخراتهم كلها كانت مبعثرة في الطرقات، ولم يكن هناك أحد ليجمعها. كانوا لا يحفظون بالذهب أو المال، كانت ثروتهم ملقاة في كل مكان دونما صاحب أو مالك. كان كهول ومسنات اشتعلت رعوسهم شيئا كانوا يرجون أن يغادروا الدنيا وسط مظاهر التكريم من أهاليهم، فكثروا يسرون في الشوارع فاغرين أفواههم من الدهشة والهول، وكانوا يتساقطون في الشوارع وفي المنازل وفي الأماكن العامة وهم متهاكون أو في حالة نعن. عذارى جميلات على قسط وافر من الجمال، وكذلك فتيات كن ينتظرن أن ينتقلن إلى عش الزوجية وارتداء أفخر الثياب، كن ملقيات عاريات متعفات بعضهن فوق بعض، وأصبحن مثار حسرة وألم لكل من تقع عينه عليهن. ما حدث في المقابر كان بمشينة الرب، ولكن كان بين جذران المنازل وفي الطرقات شباب قد أصبحوا مكرويين ومطرودين، كانوا ملقين في الطرقات قد اختلط صديدهم بصديد ذويهم.

هذا هو أيضا ما حدث في تلك المناطق. الذين بقوا وهم قليلو العدد ظلوا يحملون الموتى طيلة اليوم دون توقف، كانوا يحملونهم ويلقون بهم كما لو كانوا يلقون بحجارة على كومة ثم يعودون ليحملوا جثة أخرى ليلقونها كما ألقوا سابقتها. كثير من المحتاجين كانوا دون أهل وكنا نراهم ملقين في الشوارع تقوم الكلاب بنهش لحومهم لأنهم لم يجدوا من يواربهم للقبور. كل واحد كان لا يكفيه إلا منزله، كانوا يستأجرون عمالا كثيرين لنقل الجثث من المنازل أو الساحات بسبب عفونتهم، وهكذا أنجز هذا القول: (أرسلت بينكم وبأعلى طريقة مصر، قُلت بالسيف فتيانكم مع سبي خيلكم وأصعبت نفن محالكم حتى إلى أنوفكم فلم ترجعوا إلى يقول الرب)، (١٥٨) (ناحت ذبلت الأرض، حزنت ذبلت المسكونة، حزن مرتفعو شعب الأرض). (١٥٩)

(١٥٨) العهد القديم: عاموس ٤: ١٠.

(١٥٩) العهد القديم: إشعياء ٢٤: ٤.

عما قريب لن يكون هناك بكاء ولا حزن ولا ألم، لأن كل واحد سيطرق باب القبر. كان الذهب والفضة محتقرين كروث الماشية، حتى إنه لو كان على الموتى من الزوجات أو الفتيات ذهب أو فضة أو حليّ ثمينة لا يندس أحد يده ليأخذ شيئاً، حتى الأهالي لا تمتد أيديهم لأخذ شيء منهم، حتى الآباء لا يأخذون من أبنائهم، لأنهم كانوا يعرفون أن صديدهم سيختلط بصديدهم وعما قريب سيلحقون بهم.

بأى دموع سأبكي الآن يا أحبائي؟ أى تلوهات ستكفيني؟ أى قلب محطم أى عزاء أى نواح أى حسرة أى آلام ستكون كافية عندما ترى كهولاً ورجالاً من مختلف الأحجام والأعمار خائري القوة وملقين كالأرز؟

إن رحمة الرب الكبرى ظهرت حتى أيضاً فى تلك الكارثة، لأنها قضت أولاً على المساكين الذين كانوا ملقن فى طرقات المدن. وفى كل مكان كان البدء بهم، وفى النهاية عندما رحل هؤلاء بالكامل تحولت العصا تجاه الأغنياء وأسياد المدن.

إن هذين الأمرين قد نفذاً بواسطة الرحمة الإلهية للرب، حيث حققت فائدة لكلا الطرفين. أولاً لسكان المدن، لأنهم كانوا يظهرون حماسهم للعدالة، ويحققون لأنفسهم أعظم كسب عن طريق اهتمامهم بالفقراء، مما جعل الفقراء ينعون بهم، يكفونهم ويهتمون بجنائزاتهم، وكانوا يولونهم القبور بأسى كبير وعناية. ثانياً للفقراء أنفسهم، لأنه لو كانت الكارثة قد حلت بهم وبسكان المدن فى آن واحد فكيف كان سيتم نقل عظامهم النخرة النافرة من اللحم فى الشوارع؟ ولكان ذلك مما لا يتسلى معه للقائمين على هذا الأمر إقناع الأغنياء به، إذ لم يكن الفقراء يترددون عليهم قبل وقوع الكارثة، حينما كان كل منهم سالماً ومعلقاً. لذلك كانوا يقبلون على نقل الجثث من أجل دفن الذين لم يكن لهم أحد ليدفنهم، حتى إن الذين كانوا يعتمدون على وجود مقابر ومكفنين لهم أصبحوا دون قبور ولم يجدوا من يقيم لهم القداس. فى الحقيقة لقد تحولت الكارثة إلى العظماء بمجرد أن دفن الفقراء، وشملهم الموت جميعاً دون تفرقة بين صغير وكبير، لم يبق منهم أحداً. أما الذين تصادف أن نجوا من تلك الكارثة ولم يلقوا حتفهم فقد أسرعوا بالفرار إلى خارج المدن.

فى النهاية حتى من كُتبت لهم الحياة أصابهم داءٌ عظيم، وهو انسداد الحالب. بعضهم أصيب من جانب واحد وبعضهم الآخر أصيب من الجانبين. إن الذى حل بالأموات حل مثله بالأحياء، حيث لم يلبثوا أن أصابهم ألم الحالب، وكان ذلك نذيراً بأن من سينجو من الموت سوف يتألم بأقصى مما فى الموت من آلام.

ستنفخ الكاذة وتتورم وتتفجر، فتنتج عنها قروح كبيرة وعميقة، يسيل منها الدم والصديد والماء ليلاً ونهاراً كالنهر، مما يصيب الشخص بالذبول والهزال، وقد يستمر هذا المرض مع البعض لمدة شهر ومع آخرين لمدة شهرين أو خمسة أشهر أو سنة وحتى عام، ومنهم من يمكث معه لمدة عامين، وكثيرون منهم لازمهم طيلة حياتهم.

وهكذا أنجز قول النبى الذى يقول: (كل الأيدى ترتخى وكل الركب تصير ماء)،^(١١٠) (لذلك ترتخى كل الأيدى وينوب كل قلب إنسان)،^(١١١) (إلى البيت ويبون يصعدون إلى المرتفعات للبكاء، تولول موآب على نبو وعلى ميدبا، فى كل رأس منها قرعة كل لحية مجزوة).^(١١٢)

وقد حدث هذا فى الوقت الحاضر، فإذا هرب أحد من بيته أو من عائلته أصابه هذا الداء. الذى يحدث أنه كان يسيل من ركبتيه ماء ودم وصديد، حتى يصبح رأسه أصلع. ولذا فإن من بقى حياً كانوا قليلي العدد، ولم تكن نعرفهم أو نميزهم حتى من ملابسهم. لا أحد كان يميز بين القسس والرهبان، فقد أصبح جميعهم صلعاً. كان هذا المرض يصيب الرقبة من الخلف، وقد أصاب الكثيرين فى الفخذ. إن معظمهم قد تخلصوا منه سريعاً، وبعضهم شفى بعد فترة من الوقت، والبعض الآخر لم يسترد صحته مطلقاً.

(١١٠) العهد القديم: حزقيال ٧: ١٧.

(١١١) العهد القديم: إشعياء ١٣: ٧.

(١١٢) العهد القديم: إشعياء ١٥: ٢.

كانت تلك الكارثة مثل آلام الولادة التي تستبد بالمرأة الحامل، فقد خيمت على المنطقة من كل جانب. لم يكف العرب قط عن الشجار وتبادل الأذى، حينئذ خرج مروان من باب الأثرak فاضطربت الأرض كلها وثارت.

عام ١٠٥٧ يونانية (٧٤٥-٧٤٦م) خرج مروان من باب الأثرak.^(١١٣) حيث جاء في سفر النبي إرميا هكذا: (لذلك هكذا قال الرب: هأنذا جاعل لهذا الشعب معثرات فيعثر بها الآباء والأبناء معاً، الجار وصاحبه يبيدان).^(١١٤)

كل هذه الأشياء حدثت للعرب سواء كانوا إخوة أو أولاد إخوة، فقد سقطوا جميعاً في هاوية سحيقة بسبب طموحهم.

إن أنصار عباس وأنصار هشام وأبناء الوليد وأنصار مروان، الذين كانوا إخوة وأبناء إخوة وجيراناً وأصدقاء لقض الواحد منهم على الآخر فأهلكوا أنفسهم كما هلك معهم نفر كثير. وقد قال إرميا بخصوص خروج مروان: (هكذا قال الرب: هو ذا شعب قائم من أرض الشمال وأمة عظيمة تقوم من أقاصي الأرض. تمسك القوس والرمح، هي قاسية لا ترحم، صوته كالبحر يعج وعلى خيل تركب مصطفة كاتبان لمحاربتك يا ابنة صهيون. سمعنا خبرها، ارتخت أيدينا، أمسكنا ضيق ووجع كالماخض. لا تخرجوا إلى الحقل وفي الطريق لا تمشوا لأن سيف العدو خوف من كل جهة).^(١١٥) وقال إشعيا أيضاً في الإحدى عشر: (قد أنهضته من الشمال فأتى، من مشرق الشمس يدعو باسمي، يأتي على الولاة كما على الملائكة وكخزاف يدوس الطين).^(١١٦) وأيضاً: (فقال للرب لي: من الشمال يفتح الشر على كل سكان الأرض).^(١١٧)

(١١٣) خرج من باب الأثرak، أي أنه خرج من أرمينيا حيث كان حاكماً.

(١١٤) العهد القديم: إرميا ٦: ٢١.

(١١٥) العهد القديم: إرميا ٦: ٢٢/٢٣/٢٤.

(١١٦) العهد القديم: إشعيا ٤١: ٢٥.

(١١٧) العهد القديم: إرميا ١: ١٤.

عندما غزا مروان الجزيرة وخضعت له عين حكاما في كل المدن وأيضا في الموصل. ثم بعد ذلك جمع قوة عظيمة وأمرها بالزحف مع عمال وفنسين. وعبر مروان إلى الغرب إلى أنصار عباس، أما يزيد الذي قتل الوليد فقد توفي بعد أن حكم لمدة ستة شهور وجاء خلفا له أخوه إبراهيم. وعندما علم أن مروان قد عبر الفرات ومعه قوة عظيمة وأن الجزيرة قد دانت له أصابه للفرع وهرب من أمامه. (يتمايلون ويترنحون مثل السكران وكل حكمتهم ابتلعت)،^(١٦٨) وأرسل إلى مروان نعمان بن ثابت^(١٦٩) مع قوة عظيمة. لقد قيل عن هذا الرجل إنه كان لديه سبعون ولدا.

والتقى الجمعان وتلاحما في معركة شرسة، فانهزمت قوات ثابت أمام مروان وأبديت عن آخرها. وعندما رأى أنصار إبراهيم أنهم قد انتصروا في أول معركة تحركوا، وحشدوا قوات كثيرة دون عدد وجمعوا الأهالي من القرى وحاربوهم بالحجارة في القلاع.

لقد تقدم الجيشان كل تجاه خصمه حتى التقيا فسكرأ في عين الدار.^(١٧٠) وبعد إن دارت بينهما معارك حامية، وبعد أن راح ضحيتها عدد كبير من الفريقين أحرز مروان في النهاية النصر، فهرب إبراهيم وإخوته وكذلك سليمان بن هشام. ولم تر الأبصار أو تسمع الأذان بمنى تلك المعركة من قبل، ولم يحدث أن أرى مثل هذا القدر من الدماء إلا في هذه الموقعة، حتى إنه قد قتل فيها من أهالي القرى ما يزيد على خمسة آلاف رجل.

وبعد أن تحقق النصر لمروان ضرب حصلا حول مدينة حمص واستولى عليها وهدم أسوارها، كما أخرج أيضا جيشان يزيد من قبره، وصلبه على شجرة جاعلا رأسه إلى أسفل، كما اغتصب أربعمائة ألف قطعة ذهب من أحد اليهود.

(١٦٨) المهد القديم: المزموير ١٠٧: ٢٧.

(١٦٩) ربما كان المقصود هنا هو تثبت بن نعمان.

(١٧٠) عين الدار تقع في لبنان على طريق دمشق بطوك.

عن قساوسة الكنيسة الذين برزوا في ذلك الوقت

بعد القديس أنثاسيوس بطريرك أنطاكية جاء البطريرك يوحنا في الرها، وبرز الأسقف قسطنطين في حران، والراهب مار شمعون من الدير المقدس في قرتمين، وفي سموصاط^(١٧١) قسطنطين آخر، وفي ميافرقاط الراهب مار أنثاسيوس المسمى صندليا، والذي أصبح فيما بعد بطريركا، وفي آمد الراهب مار قزما^(١٧٢) الذي جاء خلفا له مار سبا من دير زوقنين المقدس، والواقع في دائرة تلك المدينة، حيث أمضى عشرين عاما ومات وجاء خلفا له ساويرس من نفس الدير الذي توفي به بعد نحو عام، بسبب وباء أصابه أثناء زيارته لأسقفية، وعين مكانه ساويرس آخر من نفس الدير.

في نفس تلك الفترة وقع اضطراب بسيط في الكنيسة بشأن الراهب يوحنا الذي لم يقبل الجميع الخضوع له.

عن نقل كنز الملوك من الغرب إلى الجزيرة

كان مروان على علم تام بما يكتنه الغربيون له من غدر وخيانة، ولذا فقد عزم على نقل كنز الملوك إلى الجزيرة. قام الغربيون ضده وأعلنوا العصيان عليه، ولأنه كان يعلم أنهم لن يكتفوا من نقله بسلام فقد لجأ إلى خداعهم حيث قال: "إنما أريد نقله إلى دمشق وليس إلى الجزيرة، لأن هناك مقر عرش الملوك".

فلما قال ذلك سمحوا له بنقله إلى دمشق، وقاموا هم أنفسهم معه وأوصلوه إلى المدينة، وبعد عدة أيام رجعوا إلى منازلهم. ولم يكد يمر شهران أو ثلاثة حتى

(١٧١) بلدة واقعة شمالي الرها، إلى الغرب من القرات. وهي بالسريرية تسمى ساط. (التاريخ الكنسي ١٦)
(١٧٢) من أصل أورشليمي. تيمم باكرا فتيناه "مرجون"، فشارك "يوحنا" حياته المائتية. (السريان نقلت حضرات ٩٩)

سرقه على حين غفلة من الغربيين ونقله إلى حران حيث ذهب هو بنفسه وأقام هناك. ومنذ ذلك الوقت لم تتوقف رحي الحرب طيلة فترة حكمه.

عام ١٠٥٨ يونانية (٧٤٦-٧٤٧م) انضم الضحاك إلى طائفة الحاروريين، وتمكن من غزو الجزيرة. فمنذ أن جاء مروان إلى الجزيرة لم يبارحه العذاب، فقد انبثق له من أرض الجزيرة شوكة قوية.

في تلك الفترة قام الضحاك الطاغية من جبل أزال،^(١٧٣) ومعه يعقوب وخبير وسقاسقي، بشن معارك عديدة ضد مروان، فأبادوا عددا كبيرا من قواته. وبعد كثير من المعارك في كل مكان نشبت معركة قوية وحامية في تل مشريتا، حيث لقي فيها الضحاك مصرعه وكثير من قواته، أما الذين نجوا فولوا الأدبار.

عام ١٠٥٩ يونانية (٧٤٧-٧٤٨م) وقع زلزال عنيف ومدمر في المنطقة الغربية. (انسحقت الأرض انسحاقا، تشققت الأرض تشققا، تزعزعت الأرض تزعزعا).^(١٧٤) تلك الأحداث وغيرها، بل أسوأ منها أيضا وقعت بسبب الظلم والأخطاء والمساوئ التي نقترفها كل يوم. أين نستطيع أن نجد سببا لذلك الذي نزل بنا إن لم يكن بسبب أخطاء البشر؟ هل الأرض تتصدع؟ هل هي عندما تهتز وتضطرب تتضرع إلى صانعها كي يأتي ويثبتها؟ لا أعتقد ذلك، ولكنها عندما تهتز فإنها تحتج على المساوئ التي نقترف على سطحها، ولقد ظهر ذلك واضحا من الحدث التالي:

وقعت هزة أثناء الليل، وكذلك سمع خوار للثور من بعيد. عندما جاء الصباح أمر الأسقف مع جماعة أخرى أن يجتمع الجميع ويخرجوا للصلاة، لأن هذا - كما قال - يحدث نتيجة مساوئ البشر، فخرجوا جميعا للصلاة، وذهبوا في

(١٧٣) جبل أزال يفصل حدود آمد عن الجزيرة، وكان يسمى قديما "مليس"، وهو عبارة عن سلسلة جبال خصبة جدًا، وخاصة بالكروم والفواكه.

LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE TX. P. 229-234.

(١٧٤) العهد القديم: إشعياء ٢٤: ١٩

موكب إلى خارج المدينة، إلى الكنيسة التي تدعى أم الرب، والتي تقع خارج المدينة في مروج في المنطقة الغربية. كان هؤلاء من خلقدونيا،^(١٧٥) وكان أسقفهم يسير بنفسه في مقدمتهم، وما كانوا يصلون إلى الكنيسة ويدخلونها جميعا كالماعز في الحظيرة ويقومون بتلاية الصلاة حتى وقعت هزة أرضية أشد وأقوى، فتهدم البناء عليهم وأبداهم جميعا مع أسقفهم، وهلكوا جميعا ولم يبق أحد منهم حيًا، وأصبحوا فجأة كلهم فريسة للهلاك والعذاب. لقد هلك الحق مع الباطل.

عام ١٠٦٠ يونانية (٧٤٨-٧٤٩م) صعد شعب فارس^(١٧٦) إلى أرض سوريا، حيث هاجموا العرب واغتصبوا الحكم منهم. لقد تنبأ إشعياء قديما بهذه الأحداث حيث قال: (ويل لأشور قضيب غضبي والعصا في يدهم هي سخطي. على أمة منافقة أرسله وعلى شعب سخطي أوصيه ليقتم غنمة وينهب نهبها ويجعلهم مدوسين كطين الأثرقة).^(١٧٧) كما قال أيضا: (ويكون في ذلك اليوم أن الرب يصفر للذباب الذي في أقصى ترع مصر وللنحل الذي في أرض آشور. فتأتي وتحل جميعها في الأودية الخربة وفي شقوق الصخور وفي كل غاب الشوك وفي كل المراعى).^(١٧٨)

وفي الحقيقة كان هؤلاء عصا الجنوب، وهي العصا التي يحملونها في أيديهم كما قال النبي، لأنهم كانوا يحملون في أيديهم عصيًا، في طرف كل واحدة منها ثبّت مسار حديدى، كما لو كانوا يتقدمون لقتل الكلاب. وكانوا يطلقون عليهم اسم "ذباب ونحل"، وذلك لأن الذباب يطن ويسقط على أى مكان توجد به ديدان، وتتبعث منه رائحة عفنة، وبالمثل من كانوا سحرة أو لصوصا أو مراهقين أو

(١٧٥) يقصد أنصار مجمع خلقدونيا الذين كانوا يحترقون الميثافيزيقيين، وهم بالتالى ملمدون في نظر ديونسيوس.

(١٧٦) يقصد بشعب فارس "العلبيين" وكذلك "الخراسانيين" وأيضا المتشحن بالسواد. لأن العباسيين فعلا كانت أولى محاولاتهم للثورة ضد الأمويين في خراسان وفي فارس الشرقية.

THEOPHANES: CHRONOGR. AD. ANN. N6240.

(١٧٧) العهد القديم: إشعياء ١٠: ٦/٥.

(١٧٨) العهد القديم: إشعياء ٧: ١٩/١٨.

قتلى، إذ حيثما ذهب أحدهم كان يقترف الإثم والعار. كانوا يثيرون الاضطراب، كما كانوا يغادرون مكائهم ويخرجون بأعداد كبيرة تشبه سرب النحل محتقرين في نظرهم. ولم يرجعوا مطلقاً، هكذا تجمعوا وصعدوا إلى الأرض.

ولقد خرجت قوة العرب لصدهم وعسكرت بالقرب من الكوفة،^(١٧٩) ولكنها لم تستطع أن تقاومهم فقتلوا عليهم، ومن نجا منهم ولى الأدبار وتششتوا.^(١٨٠) واستولى الغزاة على أسلحتهم وجيادهم وثرواتهم الكبيرة، لأنه من قبل كان كله يذهب هباء ولم يكونوا يملكون شيئاً سوى العصي التي يحملونها في أيديهم.

لقد تحدث يونسيل عنهم قائلاً: (يوم ظلام وقّام يوم غيم وضباب مثل الفجر ممتداً على الجبال، شعب كثير وقوى لم يكن نظيره منذ الأزل ولا يكون أيضاً بعده إلى سنى دور فدور. قدماه نار تاكل وخلفه لهيب يحرق، الأرض قدماه كجنة عدن وخلفه قفر خرب ولا تكون منه نجاة. كمنظر الخيل منظره ومثل الأفراس يركضون).^(١٨١)

إن النبی كان له الحق في تسميتهم "هينة الجياد"، لأنهم مثل الجياد لهم عرف على الرأس وعلى الرقبة، هكذا كان لهم شعر طويل شبيه بذيل الحصان. وقال أيضاً: (كصريف المركبات على رءوس الجبال يشبون، كزفير لهيب نار تاكل قشاً، كقوم أقوياء مصطفين للقتال. منه ترتعد الشعوب، كل الوجوه تجمع حمرة. يجرون كأبطال، يصعدون السور كرجال الحرب ويمشون كل واحد في طريقه ولا يغيرون سبلهم).^(١٨٢) وأيضاً: (يتراكضون في المدينة، يجرون على السور، يصعدون إلى البيوت، يدخلون من الكوى كاللص. قدماه ترتعد الأرض وترتجف

(١٧٩) الكوفة هي عاقولا القديمة، على الضفة الغربية من الفرات، على بعد خمسة أيام من بغداد.

BAR- HEBRAEUS: CHRECL. II. 111 No. 1

(١٨٠) في ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) عام ٧٤٩م يوبع لأبي العباس بالخلافة في مسجد الكوفة الكبير، وأخذت الراية البيضاء تتقهقر في وجه الراية السوداء. (تاريخ الطبري: ج ٣ ص ٢٢٧)

(١٨١) العهد القديم: يونسيل ٢: ٤/٣.

(١٨٢) العهد القديم: يونسيل ٢: ٧/٦.

السماء، الشمس والقمر يظلمان والنجوم تحجز لمعتها).^(١٨٣) وقال ناحوم أيضا: (تهيج المركبات في الأثرقة، تتراكض في الساحات، منظرها كمصاييح، تجري كالبروق. يذكر عظامه، يتعثرون في مشيهم، يسرعون إلى سورها وقد أقيمت المترسة).^(١٨٤) وأيضا: (فراغ وخلاء وخراب وقلب ذائب وارتخاء ركب ووجع في كل حقو، وأوجه جميعهم تجمع حمرة).^(١٨٥)

لم يقتصر السواد على وجوههم فحسب، وإنما امتد إلى ملابسهم السوداء، ولذا كانوا يسمونهم بالعربي "مسودة" التي ترجمتها باللغة السريانية أسود. عندما استولوا على المنطقة السفلى حاول مروان^(١٨٦) التصدي لهم مرة أخرى، فكلف "ابن هبيرة" بمهاجمتهم فقابلهم في نصيبين، ولكنه لم يصمد أمامهم وهزم.

عندئذ أيضا نزل عبد الله بن مروان^(١٨٧) بنفسه وهزم هو الآخر، فتصدى لهم مروان وشنوا معارك كثيرة، وقتل من الجانبين عدد كبير، وأخيرا شنوا معركة فاصلة وعنيفة في بيت الزاب،^(١٨٨) حيث ارتوت الأرض بدمائهم التي سفكت بغزارة.

هزم مروان وولى الأديار فتفرقت قواته، أما هو فقد عبر الفرات. وأغلقت كل المدن أبوابها في وجهه، وأراد الغربيون محاربته. منذ ذلك الوقت اختفى ولم يُعثر له على أثر، لا هو ولا أحد من أتباعه، أما قواته فبعضهم قتل والبعض الآخر

(١٨٣) العهد القديم: يونيل ٢: ١٠/٩.

(١٨٤) العهد القديم: ناحوم ٢: ٥/٤.

(١٨٥) العهد القديم: ناحوم ٢: ١٠.

(١٨٦) كان مروان جنديا باسلا، أكسبه صهره وصموه في الحروب لقب "الصار". ولم يكن هذا اللقب أنشأ حاراً أو محبباً، وإلى مروان يرجع الفضل في تعديل خطط القتال، إذ تغلب عن نظام القتال في صفوف، هذا النظام الذي جرى عليه النبي (صلى الله عليه وسلم) أولاً، فترك عليه سمة من التقديس، واتخذ بديلاً عنه نظام "الكرايس"، وهي وحدات صغيرة أشد تماسكاً وأسرع انتقالاً. (فيليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ١٥٣)

(١٨٧) المقصود هنا هو "عبد الله بن علي"، أحد أصنام الخليفة الجديد. (فيليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ١٥٤)

(١٨٨) سار مروان على رأس اثني عشر ألف مقاتل من حران شرقاً حتى بلغ الزاب الأعلى في كانون الثاني (يناير) عام ٧٥٠م، وهو أحد فروع دجلة. (الطبري ج ٣ ص ٤٧)

وضع فى الأسر. وما إن هزم للفرس مروان حتى انتشروا فى الأرض كذئاب الليل أو النور الجائعة.

لقد نتبأ بحقوق بهم حيث قال: (فهأنذا مقيم الكلدانيين الأمة المرة القاحمة السالكة فى رحاب الأرض لتملك مساكن ليست لها. هى هائلة ومخوفة، من قبل نفسها بخرج حكمها وجلالها).^(١٨٩) فى الحقيقة انتشروا فى كل البقاع (وخيّلها أسرع من النور وأحد من ذئب السماء، وفرساتها ينتشرون وفرساتها يأتون من بعيد ويطيرون كالنسر المسرع إلى الأكل. يأتون كلهم للظلم، منظر وجوههم إلى قدام ويجمعون سببا كالرمل).^(١٩٠)

هذا النبى يشبههم تماما بذئب السماء، لأن الذئب لا تظهر ولا يراها البشر أو الكلاب أثناء النهار. وفى أثناء الليل يظهرون لشعورهم بالجوع، لأنهم لم يأكلوا طوال النهار (تشرق الشمس فتجتمع وفى مأويها تريض. الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغلته إلى السماء)،^(١٩١) وهكذا فإنهم يعوون فى حالة جوعهم وهذا دأبهم. كانوا يصرخون كالنسر الذى يزجر عندما يجوع، وكانوا مثل الذئب حينما يوجدون يسلبون الخير من البشر، يأتون كلهم للظلم، هكذا قيل (وهى تسفر من الملوك والرؤساء ضحكة لها، وتضحك على كل حصن وتكوم التراب وتأخذه).^(١٩٢)

إن النبوءة لم تكن صحيحة فى قولها: تضحك على الحصون، وذلك لأن كل أسوار المدن قد هدمت بأيديهم، كما هدموا كل ما كان الملوك الحكماء قد حرصوا على إقامته وإحكامه، وأنفقوا فيه أموالا طائلة ليحتموا به من الأعداء.

(١٨٩) العهد القديم: حقوق ١: ٧/٦.

(١٩٠) العهد القديم: حقوق ١: ٩/٨.

(١٩١) العهد القديم: المزامير ١٠٤: ٢٣/٢٢.

(١٩٢) العهد القديم: حقوق ١: ١٠.

كان أول حاكم على الجزيرة هو "عكى" الذى أصدر أمرا بإلزام كل المسلمين بارتداء السواد.^(١٩٣)

عام ١٠٥٤ يونانية (٧٤٢-٧٤٣م) يوم الجمعة أول أيام شهر كانون الثانى (يناير) سقطت النجوم من السماء، وكنا نراها كجمرات من النار تنحدر فى كل مكان، كانت تنبئ بالمصائب التى حلت بعد ذلك على الأرض، وهى الخراب والطاعون وغزو الفرس.

عام ١٠٦١ يونانية (٧٤٩م-٧٥٠م) اتخذوا الأبيض.^(١٩٤) عندما قاسى العرب العذاب الذى سببه لهم الفرس، الذين لم يكفوا عن قتلهم دون رحمة كالماعز، ونهبوا خيراتهم فلم يستطيعوا أن يتحملوهم، بل أكثر من ذلك ناروا عليهم وارتدوا الملابس البيضاء. لقد قيل: (وأجعل صبيانا رؤساء لهم وأطفالا تتسلط عليهم. ويظلم الشعب بعضهم بعضا والرجل صاحبه، يتمرد الصبى على الشيخ والدنىء على الشريف)،^(١٩٥) فقد نار العرب وارتدوا الملابس البيضاء وقتلوا عددا كبيرا من الفرس، وطردوهم ورجعوا إلى بلادهم. لقد ظل العرش شاغرا لمدة سنة كاملة، ظهرت خلالها الفتنة، واتضم "بركة" إلى قطاع "الحاروريت".

عام ١٠٦٢ يونانية (٧٤٩-٧٥٠م) انتشر عرب ميافرقاط فى المنطقة، وبدأوا يلحقون الكثير من الأذى بسكان الجبل وكل المنطقة، ذهب "قورى بن ثابت" إلى إقليم "كليب"، واحتجزوا أكابر البلدة، وقتل سبعة منهم. عندما علم وسمع إخوانهم سكان إقليم "فيس" بذلك سيطروا على أنفسهم، حتى لاتساء معاملتهم مثل إخوانهم. لقد قام رجل جرىء مخلص تقى يدعى "يوحنا بن دداى" من بلدة فيس،

(١٩٣) كان اللون الأسود للملابس اللون الطبيعي للملابس العباسيين، وفى حالة المداد يلبسون الملابس البيضاء.

(١٩٤) المقصود هنا أنهم ناروا على الفرس، وودعوا أنفسهم للموت؛ فقد كان اللون الأبيض علامة المسزاء والحزن، وفى نفس الوقت رمز للثورة على الأسود اللون الرسمى للعباسيين. اتخذ اللون الأبيض أو التبييض هو إعلان للثورة علنا.

DUVAL: HISTOIRE D'EDESSE P. 259.

(١٩٥) العهد القديم: إشعيا ٣: ٥/٤.

فجمع كل سكان مقاطعة فيس، وتحدث معهم قاتلاً لهم: "اليوم كما تعلمون ليس لنا ملك ينتقم لنا من هؤلاء، فإذا تركناهم فسينقضون علينا ويأخذوننا أسرى نحن وكل ما نملك". فاستجابوا له فوراً، وذهبوا خلفه ونصبوه قائداً لهم، فأدخلهم الكنيسة المقدسة، وجعلهم يقسمون بالرب على أنهم سوف ينفذون كل ما يأمرهم به، وبأنهم لن يخالفوا أبداً أمره، ولن يتخلوا عنه على أى وجه من الوجوه.

لأنه تصدى للأمر بسرعة، ولأنه اتخذ الرب نصب عينيه، فقد قام بتجهيز أتباعه، وعين رؤساء للجند وضباطاً يقودون كتائب، أو فرقاً تتكون من ألف مقاتل وسرايا من مائة وفصائل من خمسين وجماعات من عشرة، كما ثبت حراساً على الأبواب و مدخل كل الممرات المؤدية إلى الجبال.

وخرج رجل يدعى "سودة"، فعاهد كل عرب ميافرقاط على أن يأتهم برعوس كل عظماء الجبل، وأن يلقي بالآخرين فى السجن. بعد أن قطع معهم هذا العهد خرج فى قوة عظيمة، وتقدم أهل الجبل كما لو كانوا يطلبون السلم. عندما علم هؤلاء بحيلته الخادعة انتقضوا عليه فجأة وقتلوا عدداً كبيراً ممن معه، أما الباقون فقد ولوا الأديار، وهربوا بفضل جيادهم ودخلوا المدينة. منذ ذلك الوقت حدث لهم شقاء كبير.

اتفق العرب والمسيحيون وقرروا عزل الحاكم الذى كان يقم منذ عامين فى قلعة كليب، وقد رفضوا الخضوع له وثاروا ضده، وطلبوا منه أن ينزل من القلعة وأن يستسلم وإلا فتكوا به. لقد قرر العرب أن ينزلوه من هناك خوفاً من أن يلجأ إلى أهل الجبل، كما طالبه السوريون بمغادرة المنطقة خوفاً من خيائته لهم، ولكنه رفض مطلب الفريقين، فقام بقيادة مجموعة من الرجال الأشرار، ونزل على رأس تلك القوات ودمر القرى وحملهم إلى القلعة، كما ارتكب كل أنواع الفظائع الوحشية هو وقواته، وقام بأسر كل السكان واستولى على كل ما يملكون.

بينما كان هؤلاء الرجال ينزلون بأهالي المدينة أقصى ألوان العذاب أرسل هؤلاء إلى يوحنا سرّاً: "أسرع لنجدتنا وإلا أخذونا أسرى". عندما علم يوحنا بما يقاسيه إخواته عجل بإتخاذ قواته. وفي الليل حاصر يوحنا القرية التي كانوا بها، وأرسل إليهم ينذرهم بالخروج من القرية وأن يرحلوا بسلام، ولكن القائد رفض وخرج على رأس قواته مسلحين للقضاء على يوحنا وقواته، فانقض عليهم يوحنا وأبادهم جميعاً. لقد جلب عليه الرب الشر الذي كان قد اقترفه، وقذف به أمام يوحنا وقضى عليه.

كان يوجد أيضاً في الجبل أحد البارزين ويدعى "أسطفان بن بولس" من أبناء الجبل، وهو رجل مجرم ومخادع. لقد نقض العهد الذي أبرمه مع يوحنا، فكان يحكي له المؤامرات. كان ينوي أن يسلمه إلى العرب، فأرسل إلى القوات العربية، فجاء إليه "عوف" مع قوة كبيرة من القرية المسماة حزرو،^(١٩٦) واتفق معهم سرّاً على حضور يوحنا لتسليمه. لقد تصرف فعلاً هكذا، ولكن الرب لم يدع المجرم ينفذ خطته. إن المؤامرة التي دبروها ضد الرجل البريء حلت على رموسهم، فملأوا الخندق بجثث الذين حفروا، وأدخلوا "عوفاً" مع اثنين من زملائه في منزله وخبأهم في حجرة، واتفق معهم على أنه عند حضور يوحنا سيقوم بإدخاله إلى المنزل، وعندئذ يخرجون من مخبئهم ويقتلونه، كما وضع أيضاً القوات في كمين عند قرية حزرو وأرسل بذلك فوراً، ليقول ليوحنا: "تعال سريعاً ولا تتأخر، لتسرى ما يجب أن نفعله، لأن القوات تحاصرنا من كل جانب". فذهب يوحنا الأمين مسرعاً كالحمل الوديع لا يرتاب في شيء، ولما كان على وشك دخول المنزل، حيث نصب له الفخ، وجد هناك وفقاً للإرادة الإلهية رجلاً مؤمناً يخشى الله، كان قد علم بالخطأ فأخبره بالخيانة، فعاد أدراجه سريعاً. وبينما كان هؤلاء ينتظرون وصوله لتنفيذ خطتهم أرسل قوة وحاصرتهم من كل جانب، لم ينج منهم أحد، بل

(١٩٦) أضيف هذا الاسم في مخطوطة. وحزرو بلدة تقع في الغرب، على بعد ٢٠ كم من ميافارقلاط، في طريق آمد.

وقعوا جميعا فريسة للحراب. لم يعلم "أسطفان" بهذا الأمر ولا حتى عوف قائد القوات، ولكن عندما علما بما حدث ازملاتهم امتطيا جوازيهما اللذين كانا معهما وعزما على الهروب، ولكن محاولتهما باءت بالفشل، لأن بعض الفرسان للمهرة اقتفوا أثر عوف، فأدركوه هو ورجاله وقتلوهم بحد السيف. أما عن أسطفان فعندما رأى أن خديعته وأن خديعة الشيطان والده قد انكشفت أصابه الخوف والرهبة وولى الأديبار، فقد كتبت له النجاة، فلجأ إلى المدينة ولم يذهب أبدا إلى الجبل.

ومنذ ذلك الوقت تضاعف العذاب. وقد استنبت سكان الجبال مع العرب واستمروا في القتال يوميا دون توقف، وقد استولى أهل الجبل على المضائق، ولم يُشاهد عربى واحد في الجبل، ولكن ثمة عقبة أخرى واجهتهم من الداخل.

كان هناك شخص من أرتيا^(١٩٧) يدعى جريجوريوس، خرج عليهم بقوة كبيرة وهاجم سكان شاطئ حران وقتل منهم عددا كبيرا، وعمد إلى تشويه من بقي حيًا، حيث قطع أيدي فئة وجدع أنوف وأذنان فئة أخرى وفئة ثالثة كحلهم بالنار. أما سكان جبل صهيا^(١٩٨) فقد سيطروا على أنفسهم وتبعوا يوحنا.

وفي البلاد الشرقية التحق بريكة بجناح الحاروريت، وفي منطقة لارها ثار أيضا عبد الله بن البخترى، وألحق الأذى بعدد كبير من البشر وخاصة بيت معدى، حيث قبض على عظاماتهم وشواهم كالأسمك على النار. وفي سبيل الحصول على الذهب قتل وأسر وأهلك كثيرا من الناس، لقد هدم كل معابد منطقة لارها وحران وثلا، واستولى على كل ثرواتها، وأهلك كل أشرافهم شيئا بالنار. وإليك الأديرة التي أبادها مع عدد كبير من القرى: دير قويا^(١٩٩) ودير رشمات في طبشة،

(١٩٧) بلدة تقع في مقاطعة "فنزيط" في جنوب أرمينيا. WRIGHT: JOSUE LE STYLITE P. 28.
(١٩٨) جبل صهيا، أي جبل "أريد". اسم علم لمنطقة على نهر دجلة. هذا الاسم يشمل أيضا بوجسه عام="المنطقة الجنوبية من طوروس التي تقع على حدود "أرزون" و"ميافرقاط" و"أمد" و"فنزيط"

و"ميساط". ASSEMANI: BIBL. OR. . I. 249.
(١٩٩) دير قويا أو دير القتب، في لحف جبل لارها جنوبى بيعة مار قزما. أنشئ لأول القرن الخامس، ودمره ابن البخترى عام ٧٥١م، وأعيد بناؤه فخرج ثلاثة أساقفة حتى عام ٨٧٣م. (أغناطيوس أفرام الأول: اللؤلؤ المنثور ص ٥١٣)

ودير القطرة،^(٢٠٠) ودير حسمى العظيم، ودير مار لعازر في بيت معدي، ودير مار هابيل،^(٢٠١) ودير مار ميلس، ودير سنين،^(٢٠٢) وقرى كثيرة.

لقد صلب هذا الكافر جام غضبه على الأديرة، وكان للشيطان قد وجه حقه تجاه الكنائس، كما كان دائم التهديد لأديرة الشرق والشمال، لكي يرضى حقد الأب الشيطان ويحقق انتقامه.

عن فصول الشتاء الثلاثة المتتالية قارسة البرودة، وعن الثلج الكثيف الذي سقط في تلك الفترة، وعن إبادة المواشي والحيوانات والطيور التي نفقت بسبب الصقيع الشديد

في نفس هذا العام الذي كانت به الفترة سقط ثلج غزير وكثيف تراكم على الأرض، حتى وصل سمكه إلى خمسة أشتبار،^(٢٠٣) وظل على السطح لمدة تسعين يوما، أما في السهول فقد استمر لمدة سبعين يوما، حتى إن البشر جميعا كانوا على شفا حفرة من الهلاك. إن كثيرين من أصحاب الدواب وأصحاب القمح، بعد أن استنفدوا الخزين المعد لتغذية الحيوانات، لجأوا إلى أخذ القمح المعد لغذائهم وأعطوه للحيوانات لإنقاذها من الموت جوعا. ولكن القمح لم يكف لإنقاذ المواشي، فنفتت كالجراد، حتى لحومها لم يستطع أحد من البشر أن يأكلها. حدث برد وجليد وثلج وصقيع شديد، وخيم الظلام على الأرض لمدة أيام، وكان حالكا دامسا، حتى إن الفرد كان يرى بصعوبة شديدة موطئ قدمه. وقد تركز الظلام على الأشجار

(٢٠٠) دير القطرة أو الناطف دير صغير قديم بالقرب من أمد، منقور في الصخر، شيكه في صدر جبل مطل على دير الزعفران. حوى رهطا من النساء، وتوالت عندنا أخباره منذ القرن الرابع عشر، ورئيسه أسقف أحيقا. ينسب إليه أريمة لسقفية. (أغناطيوس أفرام الأول: اللاذلو ص ٥١٧)
(٢٠١) مار هابيل قرية في كورة "سمرت" ليست عامرة. (أغناطيوس أفرام الأول: اللاذلو ص ٥١٦)
(٢٠٢) دير سنين أو سنون يقع بالقرب من الرها، وذكر على ٥١٢ و ٥٦٥ م. خربه "عبد الله بن البخترى" عام ٧٥١ م. (أغناطيوس أفرام الأول: اللاذلو ص ٥١٦).
(٢٠٣) الشير مقيلس روماني قديم بمسافة راحة اليد.

والكروم وأشجار الزيتون والحدائق مثل الثلج حتى أفسدها، ولم يكن هناك أدنى شيء مهما صغر لم يصب من شدة الجليد والصقيع، وتجمدت مياه الأنهار حتى إن الجياد كانت تستطيع عبورها دون أن يشقق للثلج تحتها، وتجمد أيضا نهر دجلة، وقد تمكنت قافلة كبيرة من الجمال من عبوره دون أن يذوب الثلج تحت حوافرها. كل حيوانات الحقول وطيور السماء هلك. وهكذا كان الثلج والبرد والصقيع مع الكمائن والفتنة والمرضى والطاعون، واستمر كل ذلك لمدة ثلاث سنوات متتالية، حتى أشرفت كل المنطقة الشمالية على الهلاك.

عن المجاعة التي حدثت في تلك السنوات، وعن غزو شعب أرمينيا والأويغور لسوريا

لقد تراكم الثلج على كل الأرض لعدة أيام، وبمرور الوقت لم يظهر سطح الأرض. كل ما كان مزروعا تعفن وفسد تحت الثلج وتبيس من شدة الصقيع، وعندما اختفى الثلج لم ينبت شيء فيما عدا الحشائش الفاسدة والأشواك، وهكذا طبق علينا هذا القول النبوي: (وقال لأنهم لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلا لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك، بالتعجب تأكل منها كل أيام حياتك. وشوكا وحسكا تنبت لك وتأكل عشب الحقل)،^(٢٠٤) وأيضا: (زرعوا حنطة وحصدوا شوكا، أعيروا ولم ينتفعوا بل خزوا من غلاتكم من حمو غضب الرب).^(٢٠٥)

إن الأرض أنبتت لنا شوكا عليقا وحشائش فاسدة، وبدلا من القمح نبت لنا الشيلم، وبدلا من الشعير حشائش فاسدة، وبدلا من الفول نبت لنا عدس وحمص وأشواك. وإذا حدث أن نبت أي شيء أو حتى كبر فإن الرطوبة والهواء الساخن

(٢٠٤) العهد القديم: التكوين ٣: ١٨/١٧.

(٢٠٥) العهد القديم: إرميا ١٢: ١٣.

يهيطن عليه ويهدمائه. ما كان ينجو من البرد والصقيع والهواء الساخن كانت تقضى عليه الأرقعة^(٢٠٦) وسوس القمح، حتى إنك إذا أخذت عشر سنابل وسحقتها بين يديك لاتجد بها ولا حبة قمح واحدة. وأيضا بسبب الهواء الساخن، كثير من الحقول تركت دون أن تُحصد، حتى ولو كان الحقل لونه ذهبى وفي هيئة تسر الناظرين، وذلك لأن السم الذى سقط عليه كان أحمر، وقد استقر على الأشجار كالصقيع فى أيام الشتاء، فلذلك تغير لون القمح إلى اللون الأحمر.

بخصوص تلك الأشياء نادى علينا النبى عاموس بقوله: (ضربتكم باللفح والبرقان، كثيرا ما أكل القمح جناكم وكرومكم وتينكم وزيتونكم فلم ترجعوا إلى، يقول الرب. أرسلت بينكم وبأ على طريقة مصر، قتل بالسيف فتياتكم مع سبى خيلكم وأصعدت نتن محالكم حتى إلى أنوفكم فلم ترجعوا إلى، يقول الرب).^(٢٠٧) فى ذلك العام كان القمح يباع بدينار، ووصل إلى سبعة أقدرة بدينار.

عن سوس القمح والأرق التى لردحت بها الأرض فى تلك السنوات

عندما اقتربت أيام الحصاد وكان الجميع ينتظرون المحصول ظهر عدد كبير من الحشرات، وانقض على القمح وعلى كل الشعير وعلى كل الأعشاب. لم يظهر المكان الذى أبعد ولكن كل السنابل التى وقفت عليها الحشرات هلكت، ولما كان القمح على وشك النضج لم يلبث أن ييس ولم يبق فيه شيء سوى القشرة. لقد وصفه الخبراء بأن تلك الحشرة كانت تمتص المادة الحيوية من السنابل مما يفقدها قوتها، ولم تثبت أن تغير لونها.

(٢٠٦) الأرق: جنس حشرات صلبة.

(٢٠٧) العهد القديم: عاموس ٤: ١٠/٩

كان يطلق على هذه الحشرات اسم سوس القمح وأرقه، لأنهما لم تكونا تنتميان إلى جنس واحد ولا نوع واحد. الذي كان يسمى سوس القمح كان مستديرا ومتعدد الألوان، أما الأرقه فكانت مستديرة أيضا ولكن صغيرة، لها مهبم طويل مثل منك الذبابة ومنك للنمرة^(٢٠٨) وبها بقع بعدة ألوان.

وفقا لرأى الحكماء فتبا هي نفسها للكارثة التي أرسلها موسى قديما إلى المصريين وهي الجندب^(٢٠٩) والجراد وجحافل الحشرات. إن هذه الآفة لاتصيب شيئا إلا القمح. كانت تلك الحشرات تتسلق سيقان القمح والشعير، وتلتهم كل ما يصادفها من الأوراق بدءا من الجذر حتى القمة.

عن الجندب

كان هناك أيضا عدد كبير من الجنادب التي أتلقت للكروم والأشجار وكل الثمار، لم نجد مكانا للسير عليه وذلك لكثرتها. كانت تلك الحشرة منتشرة في كل مكان، وذلك لأن الأرض نفسها هي التي لفظتها وأخرجتها فأفسدت الكروم والأشجار والثمار والزرع وكل ما يحقق فائدة للبشر.

عن الجراد

إنه مكتوب في الأنبياء: (أسلم للجورم غلتهم وتعبهم للجراد)،^(٢١٠) التي هي جرادة مزودة بأرجل وليس لها أجنحة للطيران أو للتقل، وكان ضررها أكثر إيذاء وأقطع وقعا من مقارع الغضب. لقد قيل عن الأرق: لو سقط على هري قمح

(٢٠٨) النمرة ذبابة كبيرة تلسع أنثاها الإنسان والحيوان وتمتص دمه.

(٢٠٩) الجندب حشرة صغيرة من جنس الجراد، وقد ورد ذكرها في الكتاب المقدس ضمن ما يؤكل. (قاموس الكتاب المقدس، عن مجمع الكنائس في الشرق الأدنى ص ٢٧٥)

(٢١٠) العهد القديم: المزمير ٧٨: ٤٦.

سيقضى عليه". لقد ثبت هذا فعلاً، لأنه عندما كانت تهبط على حقل ملىء وعلى وشك الحصاد، فى هذه الحالة يعتبر القمح ضائعاً. كانت السنابل تشاهد فى الظاهر مليئة وجميلة ومنفتحة، ولكن عند دمسها نجد جوفها خاوياً وقد تحول ما بداخله إلى دقيق، فإذا حولنا زرع هذا القمح فإنه لا ينبت أبداً لأنه فاسد.

إن المنطقة السفلى لم تستثن من تلك الكارثة. الأرض كلها أنتجت الجراد الذى انتشر وأفسد الزرع والكروم والحدائق والأشجار وكل عشب أخضر. إن النبوة التى نقوه بها النبى بونيل قد تحققت فينا: (اسمعوا هذا أيها الشيوخ وأصغوا يا جميع سكان الأرض، هل حدث هذا فى أيامكم أو فى أيام آبائكم؟ أخبروا بنيكم عنه وبنوكم بنبيهم وبنوهم دوراً آخر. فضلة القمح أكلها الزحاف وفضلة الزحاف أكلها الغوغاء وفضلة الغوغاء أكلها الطيار).^(٢١١) لقد حدث لنا أسوأ مما جاء فى النبوة نفسها. إن الثلج والصقيع أهلكا كل الأشجار وكل الذى نجا من الهلاك أتى به القيق والجنادب والأبرة وجحافل الحشرات حتى إن المجاعة اشتدت على البشر بأقصى درجة. بدأ القمح يتناقص فى الأجران حتى وصل سعر الجريب الواحد إلى دينار وأحياناً سبعة أقدرة بدينار ولا يوجد.

عن شعب أرمينيا والأويغور الذين غزوا سوريا
بسبب المجاعة، وعن العوى والبثور والطاعون
ومختلف الأمراض التى انتشرت فى البلاد عند وصولهم

لقد أنزل الرب أضراراً فادحة على القمح وعلى الشعير وعلى الكروم وعلى ما من شأنه أن يقيم حياة الإنسان، وذلك بسبب المصائب والآثام التى تقترفها فى الدنيا كل يوم. لقد اشتدت المجاعة فى كل البلاد وخاصة فى أرمينيا وبلاد الأويغور، وذلك لأن كل محاصيلهم قد هلكت ولم يبق لديهم شيء يتعيشون منه، أى عندما

(٢١١) العهد القديم: يونس ١: ٤/٣.

يريد الرب فإنه يجففه بالبرودة وعندما يريد مرة أخرى يجففه بالحر، إذن فهذا قد جف بالبرد.

كل أهالي أرمينيا هاجروا هروبا من المجاعة التي حلت بهم، وخرجوا وغزوا سوريا خشية الموت جوعا هم وأولادهم، ولكن لم ينج أحد من هذه الكارثة: (لذلك هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: هاأنذا أطعم هذا الشعب أنفسهم وأسقيهم ماء العلقم. وأبددهم في أمم لم يعرفوها هم ولا آبائهم وأطلق وراءهم السيف حتى أفنيهم).^(٢١٢) إن الروح القدس قالت هذه الأشياء، وقد تحققت جميعها فيما بينهم. لقد خرجوا وملأوا البلاد كلها المدن والأديرة والقرى والحقول، لقد باعوا كل ما يمتلكون ليشتروا خبزا فكان ذلك سببا في انتشار المجاعة في المنطقة كلها.

لقد نفشى فيهم أولا مرض القروح ثم الدوسنتريا ثم الطفح الجلدي، وكثيرا ما كنا نجدهم يتسكعون عند البوابات والأبنية والكنائس والأبراج وفي كل مكان. وقد تمكن منهم أيضا الطاعون، فراح ضحيته عدد كبير حتى إنه لم يتبق هناك بشر لدفنهم. كانت يد العرب تتابعهم حيثما ذهبوا لتنزل بهم الغضب. إن كارثة المجاعة والقروح والطفح الجلدي انتقلت أيضا إلى السوريين وقضت على الكثيرين منهم، ولكن عدد ضحايا الجوع كان أكثر من ضحايا الأمراض. لقد مات في ذلك العام في ديرنا بمنطقة زوقنين بسبب الطفح الجلدي ثلثان وأربعون رجلا من البلدة فضلا عن الأجانب. هذا المرض والطاعون اشتد في كل مكان.

عام ١٠٦٣ يونانية (٧٥٢-٧٥٣م) عاد الفرس^(٢١٣) إلى البلاد بقوات غفيرة، لقد قضوا على كل من أراد التصدي لهم، وأوقعوا كثيرا من الأذى بعرب الموصل والرقفة، وكذلك قتلوا الشيب والشمبان.

(٢١٢) العهد القديم: إرميا ٩: ١٦/١٥.

(٢١٣) يقصد بالفرس العباسيين الذين بدأ حكمهم عام ٧٥٠م. لقد أطلق عليهم "توفان" اسم "خراسانيين" و"أصحاب الرداء الأسود". هذه الأسماء كانت بدليتها في خراسان، أي فارس الشرقية، حيث شار العباسيون ضد الأمويين، وقد ارتكوا الملابس السوداء، لكي يكونوا مميزين عن بقية الأهالي ولكي يتعرفوا على أتباعهم وأنصارهم.

قام عبد الله بن محمد^(٢١٤) شقيق ملك الفرس بمهاجمة بركة بجوار دارا وهزمه، ففر بركة هاربا، ولما سمع عبد الله بكل الأضرار التي ألحقها عرب ميافرقاط بالسوريين في بلادهم، وأيضا ما قام به السوريون، أرسل رسلا إلى يوحنا، وعلى الفور اتجه يوحنا إلى حران حيث استقبله عبد الله بسرور وبحفاوة بالغة، وأكرمه ووهبه هبات كثيرة، وعينه رئيسا لبلدته وأرسله إلى هناك.

ذهب صالح بن صباح^(٢١٥) إلى أرمينيا حيث لمع نجمه هناك، فأخذ رهائن من كل الجبل وتحفظ عليهم في ميافرقاط للقاء عبد الله قبل عودة يوحنا إلى حران، فجاء يوحنا ومعه رسالة تقضى بتسليمه الرهائن. وعند وصوله قام صالح بإطلاق سراح كل النساء من بين المتحفظ عليهم، ولكن لأن عرب ميافرقاط قد أغدقوا على صالح الهدايا لكي ينتقم لهم من يوحنا ومن أعوانه كان يؤجل ذلك قائلا: "اليوم أو غدا سأرسل بالباقيين". لقد ظلوا هكذا فترة طويلة، حتى تمكنت منهم مختلف الأمراض، وكثير منهم ماتوا في السجون. استمر يؤجل إطلاق سراحهم لفترة طويلة، لأنه كان يتحين الفرصة لكي يقتلهم ويقتل يوحنا وبذلك يدخل السرور على قلوب عرب ميافرقاط. قام يوحنا بإرسال رسل إلى عبد الله الذي كان واليا على الجزيرة، مستجدا به. وفي صباح نفس اليوم الذي عزم فيه صالح على صلب يوحنا وصل رسول من عبد الله وأخرجه من السجن، وذهب إلى حران مع أسطفان بن بولس^(٢١٦). لقد أنزل للرب على رأس أسطفان كل ما كان قد اقترفيه من أذى، فضربه وقضى عليه هناك، وعندئذ أرسل يوحنا رسالة أفرج فيها فورا عن كل من كان محبوسا رهينة لدى صالح.

(٢١٤) هو عبد الله بن محمد الإمام بن علي بن عبد الله بن العيس، المعروف بالخليفة المنصور. بويع له بالخلافة سنة سبع وثلاثين ومائة. (ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ١٢٥)

(٢١٥) يبدو أن هذا الشخص هو "صالح بن علي"، من سلالة العيس، وعم المفاج والمنصور. عينه ابن أخيه حاكما على سوريا عام ١٢٧هـ (٧٥٤-٧٥٥م). قتل صالح في حلب وتوفي عام ١٥٢هـ (٧٦٩م). LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE TXII. P.252 No2

(٢١٦) أسطفان بن بولس الذي خلقه زكريا، توفي يوم ٢٤ مايو عام ٧٥٢م.

LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE TXII. P.208.

عام ١٠٦١ يونانية (٧٤٩-٧٥٠م)^(٢١٧) جاء قسطنطين^(٢١٨) إمبراطور الرومان في قوات غفيرة، وقام بتدمير ملطية وخربها وطردها أهلها، ولكنه لم يقتل أحدا ولم يستول على شيء، بل اكتفى بإخراجهم وطردهم منها. فساروا إلى الجزيرة فهدم سورها وحرق منازلها، وعاد بقواته من حيث أتوا.

عام ١٠٦٤ يونانية (٧٥٢-٧٥٣م)^(٢١٩) قام القرس بهدم البلاد، ولكنهم عادوا مرة ثانية فاحتلوا المدينة ومواقعها الحصينة، وفرضوا سيطرتهم وحكمهم عليها. لقد أمر ملكهم بهدم كل أسوار المدن السورية، فجمعوا عمالا وفنيين بأعداد كبيرة، فحطموا الأسوار وأحرقوا كل الأبواب، واستولوا على كل اللخاس والحديد الموجود. دمروا وسحقوا كل ما خلفه الملوك والحكام وأنفقوا عليه أموالا طائلة لاستخدامه في صد الأعداء، وقد تحقق فيهم قول إرميا: (هكذا قال رب الجنود: إن أسوار بابل العريضة تدمر تدميرا وأبوابها الشامخة تحرق بالنار فتتعب الشعوب للباطل والقبائل للنار حتى تعيا)^(٢٢٠) وقال أيضا: (قصد الرب أن يهلك سور بنت صهيون، مد للمطمار، لم يزد يده عن الإهلاك وجعل المترسة والسور ينوحان، قد حزنا معا).^(٢٢١) فليحضر الآن النبي إرميا وليبكر، ليس فقط على مدينة صهيون فحسب التي هدمت أسوارها، ولكن أيضا على كل مدن الجزيرة والشرق. وقد تحدث عزرا الناسخ أيضا عن هدم الأسوار وعن هذا الشعبان السام الأرقط الذي دمرها، فسوف يدمر الأسوار التي لم تشفق عليه.

عام ١٠٦٥ يونانية (٧٥٣-٧٥٤م) نهب كوشان^(٢٢٢) كل المنطقة الشمالية. كان هذا الرجل أرمني الأصل ينتسب إلى أرمينيا الرابعة. بعد هزيمة مروان

(٢١٧) هنا رجوع بالتاريخ والأحداث.

(٢١٨) هو قسطنطين الخامس (٧٤٠-٧٧٥م). في عام ٧٥١م هاجم بصلة على حدود العرب في أرمينية، فاستولى على أرضروم وملطية. (لند رستم: القرون ج ١ ص ٢٩٤)

(٢١٩) الرجوع بالأحداث والتواريخ إلى التسلسل.

(٢٢٠) العهد القديم: إرميا ٥١: ٥٨.

(٢٢١) العهد القديم: سرائي إرميا ٢: ٨.

(٢٢٢) في عام ٧٥٢م هاجم كوشان أمير الجزيرة، الذي كان يحكم أيضا أرمينيا. جمع قوات أرمينية وألبيرية وانقض على المنطقة الشمالية، وكانت القوات الرومانية مراقبة على الحدود، فتأقت الأمر بالانضمام إليه فهاجم واستولى على ملطية.

LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T XII P. 209.

وفراره استولى على ممتلكاته وأسر عائلته ودخل بلاد الرومان، ونظرا لما أبداه من شجاعة وجرأة فقد نصبه قسطنطين قائداً، فخرج في هذا العام على رأس قوة كبيرة ونزل عند جبل صيبا. لقد أسر وسلب ونهب فلاحى تلك المنطقة، إذ استولى على ثرواتهم وكل ما يملكون، ولم يدع لهم شيئا سوى حياتهم. وبعد أن حمل معه كل ما وقعت عليه يده عاد إلى بلاد الرومان.

عام ١٠٦٦ يونانية (٧٥٤-٧٥٦م) عاد كوشان الأرمنى لغزو هنزيط بقوات غفيرة من الرومان وأهل أور. عندما علم عكى أمير الجزيرة فى ذلك الوقت جمع قوة كبيرة من الفرس والعرب، ونصب ابنه قائدا عليها وسيروا لملاقاة كوشان، فتقدم بكل ما فى الشباب من حيوية وإقدام، والتقى الفريقان. ولكن نظرا لأنه استهان بعدوه، ولما يقتضيه عليه الشباب من تهور واتدفاع، ولعدم درايته الكافية بإدارة المعارك، ولأنه لم يكن بأبه بالمشورة، فقد جاءت نتيجة المعركة وبالا عليه.

كان قدامى المحاربين الذين عركتهم الحروب وأكسبتهم المعارك خبرة وحكمة، كانوا يصرفونه عما اعتزم الإقدام عليه، وينصحهون بالتريث وعدم العجلة فى مقاتلة كوشان. كانوا يقولون إن كوشان رجل متمرس على فنون الحرب صعب المراس، لا يسلم لعدوه بسهولة، فضلا عن أنه على دراية تامة بالبلاد وتضاريسها، لأنه ولد ونشأ وترعرع على أرضها. ولكنه لم يعأ بما قدمه له قدامى المحاربين من نصيح. وكان "رحبعام" الجديد شابا أحمق متهورا، يعمد إلى تلبية رغبات ملك العرب والشبان المحيطين به والذين فى مثل سنه. وبسبب هذا التتعجل فى الأمور لتحقيق شهرة واسعة، إذا به يجلب على نفسه العار والاحتقار فى أعين كثير من الأجيال الجديدة.

كان يتقدم بخطوات سريعة، لأنه كان يريد أن ينقض فجأة على كوشان، وأن يمحو أثره من الوجود هو ومن معه، وأن يأسر الباقين وينهب ويخرب، ثم يعود متوجا بإكليل النصر. عندما رأى كوشان تهوره ورعوفته وثب عليه وسخر منه هازنا ووضع يده على رأسه قاتلا: (هذا هو اليوم الذى صنعه العرب، نستهج ونفرح فيه).^(٢٢٣)

(٢٢٣) العهد القديم: الملأير ١١٨: ٢٤.

عندما نشبت الحرب وبدأ القتلى يتساقطون من الجانبين بذل كوشان مجهودا عظيما في محاربة الفرس الذين فروا من أمامه. لقد سقط عدد كبير منهم بحد السيف، وأسر كوشان الكثيرين، ثم سلب ونهب ممتلكات القتلى وثرواتهم. وقد هرب "ابن عكى" ممطيا صهوة جواده، وأسلم ساقبه للريح تاركا قواته وعتاده شنيمة للرومان، فيما عدا فئة قليلة من الفرسان الذين تمكنوا من الفرار بأنفسهم، مخلفين وراءهم كل عدتهم وعتادهم، ولم ينج من القتل غير هؤلاء.

بينما كان هذا الشاب في عجلة من أمره لتحقيق الشهرة والنصر جلب على نفسه وعلى أسرته العار والخجل والازدراء، وحينما كان يمني نفسه بأن ينهب ويخرب ويأسر العديد نهبت قواته وتم أسرها، كما تم الإلقاء بها في غياهب السجون.

في تلك الفترة برز من بين الصلاومة الأرثوذكس المشهورين في الكنيسة القديس مار يوحنا بطريرك أنطاكية، والقديس مار ميخائيل بطريرك الإسكندرية الكبرى، والقديس مار تيموتاوس أسقف الزها، وقسطنطين أسقف سميساط، وديونسيوس أسقف حران، وسرجون أسقف ماردين، ودلود أسقف دارا الذي أصبح فيما بعد بطريركا. كما اشتهر في ميافرقاط أنثاسيوس المسمى صندلايا، والذي قام ببناء دير عظيم فوق تل بشم (تل بسما)^(٢٢٤) أطلق عليه اسم دير مار أنثاسيوس، وهو الذي أصبح أيضا فيما بعد بطريركا، وفي آمد لمع اسم القديس مار أبا من دير مار حبيب من أرزنين، كما برز القديس مار ساويرس الذي سبق الحديث عنه أنفا من دير زوقنين، والذي خلع في حياته من حكم تلك المدينة، لأنه كان ضعيف البصر ولا يرى جيدا، وقد نصب مار أبا خلف له.

في تلك الفترة كان من المشهورين أيضا يوحنا أسقف الرقة الذي أحدث اضطرابات في الكنيسة سوف نتناولها فيما بعد. وقد جاء خلفا للقديس مار يوحنا

(٢٢٤) تل بشم أو تل بسما بلد من نواحي ديار ربيعة من ناحية سجستان شمال غربي ماردين. (أغناطيوس أفرام الأول: الأول: المنشور ص ٥٠٥)

بطريك أنطاكية راهب يدعى إسحاق من دير قرتمين.^(٢٢٥) وقد أقام في الرها، وحيث إنه كان عاكفا على علم الكيمياء لاستخلاص الذهب والفضة فقد حصل على صداقة عبد الله أمير الجزيرة الذي آل إليه ملك العراق فيما بعد. ولما كان الأمير يريد أن يظهر له اعتزاله بصداقته فقد اختاره بطريركا لأنطاكية بعد القديس مار يوحنا.

ولكن المناصب المكتسبة بلا شرعية تكون دائما وبالا على صاحبها، فقد رفع الأمير صديقه عاليًا ثم لم يلبث أن شنقه مثل يهوذا. إن إسحاق لم يستقبل بحفاوة كبيرة من الشعب، ولم يستمر حكمه طويلا، لأنه لم يأت عن الطريق المشروع، فقد رفعه صديقه ثم هوى به وقتله ولم ندر ماذا حدث لجنته. لم يكن حتى جذيرا بأن يقوم أحد بإبداع جنته مثواها الأخير. تلك هي عادة الشيطان في مكافأة الذين يقتنون أثره في هذا العالم.

إن مار أنطاسيوس السندلي^(٢٢٦) أسقف ميافرقاط المحترم جاء خلفا لإسحاق، ولكنه أيضا لم تطل أيامه لأنه هلك فجأة ووافاه الأجل. لقد ادعى البعض معرفة طريقة موته، وادعى آخرون معرفتهم طريقة أخرى، أما نحن فلا نعطي أنفسنا الحق في أن نتناول أمورًا خفية، وإنما نترك الأمر للرب الذي يعلم حقيقة الأمور وأسرارها، وقد أخذناه وحملناه من حران إلى دير حيث دفن فيه. وجاء خلفا له القديس مار جورجيوس من دير قسرين المقدس.^(٢٢٧)

(٢٢٥) دير قرتمين من أشهر ديارت طور عيدين شرقي مدينتي وهرب ماردين، شيد عام ٣٩٧م. (نخيرة الأذهان في تواريخ المغاربة والمشرقة السريان، الموصل ١٩٠٥ ج ١ ص ٣٧٠)

(٢٢٦) أسقف الرقة. وقد فاض ميخائيل الكبير في الكلام عن تعيين بسحق بطريركا وعن السندلي والبطريك يوتيس. (تاريخ ميخائيل السرياني الكبير ٢٥٠)

(٢٢٧) من أشهر الأديرة عند اليسوعية. كان يقع بجوار بلدة بهذا الاسم على مسافة يوم جنوب حلب، وكان هذا الدير معروفًا أيضا باسم كبير توما الرسول، وقد أنشئ حوالي عام ٥٢٠م، وفاضت شهرته حتى القرن التاسع، وحوى أقيم عمارته ثلاثمائة وسبعين رادبا. أحرقه بعض الخوارج لرمسه "ديونيسيوس التلمحري" وأعادته سيرته الأولى عام ٨٢٢م، وظل عامرا حتى صدر المائة الثالثة عشرة. (أنطالطوس أنعام الأول: اللازق المنثور ص ٥١٣)

عن اجتماع السينودوس لانتخاب جورجوس بطريركا لأنطاكية
فى مبوج - مدينة على نهر الفرات - فى كنيسة مار توما الرسول
المقامة خارج البلدة

إن المشاكل العديدة التى ترتبت على انتخاب البطريرك إسحاق وأيضاً
البطريرك أثناسيوس صندلاى أفلقت المؤمنين، وأغضبت الكثيرين من أبناء
الكنيسة، وخاصة أن هذين البطريركين كانا مفروضين عليهم من قبل الأمير
الطاغية، وأيضاً لأسباب أخرى لا ترى داعياً لعرضها فى هذا الكتاب.

بعد وفاة أثناسيوس المحترم أراد كل رهبان الكنيسة المقدسة أن يختاروا من
بينهم رئيساً، قبل أن ييث الشيطان بينهم بنور حب السيادة، ويقعوا فى أبهى
الطاغية القوية، خشية من أن نكون النهاية أسوأ من البداية ولأن الانقسام والفتنة
والاضطراب فى أيامهم قد دبت فى الكنيسة المقدسة آنذاك، غير أنه حدث كما قال
الحق: (لأنى ارتعابا ارتعبت فالتقى والذي فزعت منه جاء على).^(٢٢٨)

لم يسد السلام ولا الهدوء، ولكن الاضطراب الذى كانوا يخشونه لم يلبث أن
وقع بينهم. إن جميع رهبان الموصل والجزيرة والشرق لم يكن لديهم سوى رغبة
واحدة، لقد أجمعوا على فكرة واحدة وبإجماع منهم واتفاق تام. فقد اجتمع كل
الرهبان مع نبلأ ومؤمنى مدينة مبوج فى كنيسة مار توما.^(٢٢٩) واستمر الاجتماع
يوماً أو يومين، وتشاوروا فيما بينهم حول عدد من الشخصيات، ودار بينهم نقاش
حاد وطويل بين مؤيد ومعارض.

(٢٢٨) العهد القديم: أيوب ٣: ٢٥.

(٢٢٩) أقام النصارى كنيسة أو بيعة مار توما، وهى من البيع العظيمة. وقد حاول قوم من السوقة نهبها
عام ٣٩٢هـ (١٠٠٢م). ولما أضرموا النار فيها سقطت على رؤوسهم وذلك تحت أنقاضها جمع
من الرجال والنساء والأطفال. وقبر فى هذه الكنيسة يحيى بن عدى الكرمنى المتوفى عام ٩٧٥م.
(ابن العبري: التاريخ الكنسى ج ٣ ص ٢٦٧)

كان هناك رجل من بعلتان^(٢٣٠) من دير قنسرين المقدس، كان يعيش بينهم في سلام، وكان مشهوراً بينهم بأعماله التي تقوم على تقوى الله. كان رجلاً معروفاً بارزاً متحلياً بكل الفضائل، وكان يدعى جورجوس. لقد تلقى أمراً في أبرشيته اتفقت الآراء عليه، وبنفس الرغبة والإرادة وقع لاختيارهم على انتخاب هذا الرجل، ولكنه كان قد أبعد فاختاروا من بينهم على الفور عدداً من الرجال الأفاضل، وأرسلوهم لاستقلامه إليهم. وعندما وصل تقدم الجميع إليه وعبروا له عن رغبتهم، فكتبوا وثيقة برغبتهم وقدموها إليه بعد أن وقع عليها عظماءهم: يوحنا من الرقة، وثيموثاوس من الرها، ودلود من دارا، وأبنا من آمد، وسرجون من ماردين، وأسطفان من حابوراء،^(٢٣١) وقسطنطين من سميساط، وقرياقوس من طور عبيد، وديونسيوس من حران، وإلبا من سنجار. ومن الموصل بولس من نكريت، وزكا من كرمية،^(٢٣٢) ويونان من بيت نهارا^(٢٣٣) مع كثيرين غيرهم، وبين الشرقيين كان يوجد...^(٢٣٤) كتبوا الوثيقة وأقروها ووقعوا على القرار، وكانوا على وشك أن يضعوا أيديهم للتبرك، وذلك وفقاً لقوانين الكنيسة، إذ بالشيطان عندما رأى أن السلام يوشك أن يسود الكنيسة لا يتوانى ولا يهدأ ولا يقر له قرار، فعلى الفور استدعى قسماً كان يقيم في المنطقة، لأنه لم يستطع أن يتكلم أمام المجتمعين خوفاً من أن تتكشف خديعته ويتضح أمره بينهم. وهذا شبيه بما فعله مع أبونا في الجنة إذ اختار لهما شعباناً تقمصه واختبأ فيه، وعن طريقه نفذ كل خططه. هنا اختار له راهباً تابلاً له، وعن طريقه نفذ كل رغباته. هذا الراهب كان يدعى يوحنا، وكان يقيم في عزلة تامة بناحية تل أبشوم.^(٢٣٥) لقد عاش فترة طويلة في

(٢٣٠) بعلتان قرية مندثرة، كانت جنوبي حمص. (أغناطيوس أفرام الأول: اللاؤل المنشور ص ٥٠٥)

(٢٣١) حابوراء ولاية واسمة ويكاد كثير على نهر الخابور، بين رلس عين والفرات من أرض الجزيرة،

تلقب عليها اسم نهرها قسيت إليه. (أغناطيوس أفرام الأول: اللاؤل المنشور ص ٥٠٧)

(٢٣٢) كرمية قرية من أعمال الموصل من المروج، تقع على نهر دجلة وليست بعيدة عن نكريت. (باقوت

الحموي: معجم البلدان ج ٤ ص ٤٥٦)

(٢٣٣) نهارا أنقفة تقع شمال الموصل على نهر الزاب في ضواحي مرجا

AINWORTH. JOURN. GEOG. SOC. II. P. 58

(٢٣٤) هنا سطر أبيض في المخطوطة.

(٢٣٥) يوجد تل بهذا الاسم بجوار آمد (ديار بكر). BAR-HEBAEUS: CHRON. SYR. P. 306.

عزله، ولما كان على معرفة بجورجيوس فقد جاء والتقى بأساقفة الجزيرة، وخاصة أساقفة قرتمين، وقال لهم: كيف تريدون أن تنصبوا بطريركاً عليكم رجلاً قد هدد بهم دبركم قائلاً: "إذا كانت لى الهيمنة فى الكنيسة لكنت قد محوت من على وجه الأرض اسم قرتمين وكذلك اسم دير أنثاسيوس".

ولقد أثارهم هذا الراهب كما أثار غضبهم بأعمال كثيرة مشابهة. هؤلاء الذين لم يعرفوا جورجىوس المحترم حق المعرفة افتتوا بأحاديث الراهب ووثقوا بها، دون أن يعلموا أن مصدر قوته هو الشيطان. فقد خلعوا ملابسهم وأسرعوا يمتطون جيادهم راجعين إلى بلادهم، والذين بقوا عندما رأوا أن أصدقاءهم قد رحلوا ازداد قلقهم وخوفهم، فقد خافوا أن يثيروا الانقسام والاضطراب داخل الكنيسة إذا تم تنصيب بطريرك أثناء غياب مريديه، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى لأنهم أتوا بهذا الرجل الذى كان على وشك أن يقع عليه الظلم وأن يطلع اسمه وسمعته فى العالم، لأن الأمر لم يخل تماماً من الحاقدين، ولا سيما من كانوا يدبرون المؤامرة من وراء الستار. هؤلاء الذين بقوا عندما رأوا أن المصالحين والحاقدين بصفة خاصة قد تابوا إلى رشدهم أخذت ضمائرهم تؤنبهم على ما اقترفوه تجاه هذا الرجل، فأحضروه فوراً ونصبوه. وكان من بين أهل الجزيرة تيموتاوس من الرها، وأبا من آمد، وقسطنطين من سميساط، ويوحنا من الرقة، مع باقى الموصليين والشرقيين.

أما الذين قد تعجلوا فى الرحيل فقد وقعوا فريسة الإثارة والفتنة؛ عندما رحل كل منهم وعاد إلى بلده لم يكف الشيطان عن ملاحقته بإثارة الفتنة بينهم. لقد أثارهم حتى إن كثيرين من بين أهل الجزيرة اجتمعوا واختاروا يوحنا أسقف الرقة من دير قرقفنا^(٢٣٦) المقدس، الذى تتصل من اتفاقه ووعدوه وسخر من توقيعه على القرار، فوقع فريسة لطموحه وأصبح بطريركاً.

(٢٣٦) يقع هذا الدير فى منطقة الخابوراء، ليس بعيداً عن رأس العين. بناء مار شمعون، واشتهر أمره فى القرن الثامن، وقد انتشرت معالمه منذ عهد بيمد. (أغناطيوس أقرام الأول: الأول الممنوع ص ٥١٢)

منذ ذلك الوقت سقط الذين كانوا يرتدون للزى الثمين المقدس فى السخرية والازدراء واللعنات. كثيرون لعنوا هذا الاتفاق، وهكذا انتشرت الفتنة فى الكنيسة فى تلك الفترة. ومنذ ذلك الوقت أى إهانات وأى خزى وأى وشاية وأى مكر لم يحدث بينهم، حتى وضعت الأغلال فى أيديهم وألقى بهم فى السجون بقوة الطاغية. تلك هى الأضرار التى حلت بالكنيسة والرهبان، وذلك بواسطة هذا القس الشرير الذى لعب دور الثعبان الأملس السام الذى أدخل الفتنة فى الكنيسة عن طريق أحاديثه ونصائحه.

عام ١٠٦٥ يونانية (٧٥٣-٧٥٤م) مات عبد الله بن محمد ملك الفرس، وفى ذلك الوقت انتقض على كرسي السلطة شقيقه وابن عمه عبد الله بن على، ومنذ ذلك الوقت لم تشهد البلاد سوى سفك الدماء، ووقع بينهم كثير من الضحايا.

إن جميع الشرقيين وعرب الجزيرة كانوا يناصرون ابن على، وكانوا يأتمرون بأمره، ويعملون على تنصيبه ملكا؛ فأخذوا الأبيض وخرجوا خلفه. ولكن الفرس وأهل خراسان كانوا على الطرف الآخر يؤيدون عبد الله بن محمد. وبعد أن التحموا فى معارك كثيرة فى أماكن شتى، وسفكت دماء غزيرة من كلا الجانبين غطت مساحات شاسعة من وجه الأرض، انتهت بموقعة فاصلة عند نهر ماش^(٢٣٧) قرب نصيبين، إذ استمرت للمعركة عدة أيام، ومات من الجانبين أعداد شغيرة. وأخيرا هزم عبد الله بن على على يد أبى مسلم الفارسي وتشتت قواته فولى الأدبار، وتوفى فى السادس والعشرين من تشرين الثانى (نوفمبر) يوم الثلاثاء فى أول صلاة الستار^(٢٣٨) ليوم الأربعاء.

وعندما هزم ابن على تولى عبد الله بن محمد الحكم لمدة...^(٢٣٩) سنوات. وفى نفس ليلة هزيمة ابن على أجرى الرب معجزة كبرى، فإِن شهابا عظيما

(٢٣٧) نهر ماش أو ملبوس.

(٢٣٨) صلاة الستار هى صلاة العصر عند المسيحيين.

(٢٣٩) كلمة ناقصة هنا فى المخطوطة.

ومفرعا شق السماء وهوى في الجو إلى أن سقط عند الغروب وسط قنات ابن على على هيئة لهب من النار. عندما رأى العرب ذلك تملكهم اليأس وتبدد كل أمل لديهم، حيث أظلمت عيونهم وخارت قواهم، لأنهم عرفوا على الفور أن هذا إنما حل عليهم من قبل الرب، ولم يطيقوا أكثر من ذلك.

عام ١٠٦٦ يونانية (٧٥٤-٧٥٥م) في شهرى تشرين (أكتوبر ونوفمبر) أثمرت الأشجار كمثرى وخوخاً وشتى أنواع الفاكهة، كما لو كان ذلك فى نيسان أو أيار (أبريل أو مايو)، وأخرجت كل الأراضى محصولاً وفيراً فى ذلك العام.

عام ١٠٦٧ يونانية (٧٥٥-٧٥٦م) فى ليلة يوم الثلاثاء الثالث من شهر آذار (مارس) وقعت هزة أرضية عنيفة فى منطقة الجزيرة، دمرت ثلاث قرى بناحية حابوراء، وسحقت الكثيرين من أهلها كالغنب فى المعصرة، وقضى عليهم، وتهدمت بلاد أخرى كثيرة على أثر الهزة الأرضية هذه، وذلك بسبب ما اقترفته أيدينا من ذنوب، (ترنحت الأرض ترنحاً كالسكران وتدلذت كالعوزال وثقل عليها ذنبها فسقطت ولا تعود تقوم).^(٢٤٠) إن سيناتنا كغيلة بأن تجلب علينا هذا، وأن نزعزع الأرض تحت أقدامنا.

منذ عام ١٠٧٠ يونانية (٧٥٨-٧٥٩م) وقعت اضطرابات بين المسيحيين الشرقيين بسبب الصوم الكبير. لقد بدأ بعضهم الصوم فى الثامن عشر من شباط (فبراير) وأتموه فى السادس من نيسان (أبريل)، والبعض خالفهم فبدأوه فى الخامس والعشرين من شباط (فبراير) وأتموه فى الثالث عشر من نيسان (أبريل)، وبذلك وقع الاضطراب بين المسيحيين كلهم؛ ففى مكان احتفل بالقيامة وفى مكان آخر احتفل بالسعف، أى أن البعض كان يمجّد آلام المسيح والبعض الآخر يحتفل بعيد الفصح.^(٢٤١) حدث أيضاً فى المدن مثل ما حدث فى الكنيسة، كنا تحتفل بعيد

(٢٤٠) العهد القديم: إشعيا ٢٤: ٢٠.

(٢٤١) عيد الفصح من أعياد المسيحيين الرئيسية، يحدون فيه ذكرى المشاء الأخير، ويقع فى الاعتدال الربيعى. (تاريخ سرياقية ١٩)

الفصح بينما كان غيرنا يحتفل بالسعف. كثيرون ممن لم يستطيعوا كبح جماح شهوة الطعام لم يصوموا إلا ستة أسابيع فقط، حيث بدأوا الصوم مع الأخيرين وأنهوه مع الأولين، وكثيرون غيرهم كانوا يريدون أن يتوسطوا في الأمر، فجلسوا على أنفسهم الضرر من جراء ذلك بسبب الاضطراب الذي حل بالكنيسة، حيث بدأوا الصوم مع الأولين وانتهوا مع الأخيرين.

عام ١٠٧١ يونانية (٧٥٩-٧٦٠م) في شهر آذار (مارس) ظهرت علامة ببضاء في السماء، ناحية الشمال الشرقي في البرج الشمالي المسمى الحمل، إذ رأينا ثلاثة نجوم أكثر لمعانا من مجموعة النجوم كلها، تشكل فيما بينها ما يشبه "المكنسة"، وكان ذلك في الثاني والعشرين من الشهر قبل طلوع الفجر، حيث كان برج الحمل على ارتفاع درجة من الرأس، وعلى بعد درجتين من كوكبي زحل والمريخ، ويميل قليلا نحو الجنوب، وظل على هذا الحال لمدة خمس عشرة ليلة حتى ليلة عيد الخمسين.^(٢٤٢) كانت إحدى جوائبه الأكثر ضيقا مائلة ناحية الشمال، وكانت تبدو أكثر لمعانا بسبب نجم كنا نراه، والجانب الآخر الأكثر اتساعا وإظلاما كان متجها ناحية الجنوب. هذه العلامة كانت تتحرك شيئا فشيئا نحو الشمال الشرقي.

وحدث في مساء الثلاثاء، أي ليلة عيد الخمسين، أن ظهرت هذه العلامة مرة أخرى في الشمال الغربي، وظلت لمدة خمس وعشرين ليلة. كانت تتجه شيئا فشيئا نحو الجنوب، ثم اختفت لتظهر مرة أخرى في الجنوب الغربي، حيث استمرت لفترة طويلة.

في تلك الفترة حدثت فتن كثيرة في الكنيسة بسبب منصب البطريرك، فقد انتخبت الأديرة الشرقية يوحنا بطريركا، بينما رفضته المدن وأديرة الجزيرة جميعا؛ إذ كان الشرقيون وأهل الموصل يؤيدون جورجيوس. لهذا السبب كانت الكنيسة كلها تغلي في أتون من القلق.

(٢٤٢) عيد الخمسين pentecost وهي كلمة لاهوتية، المقصود بها هذا العيد الذي يوافق عيد الحصاد عند اليهود.

عام ١٠٧٢ يونانية (٧٦٠-٧٦١م) مات القديس مار تيموثاوس أسقف الرها، وجاء خلفاً له الراهب "الحبيس" سمعان، الذى كان يقيم فى قرية بنفس المنطقة تسمى بيت قنونا.^(٢٤٦) لقد أجمع كل المخلصين فى الرها واتفقوا فيما بينهم على أن ينصبوه راعياً لكنيستهم، وذلك بسبب نفاقه وكماله واتصافه بكل الفضائل الحميدة، وخاصة عطفه على الأغراب والفقراء. لذلك قاموا بفتح صومعته بالقوة وأخرجوه منها، وقدموه إلى البطريرك جورجىوس لكى ينصبه رئيساً لهم. ولكن لأن "سمعان" الورع، الذى كان يفضل أن يعيش حياة الزهد والعزلة والهدوء بسبب الحياة الرهبانية على أن يصبح أسقفاً أو أن ينصب رئيساً للشعب، رفض أن يأخذ على عاتقه مسئولية الأسقفية. وعلى الرغم من أن جورجىوس المحترم كان يضغط عليه وأهل الرها يكون بين يديه فقد كان متمسكاً بموقفه، مما جعلهم يلجأون إلى أخذه بالقوة وتنصيبه رغماً عنه، فضلاً عن أن جورجىوس المحترم حمّله على أن يقسم بالسماء والأرض وبالرب وملأته على ألا يغادر بلده ولا أسقفيته إلى أى مكان آخر. وهكذا أرغموه تحت ضغط القسم على ألا يغادروهم وأن يبقى معهم وألا يهرب، فأخذوه إلى الرها حيث خرج إليه الأهالى عن بكرة أبيهم واستقبلوه بحفاوة بالغة.

وبعد أن قضى فى المدينة يوماً أو يومين دون أن يأكل أو يشرب حتى أشرف على الموت استرحمهم أن يسمحوا له بالخروج ليقيم فى أحد أديرة الرها الجبلية، قائلاً لهم: "إن جو هذه المدينة ثقيل على نفسى". ولما لم يجدوا مناصاً من تلبية مطلبه ذهب وأقام فى أحد الأديرة فى جنوب المدينة يدعى دير "أم للرب".

كان رجال الدين وعظماء الرها يصعدون إلى الدير كل يوم، يتوسلون إليه أن يعود ويتولى حكم مدينته، إلا أنه كان يرفض بإصرار أن يستجيب لهم قائلاً: "لو تعرضت للموت أو للصلب فلن أتولى هذا العمل أبداً. من أجل الرب أتركونى واتخذوا لكم أسقفاً آخر ممن ترضونهم". ولكن أهل الرها لشدة حبهم له لم يثنهم هذا الكلام عن عزيمتهم.

(٢٤٣) بيت قنونا بلدة تقع فى ضواحي الرها. ASSEMANI: BIBL. OR. I. 396 No. 1.

مر الشتاء على هذا النحو دون أن يقرر العودة إلى المدينة أو القيام برسامة كاهن أو الاحتفال لهم بعيد من أعيادهم، وأيضا دون أن يوافقوا على رحيله عنهم، لأن قلوبهم كانت معلقة به، حتى عرب المدينة وملحديها كانوا يحبونه.

وأخيرا عندما رأوا آمالهم في إقناعه قد ذهبت كلها أدراج الرياح تضرعوا إليه قائلين: "بحث لنا عن رجل ورع يقوم مقامك في تصريف أمور الأسقفية على شرط أن نظل قريبا منا". ولكنه لم يقبل طلبهم وقال: "أنتم شعب صعب المراس، اختاروا أنتم بأنفسكم أسقفًا لكم ولا تعهدوا إليّ بأى عمل". ولكنهم عارضوا جميعا فكرة ابتعاده عنهم، فتركوا له فرصة لاتخاذ قراره بشأن تلك المهمة، وحتى هذه أيضا لم يقبلها. ولكنه عندما رأى أنه لن يتم له تحقيق رغبته وأنه لن يستطيع الإفلات من أيديهم قال لهم: "اقسموا لى أنكم ستقبلون من أختاره لكم وحينئذ لن أبعد عنكم أبدا"، فجاموا جميعا له لتلاوة القسم. كان فى ذلك الوقت فى دير زوقنين المقدس فى منطقة آمد رجل متواضع لطيف هادئ، يتحلى بكل الفضائل الإلهية، ويدعى "أثناسيوس الإثيوبى"، فاختاره سمعان ورحب به الجميع ليتولى منصبه، وأخذ على عاتقه كل المسئولية، اعترافا منه بأنه ترك شأنه. "لا يوجد مثله اليوم بين الجرداء".^(٢٤٤) تلك هى الشهادة التى منحها سمعان لهذا القديس المؤمن، على الرغم من أنه لم يره قط وجهًا لوجه.

جلس يكتب له رسائل، وكذلك إلى أتقيا وعظماء كنيسة، طالبا منه رؤيته والتحدث معه، كما أرسل إليه أناسا مكرمين. فتسلم أثناسيوس تلك الرسائل، وفهم أنها تتطوى على المكر والخداع، فرفض أن يذهب، وكذلك لم يسمح له أبناء ديره. ترددت الرسل عليه عدة مرات ولكن دون جدوى، وأخيرا نصحه الكهنة أن يقبل، وذلك لأن الرسائل والتوسلات لم تنقطع، ولم يكونوا يريدون أن يدخلوا القديس سمعان.

(٢٤٤) الجرداء جمع أجرد، أى دون لحية، والمقصود هنا هم الرهبان.

عندئذ قدم مع تلميذه إلى الرها، وصعد إلى سمعان في الجبل حيث كان يقيم، فخرج إليه سمعان واستقبله بحفاوة عظيمة، وأرسل على الفور إلى رجال الدين وعظماء المدينة سرًا، ودون أن يعلم أنثاسيوس النقي، بشيء يبشرهم قائلًا: "إن الرجل الذي وعدتكم به قد جاء". وعلى الفور خرج الجميع كبيرًا وصغيرًا، لم يتخلف منهم أحد، واتجهوا إليه. وعندما رأوا أنثاسيوس انتابتهم الفرحة والغبطة والسرور. في البداية اتفقوا على أن يقيدوه بالأسقفية، خشية أن يهرب إلى أي مكان آخر قبل أن يقتنعوا بالموافقة. وعندما علم أنثاسيوس النقي بحقيقة الأمر خجل وانتابه اضطراب شديد، وتغير لون وجهه وتحول إلى لون باهت يشبه لون الموتى. كان يلقي باللوم بصوت مرتفع على كهنة أسقفية، لأن نصائحهم هي التي أوقعته في هذا المأزق الحرج، واختص باللوم سمعان المحترم نفسه. ولكن بعد أن أخذ الناس يلحون عليه لفترة طويلة دون أن يظفروا منه بالموافقة قرر أهل الرها أن يحملوه بالقوة، وأن ينقلوه إلى البطريرك ليصدر له الأمر بالاستجابة لمرغبتهم. ولكن أنثاسيوس اكتشف المؤامرة فأخذ تلميذه وفر عائدًا إلى ديرِه ليلا. عندما رأى القديس سمعان أن أنثاسيوس الطاهر قد هرب نفذ يده من الأمر، وقال لأهل الرها: "لقد فعلت كل ما طلبتموه مني ولكن محاولاتي باءت بالفشل، أما الآن فاتركوني". وغادرهم عائدًا إلى جبل بيت سيمساط، حيث قضى ما بقي من أيام حياته يستقبل الأغراب والفقراء الذين كانوا يحضرون للقاءه، لأنه كان ملجأ المكروبين. وقد جاء خلفا له "زكريا" من دير...^(٢٤٥) الذي أنزلوه من فوق عموده.

عام ١٠٧٥ يونانية (٧٦٣-٧٦٤م) حل وباء عظيم في المنطقة، قضى على الغيول كلها شيئًا فشيئًا. وقد شمل ذلك الوباء كل بقعة في المنطقة، بدءًا من الأجزاء المحيطة بها، وأخذ ينتشر في سرعة مذهلة حتى انتشر في البلدة كلها. لقد نفقت تلك الحيوانات في لمح البصر بصورة جماعية، ووصلت شدة الوباء إلى درجة أنه عندما كان يصيب قافلة من الجياد، تقدر بحوالي ثلاثمائة جواد، وهي في

(٢٤٥) كلمة ناقصة هنا في المخطوطة.

طريقها إلى مورد الماء كان نحو عشرين أو ثلاثين منها تتفق قبل أن تغادره، حتى إن الأودية والجبال والسهول والطرق أصبحت مكتظة وملوثة بجثث الجياد النافقة.

ذلك الوباء اتخذ شكل الطاعون الذي يحل بالبشر. كان يصيب خلقهم، ولم يكن أي جواد يطيق أن يتحمل ذلك الألم حتى ولو لساعة واحدة، ولو تصادف أن أحدها تحمل الألم لمدة ساعتين أو لنصف يوم كان معنى ذلك نجاة من الموت. ولكن لم يكن لينجو من الموت أكثر من واحد في المائة من تلك التي هاجمها المرض. إن الخيل والبغال والحمير كانت غالبيتها قد نفقت، وقد انتشر هذا الوباء في كل المناطق وكل ممالك الأرض، حتى إن البشر أصبحوا بلا جياد. إن ظاهرة الريح المكسبة التي كانت قد ظهرت من قبل قد تحققت بالفعل؛ فقد كنس هذا الوباء العالم كما تكنس المكسبة المنزل.

كان من رأى الحكماء والرجال الورعين الانتفاء أن هذه الصاعقة الوحشية كان يجب أن ترسل على البشر وتصيبهم، ولكن الرب بفضل رحمته وشفقته العظيمة وحبه للبشرية حولها من البشر إلى الحيوانات. حقيقة نحن نعتزف بأن الحيوانات لم تقترب ذنباً ولم تأت أعمالاً من شأنها أن تغضب الرب، وقد قال عاموس: (أرسلت بينكم وبأ على طريقة مصر، قتل بالسيف فتيناكم مع سبي خيلكم وأصعدت نتن محالكم حتى إلى أنوفكم فلم ترجعوا إلي، يقول الرب).^(٢٤٦) ويقول ميخا: (ويكون في ذلك اليوم، يقول الرب، أني أقطع خيلك من وسطك وأبيد مركباتك).^(٢٤٧) الحقيقة أن الخيول والمركبات قد اختفت من على سطح الأرض كما قال الأنبياء: "إن ذنوبنا جعلت المخلوقات الأعجمية تهلك بدلا منا".

عام ١٠٧٢ يونانية^(٢٤٨) (٧٦٠-٧٦١م) أرسل عبد الله بن محمد ملك الفرس "ابن وهاب" على رأس قوة عظيمة، وزوده بالعمال من كل بلاد الجزيرة، لإعادة

(٢٤٦) العهد القديم: عاموس ٤: ١٠.

(٢٤٧) العهد القديم: ميخا ٥: ١٠.

(٢٤٨) هنا حدث رجوع بالتاريخ.

بناء ملبتين في كبادوقيا التي ظلت مهجمة منذ ثمان سنوات. لقد نقل إليها أناسنا وقوات للإقامة بها، وتعهدها بالرعاية حتى أصبحت أكثر عمراناً من ذي قبل.

عام ١٠٧٦ يونانية^(٢٤٩) (٧٦٤-٧٦٥م) يوم الجمعة الرابع من شهر كانون الثاني (يناير) سقطت نجوم السماء، إذ في الوقت الذي خيم فيه الظلام وبدأت النجوم في الظهور خرج نجمان من كبد السماء، ودارت بينهما معركة كما لو كانت معركة دائرة بين رجلين يتحاربان ثم يتشاجران. في غمرة الصراع كانا يقذفان بالسهم النارية وينحدران ناحية الشرق. عندما هوى النجمان تلاماً فقد كل منهما بريقه ولمعانه، وبدأت كل نجوم السماء تهوى على هيئة شظايا من نار في كل الاتجاهات. لقد ظلت النجوم تسقط طوال الليل، ولقد تحقق قول منقذنا: (وللوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس والقمر لا يعطى ضوءه والنجوم تسقط من السماء وقوات السموات تتزعزع)،^(٢٥٠) (ولما في تلك الأيام بعد ذلك الضيق فالشمس تظلم والقمر لا يعطى ضوءه، ونجوم السماء تتساقط والقوات التي في السموات تتزعزع)،^(٢٥١) (وتكون علامات في الشمس والقمر والنجوم، وعلى الأرض كرب أمم بخيرة، البحر والأمواج تضيح)،^(٢٥٢) (تتحول الشمس إلى ظلمة والقمر إلى دم قبل أن يجيء يوم الرب العظيم الشهير)،^(٢٥٣) (وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب، انظروا لا تترنعاوا، لأنه لا بد أن تكون هذه كلها، ولكن ليس المنتهى بعد)،^(٢٥٤) (فمتى نظرت رجسة الخراب التي قال عنها دانيال النبي قائمة في المكان المقدس، ليفهم القارئ).^(٢٥٥)

(٢٤٩) العودة إلى التسلسل التاريخي.

(٢٥٠) العهد الجديد: إنجيل متى ٢٤: ٢٩.

(٢٥١) العهد الجديد: إنجيل مرقس ١٣: ٢٥/٢٤.

(٢٥٢) العهد الجديد: إنجيل لوقا ٢١: ٢٥.

(٢٥٣) العهد الجديد: أعمال الرسل ٢: ٢٠.

(٢٥٤) العهد الجديد: إنجيل متى ٢٤: ٦.

(٢٥٥) العهد الجديد: إنجيل متى ٢٤: ١٥.

ولنتأمل بعد ذلك ما حدث في العالم، سواء تلك الاضطرابات والفتن التي وقعت في الكنيسة بسبب انتخاب كل من البطريك جرجيوس وداود، اللذين بسببهما تبدل حال جميع المسيحيين، أو من جراء للضغوط التي عاناها الناس من جانب السلطة الطاغية وهروب الناس من مدينة إلى مدينة أخرى، أو من مكان لمكان مجاور له، أو من قرية إلى قرية أخرى. لقد قال أيضا: (لأنه يكون حينئذ ضيق عظيم لم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن ولن يكون. وصلوا لكي لا يكون هربكم في شتاء ولا في سبت. وويل للحبالي والمرضعات في تلك الأيام). (٢٥٦)

اقرأ أيها العاقل ثم تأمل المصائب التي حلت نبالا بالعالم، والتي نسردها في وقتنا هذا، أي غم، وأي آلام، وأي عذاب، وأي قلق، وأي صدمة، وأي فرار، وأي نهب، وأي تهرم، وأي جحود للأبناء والبنات، وأي فراق للأزواج والزوجات، وأي مجاعة، وأي أمراض، وأي طاعون. تأمل أيها الرجل التقى كل تلك الأحداث التي وقعت بعد سقوط النجوم، فضلا عن أن كل الشعوب وكل الأمم وكل الممالك قد ضعفت وانهارت أمام تلك القوة الطاغية التي لم يصمد أمامها أحد.

في تلك الفترة... (٢٥٧) أصبحت طائفة المانويين (٢٥٨) في حران - بلدة فيما بين النهرين - مجموعة محتقرة. كان لديهم دير يقع على مسافة ميل شرقي حران، كانوا يقيمون فيه مذبة مرة كل عام، حيث يتم القتل بأعداد كبيرة وبوحشية. كانوا يقدمون الضحايا في هذا الدير، حيث كان يقيم أسقف هذه الطائفة، وذلك حسين

(٢٥٦) العهد الجديد: إنجيل متى ٢٤: ٢٠/٢١.

(٢٥٧) يوجد هنا في مخطوط بعض الكلمات غير المقروءة، يبدو أنها عنوان كما هي عاداته في إعطاء عناوين للأحداث.

(٢٥٨) المانوية Manichaeism من أخطر الحركات الجديدة التي كانت تنتشر من الشرق، وقد أسسها 'مانى' MANI حوالي عام ٢٤٦م، وقد مات مانى في السجن بسبب معتقده. أما ديانتته التي جمعت عناصر مسيحية وبوذية وزرادشتية في مجموعة واحدة فقد انتشرت في العصر البيزنطي من فارس إلى إسبانيا، وقد أثارت أخطاها الآباء السوريين بشكل لم تقم له أية أخطاء أخرى من قبل. (ابن النديم: الفهرست من ٣٢٨/٣٢٧)

الاحتفال بعيدهم الكبير، وكانوا أيضا يهبون أنفسهم إلى الكهنة. كان من عادتهم أنه كلما اقترب حلول عيدهم يعمدون إلى التخلص من أحد الرجال بوضعه في السجن إلى العام التالي، وفي يوم العيد يقدمونه ضحية، فيجتزرون رأسه ويضعون قطعة من الفضة في فمه، ثم يضعون الرأس في كهف ويتوجهون إليها بالعبادة ثم يستخدمونها للتجيم والتنبؤ.

وحل يوم عيدهم البغيض، وأرادوا إحضار الرجل المزمع حبسه ليكون ضحية العيد القادم الذي سيأتي في العام التالي، فكتب كبار المانويين مرسوماً، وخرجوا إلى مكان عام في حران. وعندما وجدوا ضالقتهم متمثلة في شخص رجل طيب اقتربوا منه وقالوا: "خذ المكافأة التي نشاء واحمل هذه الرسالة إلى رئيس الدير في الصومعة الفلانية". لم يظن الرجل الممكن إلى الخدعة الشيطانية التي كانت ستودي بحياته، فاستعد للذهاب كالحمل الوديع الذي يذهب إلى حتفه، فوصل إلى الدير على عجل، ولما اقترب من الباب وطلب من الكهنة مقابلة رئيسهم استعطفهم أن يخبروه بموعد قدومه أسرع ليبلغوه الخبر. ولم يكذ رئيسهم بسمع هذا الخبر حتى خرج مسرعاً واستقبل الرجل بحفاوة بالغة وسعادة غامرة، وقال له: "تعال ادخل واسترح قليلاً، تناول شيئاً من الطعام وسوف نتسلم رد رسالتك وتذهب في سلام". ثم جعلوه يمر من غرفة إلى غرفة، الأولى ثم الثانية ثم الثالثة حتى وصل إلى الغرفة السادسة أو السابعة، أي وصل بالقرب من الرجل المحبوس منذ العام الماضي حتى يكون ضحيتهم في العيد القادم، فقالوا له: "اجلس هنا بجوار هذا الرجل". وعندما جلس قال له الرجل: "يا للنحس، بالسوء المصير الذي ينتظرك". "ولكن لماذا؟" هكذا قال له الآخر. فقال له الرجل: "لقد فعلوا معك كما فعلوا بي عندما جئت إلى هنا. وجدت رجلاً آخر يعيش هنا، وفي يوم عيدهم قطعوا رأسه، وها هي رأسه في ذلك الكهف وأمامه مصباح مضاء، إنهم يعبدونه ويستخدمونه في التجيم. إنهم يتأهبون الآن لذبحي في هذا العيد، وستجلس مكاني هنا حتى العيد القادم، ثم تصبح حينئذ ضحيتهم. ولكن إذا أردت الهرب من هنا

فاستمع إلى وسوف تنجو، ترقب اللحظة التي يقررون فيها قتلى وقف بجوارى، وعندما تسقط رأسى على الأرض بادر بأخذها واسكب دمائى وانثرها على الباب، فإذا استدعوك أو ألحوا عليك وإن قدموا هدايا كثيرة لا تقبلها، وإذا قاموا بالقبض عليك فاقذف بالدم أمامهم فسوف يبتعدون عنك. فقام الرجل بتنفيذ الخطة بدقة ومهارة فأنقذ وفقاً لما رسمه له الرجل، فأخذ الرأس وأسرع نحو الباب، فاسترحمه هؤلاء وتوسلوا إليه أن يضعها، ولكنه لم يأبه بعودهم ولم يصنع لنصائحهم ولم يضعف أمام تهديداتهم، لأنهم لم يتمكنوا من الاقتراب منه. ثم حمل الرأس وأسرع لمقابلة عباس الذى كان وقتذاك أميراً للجزيرة. عندما علم عباس بحقيقة الأمر قام بالقبض على الماتويين جميعهم، وساقهم إلى الأسر رجالاً ونساءً وأطفالاً، ومصادر ممتلكاتهم وأنزل بهم أقصى أنواع العذاب، وكان عددهم أكثر من أربعة آلاف شخص أو خمسة آلاف.

عام ١٠٧٦ يونانية (٧٦٤-٧٦٥م) فى يوم الجمعة الرابع عشر من شهر آذار (مارس) رحل القديس ساويرس أسقف آمد إلى العالم الآخر ودفن فى دير.

فى نفس العام اجتمع سينودوس (مجمع) من أساقفة الجزيرة والموصل والشرق فى سروج فى بلدة...^(٢٥٩) وأعلنوا السلام والوحدة مع جورجىوس، الذى نصب بطريركاً بعد موت يوحنا أسقف الرقة، والذى كان أهل الجزيرة قد نصبوه بطريركاً. فى هذا السينودوس خلع كل الأساقفة الذين عينهم البطريرك يوحنا، ليس بسبب ضعف إيمانهم ولكن لأنهم لم يكونوا قد تلقوا أمراً وفقاً للنظام والقانون الإلهى. كما أن أهالى البلاد التى كانوا معينين عليها لم يكونوا يرضون عنهم، ونقول الحق فقد خلعوا لأنهم لم يكونوا أكفاء للأسقفية، وذلك لأن هؤلاء الرجال كانوا رهباناً فاسقين وذنباً مفترسة لا تترفع عن افتراس الغنم. وقد أشار الرسول بولس إلى ذلك من قبل بقوله: (الذى أعظم هذا أنه بعد ذهأبى سيدخل بينكم ذئاب

(٢٥٩) كلمة ناقصة هنا فى المخطوطة.

خاطفة لاتشفق على الرعية)،^(٢٦٠) (هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارا جيدة، وأما الشجرة الرديئة فتصنع أثمارا ردية).^(٢٦١) منقص أعمالهم في زمانهم.

إن أهل الجزيرة والموصل والشرق بالاتفاق مع الأديرة وسائر بلاد المنطقة قد أيدوا في هذا السينودوس انتخاب جورجيوس. كان رؤساء هذا السينودوس هم جورجيوس بطريرك أنطاكية، ودلود أسقف دارا، وأبنا أسقف آمد، وسرجون أسقف ماردا، وقسطنطين أسقف سميساط.

عام ١٠٧٧ يونانية (٧٦٥-٧٦٦م) اجتمع عدد كبير وعظيم من النساطرة^(٢٦٢) في دير بيت كونة (كولا) على جبال كارو، حيث كان يوجد الصندوق،^(٢٦٣) وذلك للاحتفال بالعيد كما كانت عاداتهم، وبينما كان حشد كبير مجتمعاً بهذا المكان، على ضوء القمر في ليلة من ليالي شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، لمع برق في السماء، وسقطت صاعقة من السماء أشعلت النار في معبدهم، فقضت عليه مع القوم الذين كانوا بداخله، وحولت أحجاره إلى جبر هش، حتى الذين كانوا خارج المعبد لم ينجوا من الحريق، حيث ألتهمتهم النيران جميعاً دون أن ينجو أحد. لقد هلك في ذلك الحريق أكثر من سبعمائة شخص لو ثمانمائة، بالإضافة إلى أعداد كبيرة من الحيوانات، كانت رائحة الحريق النفذة تمتد إلى مسافة ميلين، ولمدة عامين لم يتمكن الأهالي من الاقتراب من الأماكن المحيطة بمكان الحريق. إن هذا المكان الذي كان يعد ملجأ للناس من الفيضانات، وأيضاً للدواب والحيوانات والزلزلات، أصبح مكاناً خراباً بالنسبة لهؤلاء الرجال وحيواناتهم، بسبب الصاعقة التي نزلت من السماء. كما أن تابوت العهد لم يتمكن

(٢٦٠) العهد الجديد: أعمال الرسل ٢٠: ٢٩.

(٢٦١) العهد الجديد: إنجيل متى ٧: ١٧.

(٢٦٢) طائفة من النصارى قالت إن في المسيح المتجسد "تثومين" و"طيبيتين". (نصارى بندا ١٤)

(٢٦٣) المقصود بالصندوق هنا هو تابوت العهد الذي صنعه موسى بأمره. كان في التابوت الوعاء الذي يحتوي على المر، وعصا هارون التي أفرخت، ولوحا العهد، وكان عليهما وصايا الله العشر المكتوبة بأصبع الله، ثم وضع بجانبه التوراة، ومن ثم يسمى التابوت أحياناً تابوت الشهادة. (قاموس الكتاب المقدس، عن مجمع الكتف في الشرق الأقصى ص ٢٠٩)

من أن يحمى الأساقفة: حفنى^(٢٦٤) وفينحاس^(٢٦٥) ابنى على^(٢٦٦) أو حتى يحمى نفسه، وكذلك سفينة نوح التى تعمل على حماية المعبد الذى أقيم تخليذاً لذكرها، ولا الأساقفة، ولا للمزاهر، ولا الأوائى المستعملة فى الطقوس المقدسة، ولا من كانوا داخل المعبد، ولا حتى من كانوا خارجه. لقد هلكوا جميعاً فى أتون هلاك واحد كما لم ينج أحد من الذين كانوا مجتمعين فوق الجبل.

كنا نرى السحاب والهواء قد تحول إلى لهيب من النار والكبريت الذى أسقطه الرب على سدوم، وانتشر فى السماء. (فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء)^(٢٦٧) كان الجبل يبدو على البعد كسدخان أتون لدرجة أن أحداً لم ينجح حياً ولا حتى نصف محروق. إن رائحة الكبريت كانت نفاذة حتى إن السحب كانت تمطر والأفق كان مشتعلاً على بعد ميلين أو ثلاثة أميال، لقد أنزل الرب كل هذا بالشعب للنسطورى فى أيامنا هذه.

عام ١٠٧٤ يونانية (٧٦٢-٧٦٣م) فى شهر آذار (مارس) حدث فيضان عظيم لنهر دجلة الذى خرب كل إقليم الحدود،^(٢٦٨) ولتلف كل ما كان على شواطئه إتلافاً تاماً، كما خربت معه منازل وطواحين وقرى وأقاليم وحيوانات مع أشياء كثيرة أخرى. لقد أوقع أشد أنواع الخراب بمدينة الموصل، لأنه أدرك هذه المدينة فى ليلته الأولى، وفى طريقه غمرت المياه ثلاث ضواح، حيث غرقت المنازل والدواب والبشر وكل شيء فيها حتى اليايس، وكنا نرى قوارب تطفو على سطح

(٢٦٤) حفنى اسم مصرى معناه "ابو ذنبية" أو "فرخ الضفدع". قام "حفنى" وأخوه "فينحاس" بوظيفة الكهنوت فى شيفوخة والدهما "على"، ولكنهما أظهرتا أنهما غير جديرين بهذه الوظيفة المقدسة بسبب أخلاقيهما الفاضحة، واعترض "على" على تصرفهما اعتراضاً أيضاً ولم يوبخهما توبخاً صارماً، ونتيجة لذلك صدر القضاء الإلهى ضده وضد بيته. (قاموس الكتاب المقدس ص ٣١٢)

(٢٦٥) فينحاس اسم مصرى معناه "النبوى"، وهو أصغر ابنى "على" الشريين، وقتل كلاهما فى حرب الفلسطينيين، ولما سميت امرأته عن موته ولقت وسمت المولود وماتت. (قاموس الكتاب المقدس ص ٧٠٥)

(٢٦٦) على اسم عبرى معناه "مرتفع"، كان رئيس الكهنة.

(٢٦٧) العهد القديم: التكوين ١٩: ٢٤.

(٢٦٨) إقليم الحدود يسمى "بيت تخوم". كان تحت نفوذ الساسانيين فى ضواحي نصيبين، ودخله الذين كانوا يكرتون حدود الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية القارسية.

الماء. إن حدائق للنخيل الباسقة التي كانت منتشرة في هذه المنطقة قد غمرتها المياه هي الأخرى، وكانت للقوارب تسير فوقها، وقد عمت هذه الظاهرة كل الأماكن الواقعة في تلك المنطقة.

عام ١٠٧٨ يونانية (٧٦٦-٧٦٧م) تحركت كل قوات الفرس والعرب وأسّرت نحو المنطقة الشمالية، فقام عباس شقيق الملك الذي كان وقتذاك أميراً على الجزيرة واستولى على الرها وعبدین^(٢٦٩) ونل دكوم. وقام القائد "حسن بن خطاب" على رأس قوة ثغوية، وقائد آخر يدعى "ابن أسعد" كان يقود القوة الملكية، قامت هذه القوات بعبور نهر دجلة ونزلت في آمد بأعداد غفيرة.

وبينما هم يحاصرون آمد - بلدة فيما بين النهرين - توفي "ابن أسعد" قائد القوات الملكية. تلك القوة كانت تتكون من أجناس مختلفة وعقائد متباينة تتمثل فيهم كل الديانات، فكان منهم من يعبد النار ومنهم من يعبد الشمس. في الصباح كانوا يسجدون ميممين نحو الشرق، وفي وسط النهار كانوا يتعبدون مولين وجوهم شطر الجنوب، وفي المساء يتوجهون نحو الغرب. كان بعضهم يعبد القمر، والبعض الآخر يعبد النجوم، وفئة كانت تعبد الخيل، وفئة أخرى كانوا يصنعون نماذج مكررة لكل أنواع الأصنام ويحملونها معهم ليمبدوها، حتى إن كلاً منهم كان يحمل صنماً للإله المعبود في بلده ووطنه. كانت تلك القوات مزيجاً من كل الشعوب، ولذلك كان يطلق عليها اسم "الكمال الملكي"، كانوا في الواقع يسمون بعدة أسماء مختلفة منها: سنديين^(٢٧٠) وعلائيين خيزر، ومعديين، وفرس، وعاقوليين^(٢٧١) وعرب، وخربت، وأتراك؛ لدرجة أنه كان يمكننا القول بأنها كانت فرقة^(٢٧٢) من الجراد بأنواعه المختلفة.

(٢٦٩) المقصود هنا طور عبدین.

(٢٧٠) سنديين هم سكان المنطقة الذين كان السورويون يطلقون عليهم اسم "سند" واليوم "السند".

BAR-HEBRAEUS: CHRON. SYR. P. 41/ ASSEMANI: BIBL. OR. III. 12. 140.

(٢٧١) يريد العرب الكوفيين.

(٢٧٢) تقدر الفرقة بحوالي ثمانين ألف رجل. LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE TXII. P. 265.

كانت تُقترَف بينهم ذنوب لاحصر لها، ولا تقتصر على نوع بعينه. ولكننا كنا ندعها تمر بهدوء، ولا نتعرض لها بسبب جسامتها وكثرتها، ولكي لا تنتقل إلى السنة المتحدّثين، ولا تؤذى آذان السامعين، لأنّ الفم كان يأبى أن يتلفظ بها.

إنّنى أعتقد أنّ الرب قد أثارهم وأخرجهم من بلادهم لأنهم تخلوا عن الرب خالقهم، وكانوا يقدمون العبادة التى لا تليق إلا بالرب وحده إلى تماثيل على هيئة بشر، بدلا من أن يؤمنوا بأن الرب هو خالقهم وأن يقتنعوا بأنه هو رب كل الشعوب، والذى تتركز فيه القوة من قبل أن توجد الشمس. إنه هو الذى أمر (وقال الله ليكن نور فكان نور)،^(٢٧٣) وقال أيضا: (وقال الله لتكن أنوار فى جلد السماء لتفصل بين النهار والليل، وتكون آيات وأوقات وأيام وسنين).^(٢٧٤) هو نفسه الذى وهب النار للبشر لينتفعوا بها فى حياتهم، فاتخذوا منها آلهة وعبدوها (أغاروه بالأجانب وأغاظوه بالأرجاس. ذهبوا لأوثان ليست الله، لآلهة لم يعرفوها أحداث قد جاءت من قريب لم يرهباها أبائكم).^(٢٧٥)

لقد قذف بهم الرب فى الجبال الشمالية لكى يتعرضوا لمختلف الأمراض مثل الطاعون، ويذوقوا المجاعة، ولكى يعطى لحمم غداء لدواب الحقول وهوام السماء.

حدث أن تقدموا نحو مملكة الرومان واستعدوا لغزوها، فوجدوا أن البلدة التى تقع على خط الحدود خصبة تنتج مختلف أنواع الفاكهة، ولما كان الوقت شهر آب (أغسطس) ونظروا لأن البلدة لم تكن أهلة بالسكان، وكانت مثمرة بالأشجار والكروم، فقد أسرع الشعب الذى ليس له قانون ودخلها، وأقبل يلتهم بشراهة كل ما وقعت عليه يده، فسقطوا صرعى كثير من الأمراض وخاصة الدوسنتريا والنقلصات، لدرجة أننا كنا نرى فى أى مكان يعسكرون فيه جثث موتاهم المتعفنة،

(٢٧٣) العهد القديم: التكوين ١: ٣.

(٢٧٤) العهد القديم: التكوين ١: ١٤.

(٢٧٥) العهد القديم: التثنية ٣٢: ١٧/١٦.

على قارعة الطرق وعلى التلال وفي الوديان، دون أن يوليهما التراب، وكانت الحيوانات البرية قد غرزت فيها أنيابها. كما نفقت أيضا دوابهم وخاصة الإبل التي كان أحد رجالهم قد أحضرها معه. لقد نفق منها حوالي خمسين جملاً أو ستين، ولم ينج منها سوى خمسة جمال أو ستة، ومن الدواب ما نفقت عن آخرها ولم ينج منها حيوان واحد.

عندما دخلت تلك القوات في مملكة الرومان حاصرت قلعة تسمى قماح^(٢٧٦) كانت تقع على الحدود. لقد جلبوا عمالا كثيرين من الجزيرة، واختار عباس منطقة لبناء القلعة المسماة "زأيد" كما استولوا على منطقة أخرى. وأرسل عباس في طلب عربات من أرمينيا ليحمل عليها كميات كبيرة من خشب الأرز، وأمر العمال أن يصنعوا آلات قد نصبها في المنطقة المواجهة للقلعة لإلقاء القذائف النارية (المنجنيق) في داخلها.

أما الرومان الذين كانوا داخل القلعة فقد أقاموا هم أيضا آلات مضادة، وكان هؤلاء الرومان المحاصرون يكوّنون جيشاً لا يُهزم، ويقومون حول قلعتهم سوراً حصيناً، لإيمانهم بأن الرب خالقهم. حينئذ قالوا: (الرب الخلاص، على شعبك بركتك، سيلاه)،^(٢٧٧) (أحمدك بين الشعوب يا رب، أرنم لك بين الأمم. لأن رحمتك قد عظمت إلى السموات وإلى الغمام حقه).^(٢٧٨)

إن القائد الذي كان يدخل القلعة كان يدعى "سرجيوس"، وكان رجلاً هادئاً مسالماً تقياً عطوفاً على الفقراء، وقد شهد بذلك كل المواطنين الذين دخلوا القلعة بحثاً عن الطعام،^(٢٧٩) فوقعوا بالصدفة في أيدي الرومان الذين احتجزوهم في

(٢٧٦) قماح بلدة قرية قديمة جداً، من أصل أرمينيا على نهر الفرات الغربي. كانت لها شهرة عظيمة ومقدسة، وكانت تحتفظ بصور آلهة أرمينيا ومقابر الملوك.

LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE, T. II P. 73.

(٢٧٧) العهد القديم: المزمير ٣: ٨.

(٢٧٨) العهد القديم: المزمير ٥٧: ١٠/٩.

(٢٧٩) قال تلاميذ: إن هذا الطعام هو "القوة" وهو نبات زراعي صيفي. والنبات الذي كان يستعمل أحياناً غذاء للحيوان كان يستعمل دون شك غذاء للفقراء في هذا الوقت وذلك لشدة المجاعة.

القلعة. ونظرا لوجود سرجيوس، ولما لمس المحتجزون من رحمته وسماحته وطيبته، فقد اطمأنوا وذهب عنهم الخوف، وقد اعترفوا جميعا بفضل ذلك الرجل وحسن معاملته لهم.

فى تلك الفترة حل بشعب سوريا ضيق شديد، فقد انتشرت بينهم البطالة، لأن العرب كانوا قد صادروا محاصيلهم وأراضيهم، لعدم دفعهم الجزية التى كانت مفروضة عليهم من قبل العرب، وأصبحوا يعملون بالسخرة لدى العرب الفاتحين، لدرجة أن كل تجارة المزارعين السوريين قد كسدت وبارت، حتى إنهم كانوا يتجمعون فى أعداد غفيرة ويتوجهون إلى بلدة "هنزيط" طلبا للطعام. كانوا كلما اقتربوا من الحدود سواء كان ذلك بسبب إهمال الحاكم المكلف بحراستها أو عمدا بدافع الطمع، كان يطالبهم بدفع الإتاوات دونما رحمة أو شفقة. كان الرومان يقبضون عليهم ويقودونهم إلى بلدة قماح، فكان هذا الرجل "سرجيوس" كلما رآهم شملهم بعطفه ورحمته، وكان يقول لهم: "إن شئتم ابقوا معنا وإن شئتم ارجعوا إلى دياركم آمنين". فإذا اختاروا العودة كان يزودهم بما يحتاجونه من مؤن الطريق. فى الحقيقة يا إخوانى لقد كافأ الرب هذا الرجل إذ خلصه من الأشريين هو وكل من كان معه فى داخل القلعة.

عندما رأى أن قوة غفيرة تحيط بهم من كل جانب بينما كانوا هم قليلى العدد، وأن الأعداء - كما كان يفعل ساقى سنحاريب الكبير قديما - كانوا يلعنون كل من كان يستند على الأسوار قائلين: "من من الشعوب استطاع أن يفلت من يد عبد الله بن محمد؟ ألم تشاهدوا ماذا فعل بمروان وما أحدثه ببيت هشام؟ لقد أبادهم جميعا من على وجه الأرض. أين ملك المصريين وملك الأفارقة والنوبيين والموريين؟ أين ملوك أرمينيا وبلشان وماداي وفارس؟ ألم تعلموا ماذا فعل بملوك السند والهند؟ من من ملوك الأرض استطاع أن يستخلص ملكه من بين يدي عبدا لله حتى تأملوا فى الهرب من بين يديه والخلاص منه؟" ولكن هذا الرجل المخلص قد تحصن بقوة الإيمان وتحلى بالثقة بربه، ولجأ إلى الصلاة كمن لا يجد له ملجأ

سواها (لأن هيجانك على وعجرفتك قد صعدا إلى أننى أضع خزامتى فى أنفك وشكيمتى فى شفتيك وأردك فى الطريق الذى جنت فيه)،^(٢٨٠) (فى الطريق الذى جاء فيه يرجع وإلى هذه المدينة لا يدخل، يقول الرب).^(٢٨١)

لجأ الفرس إلى العديد من الطرق، ولكن أصبحت كل حيلهم لا تجدى شيئا. لقد أقاموا منازل متحركة من الخشب حتى يملأوا الخندق بالتراب والحجارة التى كانت بجوار الحائط، ولكن هذا أيضا لم يحقق أية فائدة، وذلك لأن الرومان كانوا يقذفون بالحجارة من الداخل ويلقون بها بمهارة فائقة، فتؤدى إلى مقتل جموع غفيرة ممن كانوا فى الخارج، حتى حطموا آلات الفرس.

ولما كان أحد جوارب القلعة يمكن عن طريقه اعتلاء الأسوار قام الرومان بمد أعمدة طويلة من الخشب إلى هذا المكان، وثبتوا فى أطرافها وعلى امتدادها أحجارا كبيرة مستديرة ووضعوها على الطرف، فكلما بادر الفرس إلى النهوض كان الرومان يلقون بالأعمدة الخشبية فتسقط وتبيدهم وتمزق أجسادهم إربا.

وقد حدث ذات ليلة أن لاحظ الفرس أن أصوات الرومان لا تترامى إلى أسماعهم، فخيّل إليهم أنهم راحوا فى ثبات عميق؛ فانقضوا عليهم فى حشد كبير لا حصر له. وبينما كانت طلائعهم يتسلقون الأسوار بسعادة غامرة متصورين أنهم قد اقتحموا القلعة كان الرومان المعينون للحراسة لهم بالمرصاد، حيث انقضوا عليهم فى جراءة عظيمة، وألقوا عليهم بالأعمدة الخشبية المحملة بالأحجار التى اكتسحت كل من كان فى طريقه ويحاول تسلق الأسوار، ونفج عنها تراكم الكثير من جثث القتلى.

لقد باءت كل محاولاتهم بالفشل، لأن الرب كان يساعد الرومان. وأخيرا عزم قائدان على التسلل إلى بلاد الرومان والتقدم فيها بقوة كبيرة تقدر بحسالى

(٢٨٠) العهد القديم: إشعياء ٢٧: ٢٩.

(٢٨١) العهد القديم: إشعياء ٢٧: ٣٤.

خمسين ألف رجل، حتى ينهبوا ويسلبوا ويخربوا كل الأراضي الرومانية فتتمكنوا منها. ولكن نظرا لجهلهم بطبيعة البلاد، ولعدم وجود مرشد يدلهم على دروب المنطقة، آثروا عدم السير في الشوارع المعرضة للهجوم، حتى لا يكتشف الرومان وجودهم فيتصدوا لهم ويبيدوهم عن آخرهم. ولكن ما قاله أيوب قد وقع بهم (لأنى ارتعابا ارتعبت فلتقتي والذي فزعت منه جاء على. لم أظنن ولم أسكن ولم أسترح وقد جاء الرجز).^(٢٨٢) إن غضب الرب لم يتوقف ولم يهدأ قط قبل أن يدركهم (وإن بقي فيها عشر بعد فيعود ويصير للخراب ولكن كالبطمة والبلوطة التي وإن قطعت فلها ساق يكون ساقه زرعاً مقدساً).^(٢٨٣)

لقد جاءهم الهلاك أولاً من الجوع، ثم نفذت مؤن الطريق فجاءهم الهلاك من الجوع، ثم انتهوا إلى الجبال اليابسة فجاءهم الهلاك من شدة الظمأ. ولكن في الوقت الذي كانوا مشرفين فيه على الهلاك من شدة الظمأ هم ودوابهم، دون أن يصبوا إليهم الحسام أو يعمل فيهم السيف، انتهوا إلى حقل رطب حيث حفروا بسهامهم فوجدوا ماء قريباً من سطح الأرض فشربوا، ونجوا من ظمئهم كما أنقذوا من الموت حيواناتهم. ولم يتجهوا بعد دخولهم بلاد الرومان إلى المناطق المأهولة، ولكن اتجهوا إلى منطقة صحراوية جرداء بين مملكة للرومان ومملكة الأرمن. وبعد أن طافوا طويلاً في الجبال الصحراوية اتجهوا نحو قيصرية، حتى صادفوا منطقة خصبة، ولقوا في المدن شعباً يتصرف ويتحرك بحرية ودون قيود. ولكن الجنود الرومان ما لبثوا أن انقضوا عليهم فجاء دون أن يتمكن أحد من مقاومتهم، إذ إنهم عندما نزلوا بقيصرية أشبعوا كل رغباتهم من هذا البلد، فقد كانوا يجمعون الغنائم وينهبون ويسلبون كل ما تصل إليه أيديهم، ويسوقون الأهالي إلى الأسر، ويستولون على كل الحيوانات والدواب. لقد استولوا على غنائم وسلائب كثيرة من الرجال والحيوانات، وغير ذلك من الأشياء الثمينة كالأواني والأدوات النادرة، إلى جانب كميات كبيرة من الذهب والفضة.

(٢٨٢) العهد القديم: أيوب ٣: ٢٥ / ٢٦.

(٢٨٣) العهد القديم: إشعياء ٦: ١٣.

ولكن القدر لم يمهلهم أكثر من ذلك، لقد وزن لهم بنفس المكيال الذى وزنوا للناس به، لقد ملأت جثثهم الخندق الذى حفروه بأيديهم، أى وقعوا فى الفخ الذى نصبوه بأنفسهم. لقد عاقبهم الرب جزاء ما اقترفوه، فلأنهم أسروا فقد أسروا، ولأنهم نهبوا فقد نُهبوا، ولأنهم أرادوا أن يملكوا عبيدا وإماء أصبحوا هم أنفسهم العبيد، ولأنهم أرادوا أن يحولوا الأرض خرابا فقد خربوا أنفسهم وأصبحوا مأكلا لحيوانات الحقول وطيور السماء، وارتوت الأرض بدمائهم. هذا ما حدث لهم.

ولما وصلوا إلى تلك المنطقة التى كانت ذات ثراء عظيم نهبوها وخربوها واستعبدوا سكانها دون رحمة أو شفقة. كانوا يريدون العودة إلى سوريا بغنيمة كبيرة وشهرة واسعة ونصر مؤزر، ووفقا لرغبتهم امتلكوا ثروات عظيمة من عبيد وإماء. لقد كان التعساء لا يعرفون أنهم بعد فترة وجيزة سيصبحون هم أنفسهم أسرى، وذلك لأنهم كانوا يسيرون فى الظلمات. فى الحقيقة يجب أن نغنى ونقول: (جميع عظامى تقول يا رب من مثلك المنقذ المسكين ممن هو أقوى منه والفكير والبالس من سالبه)،^(٢٨٤) وأيضا: (قال الرب من باشان أرجع، أرجع من أعماق البحر).^(٢٨٥)

لقد اقتنع الفرس بأنهم قد وصلوا وأنهم قد دخلوا سوريا ولم يخشوا شيئا. فوصلوا إلى حقل كبير حيث أرادوا أن يقيموا معسكرهم ويستريحوا. هذا الحقل لم يكن له غير منفذ واحد، وكانت تحيط به من كل جانب دجلة وتصب بداخله، فعسكروا واستراحوا قليلا وتركوا حيواناتهم ترعى. ولكن لأنهم لم يكونوا على علم تام بالمنافذ المختلفة فقد قرروا الإقامة هنا فى تلك المنطقة. ولكن الرب الذى لا يتخلى عن يمينه إلى يومنا هذا لهم قلندا رومانيا أتى ومعه ألفا فارس. تلك القوة كانت آتية من مكان آخر ومن حملة أخرى بعد أن أحرزوا نصرا عظيما. ولما تعرفوا على مدخل الحقل الذى يعسكر فيه الفرس أرادوا هم أيضا نصب خيامهم

(٢٨٤) العهد القديم: المزمير ٣٥: ١٠.

(٢٨٥) العهد القديم: المزمير ٦٨: ٢٢.

ليستريحوا دون أن يعلموا بالخطر الذي يهددهم من الداخل أو يعرفوا شيئا عما حدث في مملكتهم وشعبهم، نظرا لأنهم كانوا قادمين من منطقة نائية. ولما استقروا في معسكرهم صعد بعضهم إلى قمة التل ووقع نظره على القوة العظيمة للفرس التي كانت تعسكر في الداخل مع الأسرى وسلايب أرضهم، فاضطربوا واستولى عليهم الخوف وأسرعوا بالعودة يعلنون النبا إلى زملائهم. أما رئيسهم فقد اهتم بالموضوع اهتماما بالغاً، فأرسل قوة أخرى قوامها نحو ثلاثمائة فارس ليتأكدوا من حقيقة الأمر ومن أنه ليس مجرد خيالات لاحت أمام أنظار من شيعوهم. أما الذين أرسلوا في المرة الثانية فقد استوثقوا من الأمر وأخبروا القائد بأن الأمر حقيقة، حيث صعد بدوره في نحو أربعة آلاف فارس أو خمسة آلاف. ولم يكد الفرس يرونهم ويتأكدون من أنهم يحتلون المنفذ الوحيد الذي يمكنهم الخروج منه، وأنهم أصبحوا محاصرين مهددين بالقضاء، حتى ارتجفت قلوبهم واهتزت أفئدتهم وضعفت عزيمتهم وانتابهم الفزع، وأخذوا يترنحون كالسكارى ووهنت كل قواهم. ومن جانبهم أرسلوا من يستطلع لهم مقدار قوة العدو حيث أعدوا أنفسهم للدخول في معركة فاصلة مع عدوهم، نظرا لكثرة عددهم ولأنه لا مخرج لهم سوى هذا المنفذ الضيق. وما إن عاد الرسول وأخبرهم بكثرة عدد الرومان وعظمة عدتهم وعتادهم وعزمهم على القتال وأنهم مستعدون للمعركة حتى فطرت عزيمتهم وخارت قواهم ولجأوا إلى سلك طريق السلام.

في البداية عرضوا على الرومان إطلاق جميع الأسرى الذين احتجزوهم وترك كل الثروات والغنائم التي كانوا قد استولوا عليها، قائلين: "فلينتركوا لنا الحياة فقط وسنخرج كما دخلنا دون أية غنائم". ولكن الرومان لم يستجيبوا لهم، حيث تمكنوا زمام الموقف سريعا بأن جهزوا قوة عظيمة، انقسمت إلى أربع فرق، وانقضت عليهم من كل جانب. ولما كان الوقت ليلا والظلام يخيم على المكان فقد استخدموا لغة الإشارات بينهم. وقد اتفقوا على أنه عندما يصبحون على أهبة الاستعداد للمعركة سيفتح في البوق، ويصيحون معا صيحة واحدة "رحمك يا

رب". عندما سمع الفرس هذه الصيحة تملكهم الفرع وانتابهم الخوف، وأصبحوا كمن سلبت منهم الحياة لاحول لهم ولا قوة، حيث أظلمت الدنيا من حولهم، ولم يستطيعوا التمييز بين الأشياء، كما تهارت أعصابهم، وضاع كل أمل لهم فى الحياة. لقد اعتبروا أنفسهم موتى قبل أن تصل إليهم سيوف العدو، فكانوا كلما أرادوا الفرار باءت محاولاتهم بالفشل، لأن الرومان كانوا يحاصرونهم كالدائرة، حيث زجرهم الرب من السماء، وقلب حالهم أمام الرومان أعدائهم. وهذا يجب أن نؤمن بأن الرب قد قام بإرساء السلام بنفسه، حيث سقطت الأغلال وأطلق سراح الأسرى، ووقع الفرس فى نفس الشرك الذى نصبوه بأيديهم. إن الذين كانوا من قبل سادة يملكون العبيد أصبحوا هم أنفسهم عبيدا مكبلين بالأغلال (من أجل أنه لم يذكر أن يصنع رحمة بل طرد إسائا مسكينا وفقيرا والمنسحق القلب ليميته).^(٢٨٦)

دارت المعارك طوال اليوم، وانهزم الفرس أمام الرومان الذين ألحقوا بهم هزيمة منكرة وقاسية. إن الفرس أنفسهم - أى الذين كتبت لهم الحياة نتيجة هروبهم من تلك المعركة أو الذين جرحوا ولم يجهز عليهم - أثبتوا لنا بوثائق مؤكدة أنهم لم يروا فى حياتهم ولم يسمعوا عن كمية من الدماء أريقت فى مكان واحد مثل ما أريق فى هذا المكان، قالوا: "إنه فى هذا الحقل كانت الدماء والجثث ترتفع حتى صدور الجياد. ولما كان هناك كثير من الماء فى الحقل لم تشرب الأرض الدماء".

فى الحقيقة إنه يجب القول مع الرسول: (وهو ذا رُكَّاب من الرجال، أزواج من الفرسان، فأجاب وقال سقطت سقطت بابل وجميع تماثيل آلهتها المنحوتة كسرها إلى الأرض)،^(٢٨٧) (خوف وحفرة وفتح عليك يا ساكن موآب، يقول الرب. الذى يهرب من وجه الخوف يسقط فى الحفرة والذى يصعد من الحفرة يعلق فى الفخ لئى أجلب عليها أى على موآب سنة عقابهم، يقول الرب).^(٢٨٨)

(٢٨٦) العهد القديم: المزمير ١٠٩: ١٦.

(٢٨٧) العهد القديم: إشعيا ٢١: ٩.

(٢٨٨) العهد القديم: إرميا ٤٨: ٤٣ / ٤٤.

وعندما اقترب للغروب لم تعد نرى إلا عددًا قليلاً منهم. البعض قبض عليهم دون مقاومة، أما الآخرون فقد أطاح بهم السيف. لقد هرب "رداد" قائد القوات على جواده، وتخلّى عن الجميع تاركاً كل أمتعته في أيدي الرومان. لم ينبجُ معه سوى ألف رجل تقريباً وبعض الجرحى، فهرب إلى ملطية، وكان قد فرض عليه فى الطريق معركة أخرى، تلقى فيها ثلاث طعنات بالسيف ولكنه لم يلق حتفه. أما القائد الآخر "مالك بن طوف" فقد هرب إلى الرقة مع خمسة آلاف رجل.

هكذا عادوا من حيث أتوا مكليين بالخزى والعار. لقد فقدوا كل عتادهم وعددهم، والذين هربوا لم ينجوا إلا وهم مجردون من كل شيء. فلنأمل الآن ما حدث بالذين حاصروا القلعة، كيف أنهم نزعوا خيامهم بأيديهم، وكيف أنهم فروا مكليين بالخزى والعار أكثر من زملائهم.

أما المزارعون الذين كانوا يقومون بنقل القمح والدقيق من سوريا فقد رأوا أنهم يقتربون خطأ جسيماً فى القيام بهذا العمل، حيث لا تجدى أى فائدة، لأنه كما سبق أن قلنا أننا إن هذه الرحلة كانت محفوفة بالمخاطر مقرونة بالخسائر، وخاصة أن كل الدواب قد هلكت، وتوقفوا عن نقل القمح والدقيق، فحلت بهم مجاعة عظيمة، وكانوا على وشك الهلاك جوعاً. فقد ارتفع سعر القمح من الثلاث زوزات ونصف مع ندرة وجوده.

لقد استمر الحال على ذلك مدة عشرين يوماً، بعدها أرسل عباس إلى سوريا فأقام سوقاً كبيراً. عندما علم المزارعون بذلك اتجه كل شعب الجزيرة والشرق وأرمينيا الداخلية إلى هذا المكان الذى أقيم فيه السوق، حمل كل واحد قدر طاقته من البقول حتى أصبحت هناك وفرة فى جميع أنواع الغذاء، فالتجار وأصحاب الحانات وتجار الحبوب وغيرهم اشتروا القمح والشعير والدقيق وغير ذلك مما يلزم لحياة الإنسان، وقد وضعوا كل ذلك فى أكوام كبيرة مثل الجبال، أملين فى أن يحققوا فى وقت قصير ثروة عظيمة. ولكن هؤلاء التمساء الذين كانت تمتلئ عيونهم ببريق الأمل ما لبثت أن أظلمت من شدة الطمع، ولم يكونوا يعلمون أنهم

لأن يلبثوا أن يخسروا قريبا كل ما يملكون، وأن تلك الرحلة بأكملها ستكون مئيدة بالخسائر ولن تحقق فائدة تذكر.

هاجم الفرس القلعة مرارا ليلاً ونهاراً بكل الوسائل المتبعة في الحروب، ولكنهم في كل مرة كانوا لا ينالون إلا الخسارة، في الوقت الذي كانت ترجح فيه كفة الرومان. ولكن عيانياً الذي كان عطوفاً أشفق على هؤلاء الفقراء الذين عانوا من العمل، وعندما رأى أنهم يرزحون تحت أحجار المقاليع التي يقذف بها الرومان من الداخل جمع قادة القوات، وأصدر أمراً بأن يتم تكليف مجموعة من المقاتلين المهرة بإعداد مقاليع مضادة للرد على مقاليع الرومان، بينما يكلف المزارعون بأعمال أخرى بعيدة عن خطر الموت.

كان الوقت يمر وعباس يقول: "إذا تحتم على أن أبقى هنا لمدة عشر سنوات فلن أخرج من هنا وسأحتل القلعة". تجمع الرجال من كل حذب وصوب في هذا المكان، وبعد أن حاربوا مستخدمين كل وسائل الحرب - ولكن دون إحراز تقدم - وصلت إليهم تهديدات تقول: "ربما سيسيطر عليهم العرب وستفتح لنا". ولكن كالنسر السريع الذي يطير في السماء بأجنحة رشيقة لا يخشى شيئاً على الأرض كان هؤلاء يتصرفون ولم يخشوا شيئاً، وأخيراً لجأوا إلى أسلوب التملق والوعظ بعد إقناعهم بأن يتركوا القلعة وأن يرحلوا بسلام. ولكن هذا أيضاً لم يجد نفعا، حيث إن المحاصرين بدؤوا في الاستهزاء بهم.

ولما كنا على أبواب فصل الشتاء، وبدأ البرد يشتد في تلك المنطقة، خاف الفرس أن يفاجأوا بالجليد يقطع عليهم الطرق ويموتوا جوعاً وبرداً. لقد خشوا أن تتجمع ضدهم القوات وتبيدهم عن آخرهم ويحل بهم أسوأ مما حل بزملائهم، ولذلك خرجوا في نحو خمسة آلاف أو ستة آلاف فقط، أما الذين دخلوا فوقعوا جرحى وكانوا نحو خمسين ألفاً. ولما تقطعت بهم الأسباب وأصبحوا غير قادرين على تحسين موقعهم ظهر بشير، وأصدر أمراً لجنوده بأن يمتطوا الجياد ويرحلوا من حيث أتوا. أما عن التجار وأصحاب الحانات والمشتريين والبائعين فقد فقدوا في

لمح البصر كل بضائعهم، لأنهم كانوا قد اشتروا القمح والشعير والدقيق وكدسوه ولم يجدوا الدواب التي تحمله. ولما كانت طبيعة أرض المنطقة وعرة لاتصلح لمرور الدواب، فقد كان الأهالي يستخدمونها في نقل بضائعهم حتى يمر نهر يسمى "سلقط"، ثم يطلقونها ولايستبقون سوى دابة واحدة أو اثنتين على الأكثر من كل مائة دابة كانت تمر إلى شمال الممر. كانوا كثيرا ما يستأجرون الدواب لنقل حاجياتهم حتى لايجشموا دوابهم مشقة المرور في الأراضي الوعرة. وهكذا كان هناك عجز في الدواب، حتى عندما أمر نذير الحرب قواته أن تحمل البضاعة واجه أيضا هذا العجز. ولما رأى الفرس أن التجار قد خلفوا وراءهم كل بضائعهم عمدوا إلى إشعال النار فيها، حتى لاينتفع بها الرومان عند نزولهم. وعلى الرغم من ذلك فقد بقي الكثير منها.

تقدمت قوة أخرى إلى قاليقلا.^(٢٨٩) عندما قابل الجنود أناسا يحملون جينا وزيتا وعصلا وملا بس ومؤنا أخرى للجيش كان الجنود يلقون بأمتهتهم ويطاردون الأهالي سائبين منهم كل شيء حتى الدواب، لدرجة أن هؤلاء السكان فقدوا في لحظة واحدة كل ما كانوا يملكون. هكذا تكبد الجميع خسائر وحل الخراب بتلك القرية، حتى العمال لم ينجوا من هذا البلاء. بعد أن رحل عباس أمر الحكام المنصبين من قبله بأن يأخذوا الراتب الشهري الذي كانوا قد تسلموه عند دخولهم لهم ولدوابهم. هكذا رفع عباس مخيمه ورحل من حيث أتى محوطاً بالخرى والعار بعد أن لحقت به خسائر فادحة، واتجهت القوات الأخرى إلى آمد ودجلة، وذهبت إلى فارس. كان الجنود منهوكة القوة قد استبد بهم الضعف والوهن من شدة الجوع، ولم ينج منهم إلا ما يقرب من النصف ولا سيما الدواب، والعبيد الذين هربوا للاحتماء دخلوا مملكة الرومان. كان يحب رؤيتهم لأنهم كانوا يتمتعون بفخر وزهو عند دخولهم البلاد، على الرغم من أنهم كانوا أثناء المعارك متواضعين حزائي مطأطي الرعوس مجردين من كل شيء.

(٢٨٩) قاليقلا أو قيليقي أو كيليكيا، قامت الملكة قاليقلا ملكة الروم ببنائها عندما ملكت بعد زوجها "أرميناقوس"، وسمتها قاليقلا، ومعنى ذلك إحصان قاليقلا. وصورت على باب من أبوابها، فأعربت العرب فقالوا قاليقلا. (البلاذري: فتوح البلدان ج ١ ص ١٩٧)

إن مرور تلك القوات كان ذا فائدة لكل الشمال، لأنهم قد نشروا الزوازي وخاصة الجديدة، ومنذ ذلك الوقت فإن كل من أراد صنع الزوازي كان يقوم بهذه العملية دون خوف. وهكذا تضاعفت كمية الزوازي الجديدة وخاصة المزيفة، وقد تسبب هذا في خسارة كبيرة للأهالي.

كل منطقة الجزيرة كانت مشهورة بكرومها وحقولها ودوابها الكثيرة، لم يوجد فقير أو مسكين في أي بلدة إلا وهو يمتلك حقلاً وبغلاً وإبلًا. لم يكن هنا مكان صالح للزراعة إلا بُذر وزرع بالكروم، حتى في الجبل أي مكان يسمح بمرور عربة زرع كروماً. لقد سيطر عليهم الجشع حتى إنهم اغتصبوا كل ما كان أسلافهم قد وهبوه للأديرة والأبرشيات. كان هناك قمح ونبذ بكميات وفيرة، وبسبب وفرة المحصول نشبت المنازعات والمشاجرات والادعاءات إلى أقصى حد، لدرجة أنها قد وصلت إلى حد القتل. إن حكام المدن أنفسهم قد فقدوا سلطانهم بسبب القضايا التي كانت بينهم. أصبحت المنطقة تُفصّل بالرعاة بسبب كثرة المراعى. إن الهدف الأساسي لما كتبه هو إظهار حجم الكارثة التي حلت بالمنطقة (فسمن يشورون ورهس، سمعتُ وغلظتُ واكتسيتُ شحماً، فرفض الإله الذي عمله وغهى عن صخرة خلاصه)،^(٢٩٠) بتلك الثروة الهائلة في الدواب وفي الحقول وفي العبيد وفي الإماء سقط الملوك في بؤس عجيب، لدرجة أننا كنا نرى رجالاً كانوا يملكون آلافاً من الضأن والإبل والخيول والخدم والإماء ومساحات شاسعة من الحقول، كانوا يركبون الخيول العربية، بينما كان خدمهم يركبون البغال، وكانت الأبواق تنفخ أمامهم على طريقة الكفار الذين كنا نراهم هم وأنشباهم يحملون أطفالهم على أكتافهم عراة جاعين، يستجدون الناس بما يمسك رمقهم، ويطردون من مكان إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى. كنا نرى ربات البيوت معمدات مهجورات، حاملات أطفالهن معلقين في أعناقهن، وانحلت يتسولن من قرية إلى قرية ومن بلد إلى بلد.

(٢٩٠) العهد القديم: التثنية ٣٢: ١٥.

فى هذا العام وبعد رحيل القوات كان القمح يباع خمسة وعشرين جريبنا بل ثلاثين بدينار واحد، والنبىذ أربعين قلنا بل خمسة وأربعين بدينار واحد. كل شىء كان يباع بسعر زهيد، وذلك لأنه فى تلك الفترة كان الرخاء قد عم كل البلاد، كما اتجه الناس إلى إنشاء الأضرحة وترميم الكنائس.

عن المناقشات والمنازعات والاضطرابات التى حدثت فى الكنيسة المقدسة وبين أساقفتها فى ذلك العام ١٠٧٨ يونانية (٧٦٦-٧٦٧م) وخاصة بسبب جورجىوس بطريرك الكرمى الرسولى فى أنطاكية

كما سبق أن ذكرنا فإن أساقفة الجزيرة قد انفصلوا وابتعدوا عن جورجىوس وعن أبناء الغرب، ونصبوا يوحنا المبجل بطريركاً. ولما تولى أراد الأساقفة الأتقاء للذين يخشون الرب أن يطردوا من بينهم الذين يثيرون القلاقل ويصبحوا شعباً واحداً، يخضعون لرئيس واحد وفقاً للقانون الذى سنه وأقره الآباء القديسون، كما كانوا يخشون وقوع الانقسامات والاضطرابات فى الإيمان المقدس. ولما كانت كل المدن قد أسلمت قيادها لجورجىوس، وأحبوه ودونوا اسمه فى قائمة الوعاظ، فقد اجتمع كل أبناء الجزيرة وأبناء الغرب فى بلدة سروج،^(٢٩١) وكان جورجىوس الراهب المبجل معهم فى عام ١٠٧٦ للإسكندر.

لقد طرح الجانبان كل الأمور المتنازع عليها على بساط البحث والمناقشة. كان البطريرك جورجىوس المبجل يؤثر السلم على النزاع والانقسام، كما لم يكن يريد أن تتغير فى عهده القواعد والقوانين التى سنها الآباء المائة والخمسون المشهورون للمجتمعون فى السروح القدس فى القسطنطينية، الذين وافقوا وأقروا البطارقة على منح "تقطار" القسطنطينية

(٢٩١) بلدة قريبة من حران من ديار مصر. (النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٨٠)

بعد بطريركية روما، ومنح "تيموثاوس" الإسكندرية ومصر وكل المناطق الغربية، وإلى ميلس^(٢٩٢) بطريركية أنطاكية وكل الشرق. كان يخشى أن يمتد الانقسام في أيامه إلى هذا الكرسي في أنطاكية، فوافق على كل ما طلبه أساقفة الجزيرة فيما عدا موضوع الأساقفة للمكلفين من قبل يوحنا من أبرشية قرقيتا، الذين نصبوه بطريركاً. لم يقبل هذا ولم يوافق عليه، وأراد استبعادهم من كل نظام كهنوتي؛ لهذا ثار أساقفة الجزيرة، لأن معظمهم كانوا قد عينوا في كنائس معروفة، ولكن هذا لم يكن وسيلة ضغط على المبجل، وقال إن الكهنوت وحتى الأبرشية نفسها ستعطى إلى من كان من بينهم يريد الذهاب إلى المناطق السفلى من سجمتان وحراب^(٢٩٣). وقد لقي هذا القرار إقبالاً من الرهبان. كما قال المبجل أيضاً: "كيف يتمنى لى طرده من بلده لأحل مكانه واحداً من هؤلاء؟ أسقف أفضل منى ولم يعين من قبلى؟ ألم يتول إدارة الأسقفية التى عين عليها وفقاً لكل مبادئ الفضيلة؟ ألم يقض ثلاثين عاماً في الأبرشية؟ ليست هناك أية بلدة تطلب أحداً من هؤلاء لو تقبله. أى شخص من بينهم يطلبه ويخشى الله فليذهب إلى المناطق السفلى". لقد أمر بأن كل من سيقبل سيقوم الجميع بمساعدته في رحلته.

في الحقيقة بالإخواني، حتى إذا أراد جورجوس المبجل نفسه أن يقبلهم فإنه لم يكن ليعثر على واحد من بينهم جدير بمنصب الأسقفية، لأنهم كانوا رجالاً متكبرين متعجرفين مغرورين مشاغبين مكرين، قادرين على إثارة مجادلات عقيمة، لم يكن نصب أعينهم قط إقرار أحكام الرب الذى نفذ فيهم قول الرسول: (لأنى أعلم هذا أنه بعد ذهبي سيدخل بينكم نواب خاطفة لاتشفق على الرعية. ومنكم أتم سيقوم رجال يتكلمون بأمر ملتوية

(٢٩٢) هو أسقف السوس أو مدينة شوشان. من أفضل الدعاة إلى القسروية في السوس وعيلام، وخبرة أساقفة المشرق صلاحاً. (اللاؤ المنيور ص ١٩٤)
(٢٩٣) يبدو أن هذه البلدة هي "هراة" في خراسان.

ليجئذبوا التلاميذ وراءهم).^(٢٩٤) لقد تحدث أيضا إلينا عندما كان ينذر مريديه: (احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئب خائفة. من ثمارهم تعرفونهم، هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً؟. هكذا كل شجرة جيدة تصنع ثماراً جيدة، وأما الشجرة الرديئة فتصنع ثماراً رديئة. لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع ثماراً رديئة ولا شجرة رديئة أن تصنع ثماراً جيدة. كل شجرة لاتصنع ثماراً جيداً تقطع وتلقى في النار. فإذا من ثمارهم تعرفونهم).^(٢٩٥)

في الحقيقة كان هؤلاء أشجاراً رديئة، أطعمت الكنيسة وشعب الله ثماراً مرة. والآن سأوضح إلى أي هاوية عميقة سقطت البلدة، ولكن لا لوم على جورجوس المبجل ولا على الأساقفة، لأنهم قاموا بطردهم من الكنيسة.

بالنسبة لى يا إخوانى، فإنى لا أفهم كيف أن يوحنا الذى نشأ وعاش النقاء والطهر فى الحياة النسكية، والذى كان معروفاً بزهده وتقواه، كما كان محط الثناء والتقدير من الناس جميعاً، كان قد استجاب للتبرك لمثل هذا الكهنوت البسيط. إن بلدة آمد كان لديها لثان من الأساقفة أو ثلاثة، بل ربما زادوا إلى ثلاثة أو أربعة. إن أساقفتها الأصليين كانوا أفضل من الذين عينهم يوحنا.

كان أحدهم مار ساويرس من دير زوقنين المقدس، وهو رجل مشهور بتقوى الله. ونظراً لضعف بصره فقد أبعد عن الأعمال المدنية، فذهب وأقام فى ديرهِ إلى نهاية حياته، وقد خلفه مار أباً من أبرشية مار حبيب فى أرزون،^(٢٩٦) رجل هادئ ومتواضع، يتحلى بكل الفضائل الإلهية. علاوة على أنه كان يوجد فى تل بسم رجل تقى يدعى سرجون من دير مار أثاناسيوس.

(٢٩٤) العهد الجديد: أصل القول ٢٠: ٢٩ / ٣٠.

(٢٩٥) العهد الجديد: إنجيل متى ٧: ١٥ / ١٦ / ١٧ / ١٨ / ١٩ / ٢٠.

(٢٩٦) مدينة كبيرة، كانت شمال غربى سمرة، أطلقها مقلد. (القول المنشور ص ٥٠٤)

كانوا جميعاً قد تقدمت بهم للمن، ولكن رغم وجود هؤلاء المبجلين بالبلدة فقد رُسِم آخرون، كان أحدهم من دير حريز^(٢١٧).

إنى أسجل تلك الأحداث يا إخوانى، لأنى أريد أن أكتشف الميئآت التى حلت علينا بعد ذلك، ولا يلوم أحد للكتاب قبل أن يكون قد رأى ثمار تلك الأشجار الرديئة (إن هيئة الرجل تدل على أعماله وآثاره تشهد عليه)^(٢١٨) ها هم الرجال وأعمالهم أمامهم.

عندما انتهى السينيوس ذهب كل واحد إلى بلده، وكذلك عاد جورجوس المبجل إلى أبرشيته. عاش هؤلاء الرجال المساكين فى عار شديد واضطراب كبير، ولكنهم لم يقبوا فى أديرتهم محاولين إخفاء خجلهم وعارهم يتوارون عن أعين الناس، بل أخذوا يعملون على إشارة القلائل وإشاعة الفتن وبث الإشاعات بين الناس، محاولين الانتقام من جورجوس والذين معه. ولكن جورجوس كان على حذر شديد فيما يدبرون له، وكان يخشى أن يتكرر ما حدث؛ حيث توجه إلى ديريه واتخذ قراراً بالآ يدخل أى مدينة أو بلدة أو دير إلا إذا جاء عظماء للمنطقة وكانوا فى استقباله.

وحدث فى هذا العام أن جاء سكان حران إلى جورجوس ليجثوا عنه، وذلك بسبب وقوع نزاع بينهم وبين أسقفهم. وما كاد ينتهى الأمر الذى حضروا من أجله حتى جاء سكان آمد بصحبة أسقفهم مار أباء، متوسلين إليه أن يتفضل بالحضور لزيارتهم. ونظراً لمنصبه باعتباره راعياً صالحاً فقد وافق على طلبهم ولبى رغبتهم، وكان كلما مر على القرى والمدن التى كانت فى طريقه إلى آمد استقبله أهلها بحفاوة بالغة، كما خرج سكان آمد عن بكرة

(٢١٧) عرف "دير حريز" باسم "مار كورليس" (جرجى) فى ولاية سبيليك ورد ذكره لأول مرة فى أواخر القرن السابع، وآخر عهدنا به فى أواسط العشر. تخرج فيه بطريرك وخمسة أساقفة. (اللاوى المنشور ص ٥١٠)

(٢١٨) العهد القديم: الأسفل للمنحولة، يشوع بن سيراخ ١٩: ٢٦.

أبيهم لاستقباله فى أبهة عظيمة لائليق إلا بمثل هذا الرجل. ولم يكذب يقيم بينهم حتى جاءه أهالى دير زوقتين، أى كل شيوخ هذا الدير،^(٢٩٩) المبجلين فى هذا الدير مع رئيسهم مار أوتاليس، وكذلك ضيفهم ديونسيوس الذى أصبح فيما بعد أسقفا لحران واصطحبوه إلى أبرشيته. إن جورجىوس المبجل كان يريد منذ فترة أن يرى هذا الدير وأن يصلى فيه. بعد أن حقق رغبته وسعد بحب أبناء الدير مر على حاتى،^(٣٠٠) ووصل إلى تل دوكوم. وعندما أراد أن يتوجه إلى ديره قام الشيطان - الذى هو منذ البداية عدو للخير - بإثارة مريديه الذين هم أنصاره، فأكملوا الخراب، لأنه عندما رأى أنه استقبل بحفاوة من الجميع، فهم أنه سيسود السلام فى الكنيسة، وسيخفى الاضطراب والانقسام منها؛ فتوجه بعض عملائه - كما سبق أن قلنا - وجاءوا إلى الملك وبثوا الإشاعات المغرضة ضد جورجىوس المبجل، وضد كل الأساقفة. ومما أشاعوه قولهم: "إن جورجىوس يدعى أنه هو الملك وليس أنت". لذلك تكلم النبى عن هؤلاء بحق (رؤسؤك متمردون ولغفاء للصوم، كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع العطايا، لا يقضون لليتيم ودعوى الأرملة لا تصل إليهم).^(٣٠١)

ها هو التعذيب الذى يمد جذوره وتتفتح أزهاره التى تثبت ثمارا سامة. تعالوا انظروا إلى الأشجار ومن ثمارها اعرفوها. لقد غضب الملك عندما سمع هذه الإشاعات، وتصادع غضبه كالدخان وزأر كالأسد عندما يرى فريسته، وأرسل رسلا قد اشتهروا بالسرعة والنشاط، للبحث عنه وعن أساقفة الجزيرة.

(٢٩٩) 'دير' كلمة آرامية بمعنى 'المسكن' أو 'المنزل'، ثم أطلق على البيت الذى يتعبد فيه الرهبان. (نصارى بغداد ٤٣)

(٣٠٠) بلدة على مسافة ٥٠ كم تقريبا شمالى آمد. LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T. XII. P. 265.

(٣٠١) العهد القديم: إشعياء ١: ٢٣.

كان جورجيوس لا يزال في تل دوكوم، ثم قاموا بنقله منها مباشرة إلى حران، حيث لم يسمحوا له حتى بدخول للدير، وهناك اجتمع جميع الأساقفة في تلك البلدة، ومنها اتجهوا إلى الملك في بغداد، حيث كان يقيم في ذلك الوقت.

كان هذا الملك لا يسمح أن يحرك أحد من الرعية يده أو رجله إلا بإذنه على امتداد مملكته، ومن يقدم على شيء من ذلك دون علمه فإنه، أي الملك، لا ينعم بالراحة قبل أن ينهى حياته، سواء كان فارسياً أو عربياً أو سورياً. كما كان معروفاً بتصديق كل ما يتراعى إلى سمعه من أكاذيب وإنشاعات، حتى كان يعتبر كل من يوشى له صديقاً حميماً.

عندما وصل الأساقفة إلى بغداد قادوهم إلى الملك. وبمجرد أن وقع بصره عليهم ثارت ثائرتة كالذئب الذي يريد أن يلتهم فريسته، وتوجه لهم بكلمات قاسية، وطردهم من حضرته، ثم أمر بسجن جورجيوس المبهل وأن يكبل بالأغلال. بعد أن أمضوا هناك بعض الوقت أصدر أمراً إلى الأساقفة قائلاً "اختاروا من بينكم من ترونه قادراً واحتفظوا به في ذاكرتكم ونصبوه قائداً لكم واذهبوا". وهكذا استعمل الرحمة معهم. لقد أراد الجميع اختار "داود" من دارا. لقد قيل إن كل هذا حدث بسببه، فقد كان رجلاً مسناً، وقال الجميع: "لو أنه اختير أحد غيره فلن يدينوا له. فهو لن يعيش طويلاً وجورجيوس سيخلفه". لم يكن داود يجهل تلك النوايا، وسواء وافق أو رفض فإنه قد أصبح بطريركاً. لقد منحه الملك تفويضاً بسجن كل من يخرج على طاعته وبضربه وبتعذيبه أيّاً كان جنسه، أما عن جورجيوس فقد ظل رهيناً في السجن. من هنا وقع الانقسام في الكنيسة وفي شعب الله.

إن الخزي والاحتقار ازداد على الكهنة والأساقفة، لدرجة أن أحداً منهم لم يكن يجرؤ على المرور في شوارع المدينة، كما أطلقوا عليهم اسم قتلة وسافكي دماء. لقد وصل الاحتقار إلى حد رفض الأهالي المساهمة في

القربان الذى قدمه أحدهم، وكان يقال له: "لقد جعلت ذكرى لاسم داود عند تقديسها". ها هو الحصاد السيئ والشيلم السيئ الذى زرعه الشرير عن طريق مريديه. فذهب داود المبجل مع الأساقفة الذين صحبوه إلى الموصل ثم إلى تكريت. وبدلاً من أن يقام له احتفال بطريركى فقد استقبلوه بالاعتراض والإتكار، بل كانوا يدعونه قاتلاً وسافك دماء. ولكنه لم يكن ليغضب من أحد ولا يشتكى، وإنما كان يهب كل شيء إلى الرب، واتخذة ملاذاً وملجأ يخفف عنه هذا البلاء. كان يقول: "تعم لقد اشتركت فى خيانة جورجىوس، وسألقى جزاء عملى". فى الواقع رغم كل ما قدم فى الكنائس من تبريرات مصحوبة بالأدلة والبراهين على براءته لم يصدقه أحد، لأننا كنا نقول إن الآخرين لم يُقدِّموا على ما فعلوا إلا وفقاً لنصيحته. وهكذا لم يستقبل بترحاب أو حفاوة من أحد بسبب ظلمه لجورجىوس المبجل، ولكن نتيجة لهذه الإهانة لم ينتقم لنفسه لما لحقه من إهانات، ولم يجبر أحداً على تسميته، ولكنه قال: "من يرغب فى تسميتى فليسمنى ومن لم يرغب فلا سلطان لى عليه". ومن هنا ظهر أنه كانت تحاك له المؤامرات سرّاً، وذلك لوجود مرسوم قوى. ولكنه لم يلجأ إلى مؤاخذه أحد، حتى عندما كان يسمعونهم يسيبونه، وعندما كان يرسل أسقفاً من قبله إلى بلاده ما كان الأهالى ينفضون من حوله. ولو حدث أن قدم هذا الأسقف قربانا كانوا يرفضونه ولا يقبلونه منه، كما كانوا يحتقرونه هو وما يقدمه من قربانين. ولو حدث أن توجه لهم رجل تقى بالنصيحة قائلاً: "إن عقاب الرب سيحل بكم نتيجة تصرفكم". كانوا يلاحقونه بمعاملة أسوأ من معاملة الأسقف، وكانوا يتنقلون بين الكنائس قائلين: "إننا لن نتلقى القربان من مثل هذا الأسقف لأنه يدعى داود".

إن الرداء الكنسى أو الأسقفى قد أصبح محتقراً فى نظرهم، ولو حدث أن رأوا أسقفاً لا يعرف داود ولا جورجىوس كانوا يلاحقونه بالسخرية والاستهزاء، حتى يقر أن الاثنين مجرمان وملعونان. وهكذا انتهى بعضهم إلى عدم تلقيب أى منهم.

استمر هذا الانقسام حتى انتهى إلى خراب الكنيسة وموت دلود، ها هي الثمار الرديئة التي أنتجتها تلك الشجيرات السيئة. فنتظر واستمع للكارثة التي حلت بنا، نتيجة لتلك السيئات. فليكن معلوماً يا إخواني أنه ما من مرة اضطربت فيها الكنيسة إلا وحدثت هزة في الحياة العامة. فكما حدث من قبل أن وقع اضطراب في الكنيسة، تبعه اضطراب في الحياة عامة، فشمّل جميع الأهالي في فواحي المنطقة بأسرها.

عام ١٠٧٩ يونانية (٧٦٧-٧٦٨م) تقرر بناء قلعة أرشميشاط^(٣٠٢) بجوار نهر أرسيناس^(٣٠٣) وبمجرد أن بدأ البنّاعون والعمال في البناء الذي بلغ ارتفاع قامة رجل إذا بقوة رومانية قد جاءت، وأقامت معسكرها على ضفة النهر المقابل للقلعة، وقد صادف ذلك يوم الأحد المقدس، ولذلك لم تكن قد تلقت الأمر بالقتال بعد. وبينما كان الرومان يعسكرون ويقدمون القرابين ويأكلون الخبز إذا بأهالي القلعة يهجرونها ويولون الأدبار، تاركين وراءهم كل شيء، فعبر الرومان إليها واستولوا على كل ما تقع عليه أيديهم، ثم أشعلوا النيران. لقد أحرقوا المبنى، وأخذوا كل شيء وجدوه وحملوه وعادوا إلى بلادهم. جمع العرب المهندسين والعمال من جديد، وأعادوا بناء القلعة. وأرسل عباس رسائل إلى كل بلاد ما بين النهرين، يأمر فيها العرب أن يتوجهوا جميعاً عن بكرة أبيهم إلى حران كباراً مع صغار، فامتثلوا للأمر تاركين محاصيلهم دون أن يحصدوها، لأنهم كانوا في عجلة من أمرهم لكسب الزوازي.

(٣٠٢) أرشميشاط أو شمشاط، مدينة كانت ببلاد الروم على شاطئ الفرات، شرقاً نالو وغرباً نهر بوت، في طرف أرمينية، وهذا الاسم يعني بلدة "أرسام" Arsame لقد أُنشئت وفقاً للتقاليد في القرن الثالث من الميلاد، بواسطة ملك من أرمينيا الغربية يدعى "أرسام". في العصور الوسطى كان أهالي أرمينيا يدعونه "شموشاط" واليونان "شموساط". (الاولو المنشور من ٥٠٤)

(٣٠٣) أرسيناس هي الفرات الغربية. لقد أطلق القدماء اسم أرسيناس على نهر عظيم في أرمينيا.

LEBEAU: HHS. DU BAS EMPIRE.T.XII.P.266.N4.

تجمع العرب كلهم، ونزلوا جميعا على أمر عباس، ولكنهم لم يجنوا إلا الخسارة، لأنه من الصعب على الشرير أن يتحول إلى صالح. لقد انتظروا طويلا حتى إن محاصيلهم فسدت، وقد عين نحو ستمائة رجل فى القلاع، وطرده الباقين فلم يحملوا إليهم إلا الخسارة.

فى هذا العام مات ديونسيوس أسقف حران، وتبعه ديونسيوس آخر من دير زوقنين. وفى هذا العام أيضا مات أسطفان من حابوراء، الذى خلفه... (٣٠٤)

عام ١٠٨٠ يونانية (٧٦٨-٧٦٩م) توفى الأسقف "زكريا" فى الرها، وتولى الأسقفية بدلا منه الأسقف يوحنا من تلا. فى تلك الفترة كان "إليا" يقيم فى الرها، فى أبرشية قرتمين، وهو رجل متبدل الحس ينزع إلى الشر، لم يفكر فى الرب قط. لقد عين أسقفا للرها، ليس لأنه جدير بالأسقفية، ولكن لأن أهل الرها كانوا فى حاجة إليه. ومع كل لم يقبل ولم يوافقوا على انتخابه، ولكن الأمر يرجع لأسباب جوهرية ليس هذا مقام عرضها. وظلت الرها دون أسقف، وفى تلا جاء أسبينوس خلفا ليوحنا.

فى تلك الفترة لمع اسم مرجون من ماردين، والبطريرك داود، ومار أبنا من آمد، وقسطنطين من سميساط، وبولس من تكريت.

فى هذا العام عم الرخاء والازدهار فى كل شيء، فالقمح كان بثلاثين قفيزا، والنبذ أربعين سبدا بزوزا، والزيت ثمانية لترات بزوزا واحدا. كانت المنطقة تفيض بالكروم والحقول المزروعة، وكانت الدواب كثيرة مثل رمال الصحراء. جاء زليد وعاقب للمرابين، هؤلاء الذين أعطوه زوزا لكل دينار، فأخذ تلك الجزية وذهب دون أن يزجج أحدا.

(٣٠٤) هذا فراغ فى المخطوطة.

فى هذا العام أيضا سقطت أحجار من السماء، أحجار سوداء شاهدها الكثيرون ولمسوها، وقد ظلت حتى يومنا هذا. وقد ظل الناس يتساءلون: كيف صعدت هذه الأحجار إلى السماء؟ ومن أين أتت؟ ولا يعلم سر ذلك إلا الرب وحده. فى المنطقة التى سقطت فيها لم يوجد أى حجر أسود، ولكن تأكد أيها القارئ أن الرب يفعل كل ما يريد سواء فى السماء أو فى الأرض.

عام ١٠٨١ يونانية (٧٦٩-٧٧٠م) حكم الموصل رجل سيئ وشرس، يدعى "موسى بن صعب". إنه هو الذى تنبأ به النبى عندما قال: (الذى جعل العالم كقفر وهدم مدنه الذى لم يطلق أسراة إلى بيوتهم).^(٣٠٥) هذا الرجل لم يكن له شبيه لا بين الملوك الوثنيين ولا بين المجوس ولا بين المانويين. لقد أدخل العالم فى حصار لا نظير له، فمذ أن خلق العالم وحتى يومنا هذا لم يحدث اضطراب مثل ذلك الذى حدث. إذا أراد أحد أن يطلق عليه اسم المسيح الدجال وعلى عملاته اسم "رسل أبناء الهلاك" فلن يكون هذا ظلما له، بل سيكون اسمه الحقيقى الذى يستحقه (الحاكم المصطفى إلى كلام كذب كل خدامه أشرار).^(٣٠٦)

وكما ذكرنا فيما سبق أن الزى الرهبانى المحترم قد أصبح محتقرا، كما استهزئ بالأساقفة والرهبان، وقد تجرأوا أيضا على القربان فسفروا منه، حتى كان الرهبان يخشون الخروج إلى الطرقات بسبب السباب واللعنات التى تنهال عليهم، وخاصة من شعب تكريت وأرسدونيا والموصل، ولذلك حلت الكارثة أولا على سكان تلك المدن؛ فقد أصابهم العقاب الإلهى وطاردهم وجعلهم ينزحون إلى أراضٍ بعيدة. لم يجد للملك رجلاً يروق له خارج هذه المنطقة، فإنه مكتوب (فأرسل شاول إلى يقول ليوقف داود أمامى لأنه وجد

(٣٠٥) العهد القديم: إشعياء ١٤: ١٧.

(٣٠٦) العهد القديم: الأمثال ٢٩: ١٢.

نعمة في عيني). (٣٠٧) لقد وجد عبد الله بن محمد في موسى رجلاً يروق له، يرتكب الإثم أمامه كل يوم. عندما أصبح موسى حاكماً للموصل زار كالأسد عندما يهجم على فريسته قائلاً: (أتبع أعدائي فأدركهم ولا أرجع حتى أفنيهم)، (٣٠٨) (أسحقهم فلا يستطيعون للقيام، يسقطون تحت رجلي)، (٣٠٩) (يصرخون ولا مخلص، إلی الرب فلا يستجيب لهم)، (٣١٠) (فأسحقهم كالغبار قدام الريح، مثل طين الأسواق تطرحهم). (٣١١)

في الواقع لقد أهلك سكان المنطقة، فأهلك الرجال الذين يعملون في الأرض فضر بهم، ولم يتمكنوا من الصوم أمامه وسقطوا تحت أقدامه. لقد داسهم كلهم الشوارع في المدن وجعلهم كالغبار في يوم عاصف، فكانوا يتركون مواطني سكناهم هائمين على وجوههم في البلاد، يتوسلون إلى الرب لكي يخلصهم من أيدي هذا الرجل، ولكن الرب لم يستجب لهم. لقد امتثلوا لأمر الرب في انتظار الخلاص. لقد طلب موسى من الملك أن يسمح له باستقدام كل من هرب من الموصل حتى يشيعوا الاضطراب في البلاد. ثم أذاع في كل المنطقة أن الأمن مستتب وأنه ليس ثمة شاك أو متمرّد. وعين على كل ثلاث مدن من بلاد الجزيرة رجلاً من قبله، نظراً لكثرة عدد من معه من الرجال، فكان على أمد وأرزون وميافرقاط رجل قاسي القلب، لا يقل قسوة عن أرسله، يدعى "آدم بن يزيد". كان رجلاً جشعاً لا يتقى الرب فيما يأتي من أعمال. في تلك الفترة كان شعب الموصل الذي كان يعيش في أرض الجزيرة قد أصبح أكثر ثراء، بسبب عمل سكان المنطقة الذي كان يلتهمه بالبدل غير القانوني. وقد قال الرب: (لا تقرض أخاك رباً رباً فضة أو

(٣٠٧) المهد القديم: صموئيل الأول ١٦ : ٢٢.

(٣٠٨) المهد القديم: المزمير ١٨ : ٣٧.

(٣٠٩) المهد القديم: المزمير ١٨ : ٣٨.

(٣١٠) المهد القديم: المزمير ١٨ : ٤١.

(٣١١) المهد القديم: المزمير ١٨ : ٤٢.

ربا طعام أو ربا شيء ما مما يقرض بربا)،^(٣١٢) (فضنك لا تعطيه بالربا وطعامك لا تعط بالمرابحة).^(٣١٣)

لقد كانوا يفعلون كل ما هو ممنوع، كانوا يقرضون بالربا يعطون أموالهم بالاسترجاع وبأسعار باهظة. لقد أصبحوا سادة يقتنون العبيد والإماء والخيرات والكروم والأراضي، وبالتدريج يملكون كل الأراضي ويملكون الخيرات والكروم والضياع، حتى كانوا أن يضعوا أيديهم على البقاع التي تتكلم لغة أولاد آرام وكل بلاد الجزيرة التي كانت على وشك أن تصبح من ممتلكات أهل نوسيباد.^(٣١٤) كانوا يجلسون في الأماكن العامة مثل الحكام ورؤساء المدن، كانوا يعتبرون كرؤساء الكنائس، وكانوا هم أنفسهم يقومون بتقسيم المنطقة إلى مناطق نفوذ لهم (في الإيمان مات هؤلاء أجمعون وهم لم ينالوا المواعيد بل من بعد نظروها وصدقوها وحيوها وأقروا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض).^(٣١٥)

فإذا كانوا قد دمروا بلادهم فكيف يتسنى لهم إثراء بلد جيرانهم؟ إن القول النبوي نفذ فيهم (لا تفر من الأشرار ولا تصد عمال الإثم. فإنهم مثل الحشيش سريعا يقطعون ومثل العشب الأخضر يذبلون).^(٣١٦) حقيقة لقد بلغوا قدرا من الغرور والغطرسة والتكبر فاق كل التصورات (الرب يقلع بيت المتكبرين ويوطد تخم الأرملة).^(٣١٧)

(٣١٢) العهد القديم: التثنية ٢٣: ١٩.

(٣١٣) العهد القديم: اللاويين ٢٥: ٣٧.

(٣١٤) لعلها نوسيان أو هي النوسى أو غيرها. نلحية كلفت بين الكوفة واسط، وقد ورد اسم هذه البلدة ثلاث مرات في التاريخ الكنسي لابن العبري ج ٢ ص ١٧٧. (اللاوي المنشور ص ٥٢٠)

(٣١٥) العهد الجديد: رسالة إلى العبرانيين ١١: ١٣.

(٣١٦) العهد القديم: المزمير ٣٧: ١/ ٢.

(٣١٧) العهد القديم: الأمثال ١٥: ٢٥.

لقد انتزعوا وذبّلوا كزهرة تحت الشمس، عندما جاء الذى تحدثنا عنه آنفاً،^(٢١٨) وحاول دخول تلك البلاد وفرض سلطانه عليها، ففروا جميعاً هاربين. ولما كانوا جميعهم تجار حبوب ويقول كانوا لا يملكون عقارات ولا ضياعاً، فجمعوا تجارتهم وأخفوها، وحملوا أولادهم على أكتافهم وولسوا الأدبار فى حالة يرثى لها. كانوا يتساقطون فى الجبال عراة جائعين، ويترنحون كقشة فى زوبعة. البعض دخل فى حجرة داخل حجرة كالأموات فى أماكن سرية ومظلمة، لاتقع أعينهم على شعاع من نور، حتى انتشرت على أجسامهم القروح وفقدوا المظهر الإنسانى، وأصبحوا يشبهون الأموات الرافدين فى القبور، كان ذلك فى فصل الصيف، مما ضاعف من آلامهم. إن الذين هربوا ماتوا جوعاً مع أولادهم فى الجبال والكهوف، بينما كانوا يتنقلون من جبل إلى آخر، أما الذين كانوا مختبئين فى المنازل فقد ماتوا من الحمى وأيضاً من الخوف والحزن والحرارة، حتى أصحاب المنازل الذين كانوا يأوونهم كانوا خائفين أكثر منهم، لأنه ما من صاحب منزل يضبط متسترأ على أحد من هؤلاء إلا أنزلوا به لشد العقاب، لقاء جريمة تستره. وقد أعلن منادٍ "أن كل من يتستر على رجل من الموصل سوف تصادر أملاكه علاوة على ما يتخذ ضده من إجراءات". منذ ذلك الوقت وقع الخوف فى قلوب الناس، وطرّدوا من لجأ إليهم. وأعلن بشير أيضاً "أن كل من يسلم رجلاً من أهل الموصل فله مكافأة قدرها أربعون زوزاً". عندما سمع أهل المنطقة قساة القلوب الذين لا يراعون حق الرب ذلك، ووجدوا فيه فرصة مناسبة للكسب، أخذوا فى مراقبة المنطقة، حتى إذا اضطر أحد المختبئين للخروج تحت جناح الليل بحثاً عن الطعام ألّقوا القبض عليه، وأخذوا يساومونه على حياته دون رحمة قائلين: "أعطنا ما معك أو نسلمك ونقبض الأربعين زوزاً المكافأة". كانوا يفتصبون ما معه من نقود طوعاً أو كرهاً ثم يتركونه وشأنه، وربما

(٢١٨) هو آدم بن يزيد.

وقع فى أيدى فئة أخرى أشد قسوة وغلظة من سابقتها. ولما كان رجلا داهية وفطنا لم يكن يجهل للمكان الذى كانوا يخبئون فيه شيئا، كما لو كان الشيء المخبوء نفسه يناديه قائلا: "أنا هنا وأنا ملك لفلان". لقد وجد كل شيء وانكشف له تماما، فيضع يده عليه كما لو كان هو الذى أخفاه أو وضع تلك الأشياء. ذلك هو ما كتب عن ذلك للرجل البائس.

أما بالنسبة للرجال الذين تزوجوا نساء سوريات فقد أنجب لهم أولادا ذوى سحنة سورية، حتى أصبح من العسير تمييزهم عن أولاد الأراميين، إلا أنه استطاع تمييزهم فى سهولة ويسر. لقد حبس كل شيوخ البلدة حيث كانوا يقيمون، وانهال عليهم تعذيبا وتكديلا حتى اضطروهم إلى دفع ما فرضه عليهم من إتاوات، كما احتجزهم جميعا وسوى بينهم وبين عبيدهم الذين اشتراهم مع كل ما كانوا يمتلكون، وضمه إلى حوزته.

إن حالهم يدل على ما يفعل الصباغ بالثوب حين يحوله من لون إلى لون آخر. ثم حملهم على العودة إلى بلادهم، هناك قبض عليهم حيث انتشرت بينهم المجاعة، وتفشيت فيهم الأمراض المختلفة والأوبئة، حتى إنه لم يبق منهم على قيد الحياة إلا فئة قليلة. الأغنياء والفقراء الذين كانوا بينهم باعوا كل ما يملكون وسلموهم المبالغ، وعاشوا معدمين ولم يبق لهم شيء. ورغم أن هذا المجرم كان قد عاهدهم على ألا يستولى على أى زوا لو فليس من أى منهم فإنه بدأ يطلب بدلا من الزواى ذنانير ذهبية مما اضطروهم إلى بيع كل ما يملكون، حتى يدبروا له المبالغ المفروضة عليهم.

عن العلامة التي ظهرت في السماء على هيئة مكنسة

في عام ١٠٨٠ يونانية (٧٦٨-٧٦٩م) في شهر أيار (مايو) ظهرت علامة على شكل مكنسة في الشمال الشرقي. عندما كانت تظهر في هذا الركن من السماء كانت تبدو كثيفة مرتفعة في السماء، كما لو أنها قد كنست البيت من التراب. ومع الصباح شاهداها نتجه بقاعتها نحو الأرض، ثم أخذت تتقدم شيئا فشيئا إلى الأمام إلى أن وصلت إلى محور العجلة في السماء، حيث تبددت واختفت.

إن هيئتها كانت تتفق تماما مع ما أوضحناه من قبل. وهذه العلامة كانت سببا معقولا لأن تسمى مكنسة، لأنه مثلما كنا نأتي بالجاروف والمكنسة إلى المنزل بهدف تنظيفه وكنسه، بالمثل كان يكس العالم ويهلك كل ما بداخله.

في البداية في هذا العام هلك كل الحيوانات البرية وخاصة الصغيرة، لقد اكتست الأرض بطبقة كثيفة من الجليد استمرت لفترة طويلة حتى إن الدواب نفقت من شدة الجوع.

وقد وقعت حوادث كثيرة، وحدث أن سقطت الثلوج في كل مكان، حيث فاجأت قطيعا من الضأن والماعز فأهلكته، وكذلك رعائهم. ثم هبت ريح عاصفة من الشمال والغرب مصحوبة بثلوج كثيفة، استمرت ثلاث ليالٍ وثلاثة أيام، مما أدى إلى هلاك الكثير من البشر والدواب، وخاصة الصغيرة منها، كما هلك عدد غفير من الرجال في الطريق فسقطوا أمواتا هم ودوابهم.

عن الشعب الذي قدم من المنطقة السفلى ويدعى "عملاقة"^(٢١٩)
في اللغة البدائية القديمة عام ١٠٧٨ يونانية (٧٦٦-٧٦٧م)

في تلك الفترة أرسل الملك بأناس من منطقة فارس، صعدوا واستقر بهم المقام عند حدود بلاد الرومان. كان هؤلاء الناس عراة حفاة، وكذلك كانت زوجاتهم وأولادهم، لأنهم كانوا يعيشون على الفطرة. كانوا لا يقومون بأي شيء من واجبات الأبوة، كما لا تعلم نسائهم شيئاً سوى شغل الصوف. كانوا يقضون الليل والنهار بعيداً عن أعين الناس، مختبئين في الطرقات للقتل والنهب وقطع الطرق، ولما كانوا يعيشون في جبال منيعة لم يستطع أحد ترويضهم. لقد بلغوا حدّاً من الجراءة بحيث أصبحوا خطراً على الملك، وقطعوا الطريق أمام أمير المؤمنين.

ونظراً لاستفحال خطرهم، ولأن المنطقة بأسرها كانت تائنة ضدهم، سار الملك إليهم قوة كبيرة هزمتهم وقضت عليهم جميعاً، وقامت بحشدهم وأسرهم، وعزم على إبادتهم بحد السيف. ولما كان قد صلب رؤساءهم واستعد لتنفيذ ما عزم عليه إذا ببعض الرجال الأنقياء ينصحونه بأن يتخلص منهم بإرسالهم إلى الحدود في مواجهة الأعداء، فيقيموا هناك أو يقتلوا بأيدي الرومان. وقد استعد على الفور لتنفيذ ما نصحه به الأنقياء، وأرسلهم وأسكنهم في المنطقة الداخلية المضطربة في مواجهة قماح. كانت عدتهم نحو ثلاثمائة ألف شخص، ولكنهم ما لبثوا أن هربوا وانتشروا في المنطقة كلها، ولم يبق منهم إلا عدد قليل. ونظراً لأن الطقس في تلك المنطقة كان شديد البرودة وهم عراة حفاة ما لبثوا أن وقعوا صرعى بمجرد أن أدركهم أول فصل الشتاء، ولكن الذين بقوا على قيد الحياة لم يكفوا عن اقترااف أنسابهم الأولى القديمة.

(٢١٩) كان يطلق عليهم أيضاً "أبطال"، وهم شعب من أقدم سكان سوريا الجنوبية ومن ذرية "عيسو"، وكانوا يقيمون قرب قانس في جنوب فلسطين. (قاموس الكتاب المقدس ص ٦٣٦)

عن ترميم كنيسة آمد الكبرى

وفي تلك الفترة^(٣٢٠) قام أهل آمد بتجديد هائل وعظيم لكنيستهم الكبرى التي كان قد بناها الإمبراطور المؤمن النقي هرقل، فمنذ أن بنيت تلك الكنيسة لم يجز ترميمها قط، ولما كانت قد تصدعت وأصبحت على وشك الانهيار فقد اهتموا بترميمها. إن رئيس الدير مار أبأ وأسقف المدينة الموقر مار جورجوس وتوما رئيس الشمامسة اهتموا بذلك اهتماما بالغاً، وأنفقوا عليه مبالغ باهظة. لقد أصلحوا كل ما كان قد فسد في الداخل واستبدلوا به الجديد، وجعلوا الكنيسة تستعيد رونقها كما كانت عند بدء إنشائها.

عن الأمر الملكي بإحصاء خيرات الكنائس والأديرة

إن الشيطان الذي يكره دائماً الخير لم يتوقف الآن عن إيقاع الانقسامات وإثارة الاضطرابات في الكنائس والأديرة (لأن الابن مستهين بالأب والبنيت قائمة على أمها والكنة على حمايتها وأعداء الإنسان أهل بيته).^(٣٢١)

في تلك الفترة صدر أمر ملكي يقضى بالقبض على رؤساء الأديرة والكنائس، وإحصاء خيرات أديرتهم وكنائسهم ومعابدهم. كان ذلك بسبب أن الشيطان الذي كان قد اختير تلميذاً في المدرسة المقدسة للمبشرين اختير أيضاً رجل من دير مار متى^(٣٢٢) للمقنس في منطقة الموصل يدعى "زعاراً". وبسبب جدال وقع بينه وبين رئيس هذا الدير فقد قلد يهوذا رئيسه الذي سلم

(٣٢٠) يرجع السمعي هذه الأحداث إلى عام ١٠٨١ يونقية (٧٧٠م).

ASSEMANI: BIBL. OR., II. 114.

(٣٢١) العهد القديم: ميخا ٧ : ٦.

(٣٢٢) دير عظيم رُفِعَ بناؤه أولاً في المائة الرابعة، وصار كرسياً مطرانياً. (اللولو المنشور ص: ٥١٤)

سبينا للموت. ولم يستمر تحت سيطرة هذا الخائن، فلم يوسوس إليه الشيطان فقط بأن يفعل مثله، ولكن بأن يتفوق عليه، وذلك بأن لا يرتكب جريمة واحدة بل جرائم عديدة، وألا يخرب منطقة واحدة بل مناطق عديدة، لم يكن يريد هدم دير واحد بل أديرة عديدة. كان يشبه الحمل الذي افترق عن القطيع؛ فقد ذهب إلى جعفر^(٢٢٣) ابن الخليفة وقال له: "إن كل ثروة عائلة هشام وعائلة مروان موجودة في الدير للفلاني". ولم يترك أيًا من هذه الأديرة دون أن يحدده له، فما كان من جعفر إلا أن أرسل إلى الدير رجالا كالوحوش، يجمعون كل ما بداخله، حتى الحلى المستعملة، ويقيدون القسس بقيود صلبة، ويحملونهم إلى جعفر فيعذبهم ويلقى بهم في السجون، معلنا ما كان قد حدثه به يهوذا الثاني.

ولهذا السبب صدر مرسوم في كل مكان يقضى بضرورة إحصاء كل خيرات الأديرة. وبينما كان الجميع يفكرون أنهم سوف يصادرون كل ما لهم حدث لجعفر ما كان قد حدث لبيلشاصر^(٢٢٤) وهو أيضا قد دنس الأواني المقدسة، وأراد استغلالها لنفسه ولمحظياته. هنا أيضا لم يتخل الرب عن كنيسة ولا عن شعبه فأوعز الرب إلى جعفر بالتفكير الماكر الذي يقضى عليه، فأرجع جعفر القساوسة الذين استردوا خيراتهم وعادوا إلى أديرتهم. وهكذا انتهى هذا الأمر، ولم يبق بعد ذلك أبداً بأيّ تفتيش، لأن للروح الماكرة الشريرة أدت إلى هلاك جعفر.

(٢٢٣) هو "أبو جعفر المنصور بن محمد" شقيق الخليفة السفاح، كان يحكم في تلك الفترة. يبدو أن ديونسيوس قد خلط بين أسماء هؤلاء الأمراء. (ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٢٤٢)
(٢٢٤) بيلشاصر أو بلطاشر: اسم أكادي، معناه "يحفظ بيل الملك"، وهو ابن تبتوتيس آخر ملوك الإمبراطورية الكلدانية، وكان شريكه في الملك. (قلموس الكتاب المقدس ص ٢٠٨)

عن ازدهار المدينة، وعن الذنوب التي اقترفوها بها

لإظهار القلق الذي ساد المنطقة سنقوم أولاً بمعرفة ثرواتها، وسنوضح مدى الهوة المحيطة التي تردت فيها تلك المدينة التي كانت غنية ومزدهرة. في ذلك الوقت كانت المنطقة غنية جدًا وخاصة الجزيرة، وكل المنطقة الشمالية كانت زخرة بالحبوب والكروم والأغنام الكثيرة. كانت الأرض تزدهر بمجموعات الخيول وقطعان الماعز. كان الرجال يمتلكون مؤنًا بكميات كبيرة، فكان المحصول لا يكاد ينفد حتى يأتي المحصول الجديد وخاصة من النبيذ والقمح، لدرجة أن النبيذ كان يتكدس على النبيذ والقمح على القمح.

(فسمن يشورون ورفس، سممت وغلظت واكتسبت شحما، فرفض الإله الذي عمله وغهى عن صخرة خلاصه).^(٣٢٥) لم يقولوا تبارك الرب الذي أعاننا، ولكنهم هاجموا ثروات الأبرشيات والكنائس قائلين: "لماذا تحتاجها الكنيسة؟ إنما نحتاجها نحن الذين ندفع الضرائب ولدينا أطفال". في الواقع كانوا يعولون الكثير من الأطفال، وقد أصبحوا أغنياء وتملكوا الثروات الطائلة، فتملكهم الغرور والتكبر والتنافس على ارتكاب الأثام والمعاصي، فاقترفوا الزنا وشرب الخمر والسرقعة وشهادة الزور، وبهذا تردوا في هاوية المعصية (أرسل عليهم حمو غضبه سخطا ورجزا وضيقا جيش ملائكة أشرار).^(٣٢٦)

فعندما كانت تثار قضية بين رجلين ويطلب القاضى شهودا فإن الرجل يذهب إلى مكان عام ويقابل أحد أصدقائه ويقول له: "هل يشهد لى فلانا؟" فيجيب على الفور قائلا: "إنى أقسم على ذلك بالرب" لماذا؟ لقد أقسم اليمين قبل أن يعرف حقيقة القضية. ماذا يستحق شعب مثل هذا؟ وإلا ماذا سيحدث؟

(٣٢٥) العهد القديم: التثنية ٣٢: ١٥.

(٣٢٦) العهد القديم: المزمير ٧٨: ٤٩.

(لِيُنْقَلِ الْعَمَلُ عَلَى الْقَوْمِ حَتَّى يَشْتَقُوا بِهِ وَلَا يَلْتَفِتُوا إِلَى كَلَامِ الْكَذِبِ) (٣٢٧)
(وَفِي الصَّبَاحِ كَانَتْ إِلَى كَلِمَةِ الرَّبِّ قَفْلَةً). (٣٢٨)

كانت القضايا كثيراً ما تثار بين سكان قرية فيما بينهم، أو بين سكان القرى المتجاورة خلافاً على حدود مزارعهم. ولكن البؤساء لم يعطوا أنه عما قريب سوف تحل بهم الكارثة. إنهم لن يملكوا كروما ولا منازل ولا مزارع، وإن ممتلكاتهم ستصبح خاوية من الأهالي، لا يطرقها أو يسكنها أحد حتى إن الهيئة الرهبانية نفسها خرجت عن حدود اللياقة؛ فإن الرهبان بدلا من إسداء النصائح (وقال للجميع إن أراد أحد أن يأتي ورثي فلينكر نفسه ويحمل صليبه كل يوم ويتبعني) (٣٢٩) اقتنوا العديد من الخيول وقطعان الماشية والماعز والأغنام. لقد اشتروا الضياع وأصبح لكل منهم ملكيته الخاصة، وخرجوا لاقتناء الضياع والمنازل في القرى، ليمتلأوا صهوة الثراء والغنى كالوثنيين، ليعيشوا لمتعتهم الخاصة، دون الخضوع للأوامر المفروضة عليهم من الرب. لا تتصور أيها العاقل أي أقص تلك الأشياء من باب اتهام الرجال، ولكني أريد أن أظهر شفقة الرب ورحمته وحكمته، فلنا أريد أن ترى وتفهم بعد ذلك في أي هاوية قد سقطنا، وإلى أي مدى من الضيق قد بلغنا.

عن ثورة العبيد في حران، بلدة فيما بين النهرين

في تلك الفترة تجمع عدد غفير من العبيد قولمه نحو خمسمائة رجل، من "مادی" (٣٣٠) ومن "المسد" ومن "الخزر"، وقاموا في وضح للنهار بغزو

(٣٢٧) العهد القديم: الخروج ٥: ٩.

(٣٢٨) العهد القديم: حزقيال ١٢: ٨.

(٣٢٩) العهد الجديد: إنجيل لوقا ٩: ٢٣.

(٣٣٠) اسم بلاد بعدما نهر أركسيس وبحر قزوين إلى الشمال والشمال الشرقي، وقرية ومركانية بصحراء فارس من الشرق، وفارس وموسيلية من الجنوب، وأشور وأرمينية من الغرب، وكان طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ٦٠٠ ميل، وعرضها من الشرق إلى الغرب نحو ٢٥٠ ميلا، ومساحتها ١٥٠.٠٠٠ ميل مربع. (ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٢٤٢)

مسلح لبلدة حران. لقد وجهوا قواتهم نحو الكنز الملكي، وقتلوا بحد السيف كل من صادفهم في طريقهم، كانوا يبحثون عن الكنز بغرض الاستيلاء على ما به. وعندما علم عباس بذلك انتابه الغضب وجمع قوة غفيرة وخرج لقتالهم، حيث التقى الفريقان في معركة شرسة، وقع فيها كثير من القتلى من كلا الجانبين، ولكنها انتهت بأن دب الخوف في قلوب العبيد وولوا الأدبار، كما سقط أكثرهم صرعى، وبعضهم أخذ أسيرًا، ومن نجا من الموت لاذ بالفرار، وكان رئيسهم من بين الأسرى، حيث تعرض للضرب والإهانة.

عن قيام الملك بغزو المنطقة الشمالية، وعن بناء الرقة وتعرض البلاد للأضرار منذ ذلك الوقت

ربما أثرنا فيما سبق أن نبرز ثراء المنطقة وخصوبتها، وما يكتنفها من الرخاء. والآن نسوق حديثنا أيضا عن الشعوب المتوحشة، وعن كانوا مصدر كل الأضرار. إنه مكتوب في الأنبياء (ويل لأشور قضيب غضبي والعصا في يدهم هي سخطي. على أمة منافقة أرسله وعلى شعب سخطي، أوصيه ليفتتم غنيمة وينهب نهبا ويجعلهم مدوسين كطين الأرزقة) (٢٣١) وأيضا (فإنه يقول أليست رؤساي جميعا ملوكا)، (٢٣٢) (لأجل ذلك لا يفرح السيد بفتياته ولا يرحم يتاماه وأرامله لأن كل واحد منهم منافق وفاعل شر، وكل فم متكلم بالحماقة، مع كل هذا لم يرتد غضبه بل يده ممدودة بعد)، (٢٣٣) (فأصابت يدي ثروة الشعوب كعش وكما يجمع بيض مهجور جمعت أنا كل الأرض ولم يكن مرفرف جناح ولا فتاح فم ولا مصفصف)، (٢٣٤) (قد جاء إلى عيَّاث، عبر بمجرّون، وضع في مخماش

(٢٣١) العهد القديم: إشعياء ١٠: ٦/٥.

(٢٣٢) العهد القديم: إشعياء ١٠: ٨.

(٢٣٣) العهد القديم: إشعياء ٩: ١٧.

(٢٣٤) العهد القديم: إشعياء ١٠: ١٤.

أمتعته. عبروا المعبر، باتوا في جبع، ارتعدت الرامة هربت جبعة شاول)، (٢٣٥) (اليوم يقف في نوب، يهز يده على جبل بنت صهيون أكمة أورشليم). (٢٣٦) لقد تنبأ النبي جيداً بهذا، لأنه قد رأى بعين النبوة هذا الشعبان القاسى، الذى كان دائم التلوى والتلون.

فى هذا العام غادر الملك المنطقة، حيث كان يقيم مع حاشيته ووزرائه، وجاء ليستقر فى المنطقة الشمالية مع قوات لا حصر لها. جاء إلى الموصل فاجتمع الكبار مع الصغار، وشكوا إليه العذاب والنهب والآلام والضرر الذى أنزله بهم "موسى بن مصعب". ولما كان يستعذب الخراب ويكره السلام فقد طردهم بقسوة وغلظة، ووجه كثيراً من الأذى إلى عظمائهم. لقد سر وابتهج لأنه وجد فى "موسى" رجلاً يطيب له قلبه، وقال: لقد وجدت رجلاً يروق لقلبي، سيحقق كل رغباتي، وسينفذ كل ما يختلج بصدري، ومن هذا الوقت سيسبقني أو يسير أمامي فى الظلم طيلة حياتي"، فهو متقدم عليه فى الظلم دائماً. وبينما كان يستعد لدخول الجزيرة علم شقيقه "عباس" أمير الجزيرة الذى كان يعرف أنه رجل يفضل الخراب على السلام. كانت أرض الجزيرة زاخرة بكرومها وزروعها، وكانت مأهولة فى عهد عباس، لأنه كان رجلاً رحيماً ومحباً للسلام. ولقد أرسل على الفور من يعلن للأهالى فى كل البلاد أن اهربوا وانركوا البلاد والقرى، حتى لا يبقى أحد أمامه. ولكن أبناء القرى لم يفهموا مراده ولم يدركوا مقصده، وظلوا على حالهم. عندما دخل وجد منطقة عامرة وجميلة وزاهرة ومليئة بالخيرات، لأن الوقت كان شهر أيار (مايو) وكان ذلك موسم تفتح الثمار. وعندما وقع بصره على تلك المنطقة الغنية المأهولة لم يتصرف كما كان يتمنى أخوه، ولكنه عندما وجد أن تلك المدينة الغنية تحت حكمه فبدلاً من أن يشكره على هذا زار فى وجهه كالأسد

(٢٣٥) العهد القديم: إشعياء ١٠: ٢٩/٢٨.

(٢٣٦) العهد القديم: إشعياء ١٠: ٣٢.

الذى يريد أن ينقض على فريسته. وعندما مثل هذا أمامه لاستقباله بحفاوة لا تليق إلا بالملوك طرده من مجلسه مخذولا محتقرا ولم يسمح له حتى بالظهور أمامه، وقال له: "أين تلك الجزيرة الصحراء التى حدثتني عنها؟" ثم سحب منه سلطاته وعزله ووجه إليه كل الأساليب السيئة والمشينة. بعد أن فعل ذلك بأخيه جاء إلى نصيبين ثم كفر توتا^(٢٢٧) وتقدم إلى الرقة^(٢٢٨).

عن إعادة بناء الرقة

لما كان هذا الرجل يميل إلى اتباع السحرة والعرافين فقد كان يستمع ويلبى كل ما كانوا يشيرون به عليه، وقد استشارهم فى الأزمنة والحكمات فجمع له هؤلاء أقوالا حمقاء ومضحكة، وما إن قدموها له حتى أصابه الجنون، وكانت تلك هى عادة للشياطين، تحريض الخاضعين لهم على اقتراف الخطأ، وقالوا له: "سيكون هناك ملك قوى يبنى مدينة بجوار الرقة، ثم يذهب بعد ذلك إلى أورشليم حيث يقيم مسجداً هناك، وسيحكم لمدة أربعين سنة". فقال هذا المسكين: "إنه أنا". فأتى بعمال من كل أنحاء الجزيرة وأمرهم بقطع الحجارة كما أمر أن يقوم المهندسون ببناء سور.

عن هروب الأرمن من مملكة الرومان، وعن الهزيمة التى سببها العرب للرومان

بينما كان الملك بقيم فى الرقة خرج الأرمن من مملكة الرومان، وجاءوا يطلبون من الحاكم، الذى كان فى ذلك الوقت مكلفا بالإشراف على القلاع الداخلية، يطلبون منه المثل أمامهم. كانوا يريدون دخول الجزيرة،

(٢٢٧) مدينة كانت بين دراء ورأس عين فى الجنوب الغربى من ماردين، وهى الآن قرية فى أرض مستوية، وهى ذات نهر وشجر وزرع. (القول الممتور ص ٥١٨)
(٢٢٨) مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حران ثلاثة أيام، معودة فى بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقى. (معجم البلدان ج ٢ ص ٨٠٢)

كان هؤلاء من بين الذين دخلوا مع كوشان، حينئذ دخلوا واصطحبوا عائلاتهم، ثم خرجوا فتصدى العرب لهم. ولما علم حاكم "قماح" بذلك أعد قوة كبيرة، وخرج لمطاردتهم، حيث أدركهم مع عائلاتهم بينما كانوا يسكرون في السهل. لقد كان الأرمن مكرين منذ القدم، وكانوا يعيشون دائما على الخداع، فهرب بعضهم وأخبروا العرب بمكان معسكرهم الذي لم يكن يبعد عنهم كثيرا. وبينما كان الرومان يخلدون إلى النوم في معسكرهم آمنين انقض عليهم العرب فجأة في الليلة التالية فانقضوا عليهم بحد السيف وقتلوا الكثيرين منهم وأسروا عددا كبيرا. وقادوا الأسرى إلى ملك الرقة، كما حملوا إليه رهوس القتلى. كانوا يطمعون في الحصول منه على مكافأة بالإضافة إلى الشهرة والنصر، ولكن بدلا من منحهم المكافأة، فقد استقبلهم بقسوة وغلظة، وقيل أيضا إنه جردهم من كل ممتلكاتهم.

عن المعقل الذي أرسله إلى البلد

عندما رأى أن المنطقة أهلة بالسكان أراد أن يجرى تعديلا في القانون، ليس لأنه سعيد بخصوبة المنطقة وراثتها، ولكن بهدف فرض ضريبة الجزية على الرهوس وضريبة الخراج على الأراضي. لقد جاء بأناس مكرين ومحتالين، وعينهم ولاة وأوفدهم إلى البلاد، ليسجلوا كل الأفراد الخاضعين لضريبة الجزية.

عن الصافي والمعشر^(٢٣٩) اللذين أرسلهما أيضا إلى البلد

عين الملك أفرادا قساة القلوب من أجل الصافي والمعشر، ولكن الحاكم الذي عين من أجل الصافي كان رجلا مجوسيا لا يؤمن بالرب، وليس فسي قلبه رحمة. لقد جاب كل بلاد الجزيرة من أجل إحصاء الأسواق، وكل مكان

(٢٣٩) المعشر هو من يقوم بتحصيل ضريبة المعشر.

كان معداً للبيع والشراء، وكذلك متاجر الأسواق. وكل متجر في مكان عام لم يكن مثبتاً في التعديل قام بمصادرته، واعتبره ملكاً للملك، وكذلك الطواحين. كان يقيس الأماكن للعامّة بالحبل بادئاً من باب إلى آخر من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب. أما خارج المكان للعام فكان يقيس مسافة أربعين ذراعاً من كل جانب. وكان يحصى المباني سواء المنازل أو المتاجر التي تقع في محيط الأربعين ذراعاً ثم يقوم بتسجيلها. كان يسجل في المصافي أيضاً، كما لو كان ملكاً للملك، كل مكان لم يسجل في التعديل سواء كان حديقة أو طاحونة أو حقلاً مزروعاً. لقد أحصى أيضاً سور المدينة على امتداده، وسجله مع جوانبه، وسجل كذلك أربعين ذراعاً حول المدينة. كذلك فعل في كل مدن الجزيرة وفي المنطقة الغربية، لأنه جاب أرض الجزيرة وغربها، وحتى أرمينيا الرابعة. وقد قام بعض الرجال ليستأجروا تلك الأماكن، أما هو فقد ذهب إلى حران، ولكنه لم يجد بها غير السلب والنهب، حيث كان النازح منها معرضاً للمطو، وكذلك القادم إليها لا ينجو من السلب والنهب والتجرد من كل ممتلكاته. كانوا يستولون على ممتلكات أى شخص سواء كان مشترى أو بائعاً، ويغتصبون ما في حوزته، وكانوا يخرجون أيضاً إلى الحقول وإلى الطرقات ويلقون القبض على كل عابر سبيل.

عن المعشر

لقد عين الملك أيضاً مسئولاً آخر للمعشر، أرسله لتخريب المنطقة. عندما جاء ودخل البلاد وظهر في الأسواق ومر على المتاجر قام بتسجيل كل ما كان بداخلها، فإذا وجد بها ما ثمنه مائة زوزاً كان يسجله مائتين، وكان يأخذ العشر كل مائة زوزاً خمسيناً، ولو استطاع أن يأخذ عن كل مائة عشراً لفعل. كانوا يخرجون أيضاً إلى الطرقات ويسلبون كل من يمر غدوةً وروحةً.

إن بؤساء البلاد كانوا يخرجون ويسيروا متخفين، وينتشرون ليلا في الشوارع، كانوا يدخلون ويتربصون في المزارع المطلة على ممر الشارع الرئيسي، وينقضون بقسوة على التجار المساكين الذين يمرون، وكذلك الذين كانوا يدخلون للبحث عن القوة.^(٢٤٠) كانوا يقبضون عليهم بقسوة ويقولون لهم: "إما أن تدفعوا كذا أو سنقودكم إلى الأمير". وهكذا كانوا يستولون على كل ما يريدون منهم، وكانوا يسلبون كذلك الفقراء الذين يحضرون للبحث عن القوة. كانوا يأخذون منهم كل ما يجمعونه، ولما كان هؤلاء يتضرعون إليهم لكي يسمحوا لهم بأن يحصدوا هذا الزرع كانوا يقولون لهم: "أذهبوا واحصدوا لمدة ثلاثة أيام بزوزا واحد أو أربعة زوايز". كل واحد كان يحسب معهم كما لو كانوا يحصدون في حديقته الخاصة، ولذلك أصابهم حزن عميق رغم إنقاذ جزء من ذلك الذي كانوا يحصدونه، لأنهم ما يكادون يهربون من أحدهم حتى بقعوا فريسة لثانٍ ثم لثالث... إلخ. والذين كانوا قد هربوا من ضريبة العشر لحقتهم ضريبة الصافي، وكذلك في كل مكان كان الرجال ينهبون الفقراء، حتى اللصوص أنفسهم كانوا يدخلون أيضا في العشر. وفي أي مكان كانوا يلتقون بعباري سبيل فقراء كانوا يجعلون من أنفسهم معشرين وينهبونهم. منذ ذلك الوقت لم يكونوا مضطرين لأن يتربصوا في الطرقات ليلا، بل كانوا يحققون رغباتهم وينفذونها في وضح النهار. كانوا يسجلون أيضا محصول القمح الذي يمتلكه الأشخاص، وعندما كان أحدهم يمتلك خمسين جريبا كانوا يسجلون ألفا، إذ كانوا يسجلون وفقا لرغباتهم، ورغم ذلك في هذا العام لم تكن هناك خسائر تذكر.

(٢٤٠) القوة نبات زراعي صيفي.

عن أصحاب الوشم والأختام

لقد عين حاكما آخر لكى يشم الرجال فى أعناقهم ويختتمهم كالعبيد (ورأيت عروشا فجلسوا عليها وأعطوا حكما ورأيت نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع ومن أجل كلمة الله والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته ولم يقبلوا السمّة على جباههم وعلى أيديهم فعاشوا وملكوا مع المسيح ألف سنة). (٣١١)

ولكن هنا لم يكن الرجل يُوشم على الجبهة فقط وإنما على يديه وعلى صدره وحتى على ظهره، فقد جاء هذا الحاكم، وعند وصوله أفزع المنطقة أكثر من سابقه، وذلك لأنه أصدر أمراً أن يوشم الأهالى على الأيدي بوشم لا يمحي أبداً ولا يزول عن مكانه طيلة حياة الإنسان الذى أخذه. عندما ظهر فى البلاد أصاب الجميع الرعب، وهربوا من وجهه وأغلقوا المتاجر، وتوقفت الأسواق عن البيع والشراء، وتعطلت الحركة فى الطرقات. الذين كانوا يريدون دخول المدينة كانوا يقدمون للمال خشية أن يصيبهم ضرر، والذين كانوا يريدون الخروج كانوا لا يستطيعون ذلك، لأن أبواب المدينة قد أغلقت، ولم يسمح لأحد بالخروج، واستمر ذلك الحال لمدة أسبوع. عندما رأى أن الشوارع قد خلت من المارة، ولم يبق أحد من البلدة إلى المدينة، أرسل جامعو الضرائب إلى كل من حل مكان عباس فى جباية تلك الضرائب وقالوا له: "إن الشعب قد هرب من هذا، فإذا لم يرحل من هنا لن يكون ممكناً دفع الضريبة". عندما سمع ذلك أرسل مكتوباً إلى من يقوم بوشم الناس يستدعيه، فلما رحل نعيم الأهالى بقليل من الراحة من هذا الجانب، لأنه مات فى الطريق.

(٣١١) العهد الجديد: رؤيا يوحنا اللاهوتى ٢٠: ٤.

عن المنفى

لقد عين أيضا حاكمًا آخر لإعادة كل شخص هارب إلى موطنه، وهذا بدوره عين حاكمًا آخرين أرسلهم إلى البلاد. لم يكن يرسل حاكمًا دائمًا إلى كل بلدة، وإنما كان دائمًا يجرى التتقاتل فيما بينهم، حتى لا يجتمع أهل البلدة على الحاكم وتتوطد بينه وبينهم الصلات، ويتم التلقى بين حكام مدن الجزيرة، ويدبرون أمرًا بسبب ما يشعرون به من ألم النفي.

منذ ذلك الوقت لم يعد هناك سلام في أى مكان، بل ساد السلب والنهب والقسوة والظلم، وانتشرت الأعمال الشريرة والنميمة والجور وانتقام الرجال بعضهم من بعض، ليس فقط الغرباء بل الأهالى. كان الأخ يحبك المكائد لأخيه، وكان هذا يسلم هذا.

لقد عين فارسياً في ماردين لإعادة المنفيين وجبى الخراج، وكان الذين هربوا إلى ماردين أكثر ممن هربوا إلى أى مكان آخر. وكان العرب والسوريون يحتلون المنطقة كلها، مما أدى إلى هروبهم. كان هذا الرجل يدعى "خليل بن زادن"، وقد أنزل كثيراً من الأذى بالعرب، لا مثيل له فى السابقين ولا اللاحقين، وذلك بسبب عدائه الشديد للعرب. لقد أرسل بعض الأمراء فى كل البلدان. لو علم أن شخصاً قد أقام هو أو أحد أبائه أو أجداده فى ماردين منذ أربعين عاماً أو خمسين كان يأمر بإخراجه من منزله، بل من قريته أو مدينته، وكان يقاد إلى تلك البلدة مع غيره من الرجال المطرودين. لم يكن هذا العمل مقبولا من الناس، ولكن كان دون جدوى، فلم يهرب منهم سوى القليل. لقد تجمع فى تلك المنطقة حشد كبير من الناس، لدرجة أنه لم يعد هناك مكان ولا بلد ولا منزل إلا وامتأ وأزدحم بالسكان. لقد جعل العرب ينتقلون من بلد إلى آخر، أخذ كل ما يملكون، وملاً أراضيهم ومنازلهم بالسوريين، وجعل هؤلاء السوريين يزرعون قمحهم. لقد تخلص من أغنيائهم، وأنزل بهم شتى أنواع العذاب والتكيد دونما رحمة أو شفقة. لقد

كان يحضر للرجل منهم ويجتزأ بالموس شعره ولحيته، ويصنع له تاجا من العجين ويضعه فوق رأسه، ويعرضه للشمس ثم يصب الزيت على رأسه، بحيث ينزلق شيئا فشيئا على عينيه، وبذلك تصاب رأسه بالأم مبرحة، ثم يضع الأغلال في أرجله وذراعيه وأصابعه، ويضع على عينيه كرة صغيرة من الحديد. كان يستخدم معهم شتى أنواع التعذيب دون رحمة، مما أدى إلى هلاك عدد كبير، أما الذين هربوا فقد نزحوا إلى أماكن أخرى نائية.

وعن أنواع العذاب الأخرى التي حدثت في كل البلاد سنتذكر هنا يونيل العظيم الذي كان قد رآهم من قبل، هو نفسه سيرويهما لكم: (اسمعوا هذا أيها الشيوخ وأصغوا يا جميع سكان الأرض، هل حدث هذا في أيامكم أو في أيام آبائكم؟. أخبروا بنيكم عنه وبنوكم بنوهم وبنوهم دورا آخر. فضلة القمص أكلها الزحّاف وفضلة الزحّاف أكلها الغوغاء وفضلة الغوغاء أكلها الطيار). (٣٤٢)

إن النبي قد شاهد هذا العصر، وتحدث عن المساوي التي كان يجب أن تحل على الرجال. إن أقواله في الواقع قد لاقت قبولهم، أي شخص كان يستطيع الهرب من الصافي كان المعشر يدركه، ومن كان يفلت من المعشر يقع في المنفى، ومن كان يهرب من المنفى كان يقع فريسة قطاع الطرق. كان الفلاحون يتصرفون بقسوة، خاصة تجاه الذين كانوا ينهبونهم في كل مناسبة وبكل طريقة، وبواسطة حكام المنفى الذين ملأوا المنطقة بأسرها، كانوا يخشون الظهور أمام السلطة. إن هؤلاء الحكام للطغاة أنفسهم كانوا يستولون على كل ما تصل إليه أيديهم، وينهبون كل ثرواتهم، أو حتى يقصدونهم ليسلموهم لحاكم المنفى المعين على المنطقة؛ بمعنى أنه لم يفلت أحد من إحدى المصائب، لأن كلا منهم قد وقع تحت سلطة واحد أو آخر من الحكام. هؤلاء لم يهتموا كثيرا لرحيل المنفيين، ولكن عندما كانوا ينهبون

(٣٤٢) العهد القديم: يونيل ١: ٤/٣.

أحدًا بمثل أصابع اليد، كانوا يبتعدون عنه قليلاً حتى يسمحوا له بالهرب، فلا يأتي معهم ويشكوهم، بدعوى أنهم قد أخذوا ثروته. وأيضاً إذا حدث أن قبضوا عليه تكون معاملتهم له أشد قسوة من المرة السابقة.

تلك الكارثة ازدادت حدة في كل بلاد الجزيرة، فقد حرم الملك ذلك، سواء كان عربياً أو سورياً، أن يحصد زرعه. لقد منع حصد القمح أو ضربه قبل دخوله بلاد الجزيرة، لأنه كان يريد أن يرى بنفسه كل المحصول.

في هذا العام كانت هناك وفرة في المحصول في كل مكان، وعندما وصل ورأى كل شيء، وبعد أن استخدم جميع أنواع التعذيب مع عباس عين حكماً آخرين لجباية الزكاة، أي صدقة المال، وأوفدهم إلى تلك البلاد. وبمجرد أن تسلم الحكام ذلك الأمر نفذوه دون رحمة. كانوا يدخلون مزارع العرب ويسجلون كل ما كانوا يجدونه، سواء كان للعرب أو للسوريين. كانوا لا يسجلون التفاح ولا أكوام الحنطة ولا أكوام الشعير وفقاً للحقيقة، ولكن إذا وجدوا مائة جريب كانوا يسجلون ثلاثمائة. هكذا لم يدعوا شيئاً في أملاك السوريين أو العرب دون تسجيل، لا حديقة ولا حقلاً مزروعاً ولا دابة. كانوا يتوجهون بعد ذلك إلى المدينة ويطلبون منهم زكاة تلك الأشياء. كثير من العرب كانوا بعد أن يبيعوا محصولهم ومزارعهم ودوابهم - لو كانوا يملكون - لا يجدون المبلغ المطلوب منهم، لأنه كان قد سجل للشخص الواحد كذا فدان، وتنتج محصولاً قدره كذا جريب. لقد سجل عليه فداين مليئة في الوقت الذي لم يكن فيه أكثر من خمسة جريبات فقط، فإن العرب قد تحملوا ألواناً من القسوة أشد من تلك التي تحملها السوريون. أما بالنسبة لهم فإن الأمير المكلف بالضريبة قد أمرهم أن يجتمعوا، لقد طلب منهم ضامناً لكل بلدة وأعطاهم الحرية في ضرب محصولهم من القمح.

عن الأمراء والكتّاب والصيارفة ورؤساء المقاطعات والحكام

قبل المرور أيضا من نصيبين أصدر الملك أمراً باستقدام كل أمير أو كاتب أو صراف أو رئيس مقاطعة أو حاكم، كل من كان يعمل إنشاء حكم عباس، مع نبلاء البلدة. لو حدث أن كان في بلدة واحدة عشرون حاكماً فعليهم أن يحضروا جميعاً ومعهم سجلات حساباتهم، فمن ظهرت خيانتهم وعدم احترامهم الأمانة عزلهم من مناصبهم، وفعل ذلك مع الصيارفة. لقد دارت عليهم الدوائر وعادوا بنزوة نتيجة أعمالهم.

لقد أقاموا زمناً في ذلك المكان ولكنهم لم يكونوا يشعرون بالقلق، لأنهم قد أقدموا على ما فعلوا دون إذن منه، كما لم يملكهم القلق مطلقاً حتى بعد رحيله. بعد أن تصرف هكذا في الجزيرة هاجم الرقة. وقد قال إشعياء في هذا الصدد: (قد جاء إلى عيath، عبر بمجرون، وضع في مخمash أمتعه. عبروا المعبر، باتوا في جبع، ارتعدت الرامة هربت جبعة شاول).^(٣٤٣)

فهوجم في الرقة، ومر بالمنطقة الغربية في طريقه إلى أورشليم، ونشر فيها القلق والاضطرابات، وأشاع فيها الفرع والخراب أكثر مما فعل بالجزيرة، فقد أحدث ما تنبأ به دانيال عن المسيح الدجال نفسه. لقد حول المعبد إلى مسجد، لأن ما تبقى من هيكل سليمان قد أصبح مسجداً للعرب،^(٣٤٤) فأخذ امرأة...^(٣٤٥) أصلح ما خرب من أورشليم. لقد هاجم الرجال فأخذ ثرواتهم ودوابهم وخاصة ماشيتهم، لم يترك أحداً مهما كان.

(٣٤٣) العهد القديم: إشعياء ١٠: ٢٨ / ٢٩.

(٣٤٤) يتضح من هذا القول مدى تعصب الكتّاب مقابل انتشار الإسلام في بلاد الشام.

(٣٤٥) الجملة غير مفهومة في الأصل السرياني، لأنها ناقصة، وكذلك في النص الفرنسي، فأكملتها بعد كلمة امرأة بوضع ثلاث نقاط.

وبعد ما اقترب هنا كل أنواع المفاسد كما حدث في الجزيرة، جاء عند حلول الشتاء إلى الجزيرة لقضاء بضعة أيام. قبل عودته من الغرب عين رجلاً فارسياً يدعى "أبو عون" لجباية الجزية، كما عين حكاماً آخرين لجمع ضرائب أخرى. من هنا بدأت الكوارث، ومثل الحيوانات المفترسة التي تهاجم الفريسة من كل جانب، كان يقوم خمسة حكام وأحياناً ستة أو سبعة، وقد يصل عددهم إلى عشرة، ويدخلون في يوم واحد إلى بلدة ما، ويقوم كل حاكم بفرض سلطانه على أهالي تلك البلدة الذين لم يتمكنوا من الهرب والتخلص من الموت إلا عن طريق خسائر باهظة. كان يحدث أحياناً عندما كان يرحل الأولون يحل آخرون مكانهم في المنطقة نفسها، وبذلك لا تكون هناك وسيلة لمنع ابتزازاتهم.

وماذا أقول الآن غير ما قاله النبي: (فأكون لهم كاسد، أرصد على الطريق كنمر. أضدمهم كدبة مثكل وأثني شغاف قلبهم وأكلهم هناك كلبوة يمزقهم وحش البرية)،^(٣٤٦) إذا دعاهم أحد بحيوانات مفترسة فإنه لا يكون قد افترى عليهم، لأنهم كانوا أقصى من الجوارح والحيوانات المفترسة.

والنبي نفسه قال أيضاً: (وإن كان مثمرا بين إخوة تأتي ريح شرقية ريح الرب طالعة من القفر فتجف عينه ويبيس ينبوعه، هي تنهب كنز كل متاع شهى)،^(٣٤٧) (ارجع يا إسرائيل إلى الرب إلهك لأنك قد تعثرت بآثامك).^(٣٤٨) ويقول نبي آخر: (اصحوا أيها العسكري وابكوا وولولوا يا جميع شاربي الخمر على العصير لأنه انقطع عن أفواهكم. إذ قد صعدت على أرضي أمة قوية بلا عدد أسنانتها أسنان الأسد ولها أضراس اللبوة).^(٣٤٩) وانظر كيف أن الأنبياء كانوا يطلقون على هذا الشعب اسم

(٣٤٦) العهد القديم: هوشع ١٣: ٨/٧.

(٣٤٧) العهد القديم: هوشع ١٣: ١٥.

(٣٤٨) العهد القديم: هوشع ١٤: ١.

(٣٤٩) العهد القديم: يرميا ١: ٦/٥.

حيوان مفترس (جعلت كرمتى خربة وتينتى متهشمة، قد قشرتها وطرحتها فابيضت قضبانها). (٢٥٠)

فى الحقيقة فإن النبيذ كان بعيدا جدا عن الذين يعملون فى الكروم. فبدأوا يهربون من بلدة إلى أخرى، ولكنهم بتلك الطريقة لم تكتب لهم النجاة، وما يكادون يهربون من حاكم حتى يقعوا فى يد حاكم آخر لينهبهم، وإذا هربوا من هؤلاء فإن رؤساء البلدة التى لجأوا إليها كانوا يسلمونهم ويملأونهم أنفسهم المكان باللصوص وقطاع الطرق. إن الذى كان مشهورا أو كان مهيبا ليكون رئيسا وقائدا يكون رئيس عصابة لقطاع الطرق. عندما كان يذهب الرؤساء للاحتماء فى تلك البلدة كان ينصب لهم فخا بأى وسيلة، كل المصائب كانت تصدر منه على البعيدين وعلى المقربين وعلى أهل المنزل وعلى كل من كان خارجه.

كان كل رؤساء البلدان يتصرفون هكذا (رؤساؤك متمردون ولغفاء اللصوص، كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع العطايا، لا يقضون للتيقن ودعوى الأرملة لاتصل إليهم). (٢٥١) إن أحكام الرب لم تكن ماثلة نصب أعينهم.

وإذا أكد الأنبياء ما قد شاهدناه ولممناء بأيدينا، من سلومنا من بين الذين يحبون الرب، لأننا قد هاجمناهم فى الكتاب، وذلك حتى نتعرف عليهم الأجيال القادمة بعدنا؟ فإنه مكتوب (لنكر أيام القدم وتأملوا سننى دور فدور، اسأل أباك فيخبرك وشيوخك فيقولوا لك). (٢٥٢) و(أخبروا بنيكم عنه وبنوكم بنيهم وبنوهم دورا آخر). (٢٥٣)

(٢٥٠) العهد القديم: يوتيل ١ : ٧.

(٢٥١) العهد القديم: إشعواء ١ : ٢٣.

(٢٥٢) العهد القديم: التثنية ٣٢ : ٧.

(٢٥٣) العهد القديم: يوتيل ١ : ٣.

عن السماح للرجال بانتهاك حرمة المقابر

كانت المصائب قد تراكمت، لدرجة أنه كانت المصيبة تصطدم بالمصيبة والجناح يرتطم بالجناح واليد تضرب الأخرى، ومن كل جانب كان النواح يرتفع ويسمع من كل مكان. لم يفكر أحد من الأحياء في الهروب من تلك الكارثة التي حلت بهؤلاء الذين كانوا يتمتعون بالحياة الجسدية، تماماً مثل الذين قد تحولوا إلى تراب. إن الذين كانوا يجدون لذة في السرقة وفي نهب المقابر قد تمكنوا الآن من إشباع رغباتهم.

إن مثل تلك الخطيئة وطفل الخطيئة وصنيعة الشيطان الذي يقف ضد كل ما هو أبدي ومقدس، ذلك الذي يصيب أهله ونسله من القبيلة الملعونة التي يملكها الشعب الذي أساء معاملة موسى. لم يكن موسى بن صعب قد رحل بعد، وقد أثبتنا في تلك الفترة مدى تصاعد المصائب، لأنه لدينا رحمة.

إلى ذلك الوقت - باستثناء فقراء المنطقة السفلى وجماعات الأغراب المقيمين في تلك البلدة - لم يقاس الشعب كثيراً، ففي ذلك العام اضطهدهم ودمرهم وأبادهم. لقد حمل الأهالي أطفالهم في أعناقهم وفروا من قرية إلى قرية.

في ذلك العام وصلتنا من مناطق نائية أنباء حزينة، أنه في منطقة ما انتهك الرجال حرمة المقابر، وأخرجوا منها الفضة والذهب. لم نصدق - بسبب فداحة الجرم - أن يقدم الأشخاص على هذا العمل تجاه الموتى، ولكن كل القادمين كانوا يؤكدون الخبر، بأنهم سرقوا منهم الذهب، ولم يكن من السهل علينا أن نصدق هذا. ولكن ذلك الأمر لم يلبث أن تأكد لنا ووضح أمام أعيننا، حيث جرى في مناطقنا لأبائنا وأشقائنا الذين رحلوا إلى الحياة الآخرة. سنتحدث هنا عن الحدث كما وقع في حينه.

عن قوس الرب الذي ظهر في هذا العلم مقتوبا،
وعن العصا البيضاء التي ظهرت في وسط السماء
متجهة ناحية تحناء القوس على هيئة سهم

في هذا العام أيضا في شهر أيار (مايو) ظهر في السماء هذا القوس
الذي كان يظهر دائما في المسحب، ولكن إنحناءته كانت متجهة إلى أسفل
وجوانبه إلى أعلى، فقد كان يشبه القوس المعد للحرب في يد الرجل، معلنا
التهديد والثورة ضد سكان الأرض.

لقد ظهر في يوم مقدس من أيام الأحاد، نحو الساعة الثالثة صباحا كما
أثبتته بعض المعمرين الموثوق بهم، والذين كانوا أول من رآوه. وإذا كان
هناك من لا يصدق ذلك فليطلع على الملاحظات السابقة، فسوف يجد نفس
الشيء. فمن المؤكد أن الأحداث التي وقعت بعد ذلك ظهرت بما يشبه عصا
بيضاء في السماء في المنطقة الغربية، حتى إن قمتها كانت قد لمست وسط
السماء في الشرق، وكان مسكها كسك الحبل. إن هذه العلامة لم يعد
يشاهدها الكثيرون لأنها قد ارتفعت لعدة أيام. كانت هناك روايات كثيرة
بشأنها، البعض كان يقول إنها عصا الغضب^(٣٥٤) والبعض يقول إنها إحدى
السحب التي كانت قد صعدت إلى السماء. لقد تملك الخوف الحكماء
والمؤمنين عندما رأوا تلك العلامة، لأنهم أدركوا أن ذلك حدث نتيجة الذنوب
والآثام، وأنه ملئ بتهديدات الغضب، وأنه دليل على الوعيد والغضب، ولكن
الحمقى لم يبالوا قط (من هناك يتحسس قوته، تبصره عيناه من بعيد).^(٣٥٥)
كانت العصا متجهة نحو وسط القوس الممدود. لقد أظهرت المعنى ولم يتأخر
عن إظهار ما أراد الرب إثباته عندما أرسله (الحكيم عيناه في رأسه، أما

(٣٥٤) المقصود بعصا الغضب التي ورد ذكرها أكثر من مرة في المخطوطة القوة والسلط والنفوذ، كما
أنها تدل أيضا على تأليب الله للبشر.
(٣٥٥) العهد القديم: أيوب ٣٩: ٢٩.

الجاهل فيسلك في الظلام، وعرفت أنا أيضا أن حادثة واحدة تحدث لكليهما). (٣٥٦)

قد يقول البعض: "ربما لا يملك الرب قوما ولا سهما"، فليسمع هذا: ماذا يقول المزمور: (فيرميهم الله بسهم بقتة كانت ضربتهم. ويوقعون ألسنتهم على أنفسهم، ينقض الرأس كل من ينظر إليهم. ويخشى كل إنسان ويخبر بفعل الله وبعمله يفتنون)، (٣٥٧) كما يقول أيضا: (أرسل سهامه فشتتهم وبروقا كثيرة فلزعجهم). (٣٥٨) لقد فزع الأهل وأصبحوا مشتتين في كل مكان، فخربت الحقول ونهبت القرى والمزارع، ونزح الناس من بلادهم إلى مناطق أخرى.

عن علامة أخرى ظهرت من ناحية الشمال في العلم نفسه

ظهرت علامة أخرى في ناحية الشمال. إن شكلها كان تأكيدا لتهديد الرب وثورته علينا، لقد ظهرت في موسم الحصاد، واحتلت كل الجانب الشمالي، وامتدت من الطرف المشرقي إلى الطرف الغربي، وكانت هيئتها على النحو التالي: عصا حمراء وأخرى خضراء وثلاثة سوداء ورابعة صفراء، وكانت تصعد من أسفل إلى أعلى، فعندما كانت عصا تهبط كانت الأخرى تصعد، وإذا حدث أن نظر إليها إنسان كانت تتغير في نحو سبعين شكلا.

بالنسبة للحكماء فإن ذلك كان علامة تهديد ووعيد، ولقد قيل الكثير في هذا الصدد. البعض كان يفسره على أنه دم، وذهب آخرون إلى تفسيرات

(٣٥٦) العهد القديم: الجامعة ٢: ١٤.

(٣٥٧) العهد القديم: المزمور ٩/٨/٧.

(٣٥٨) العهد القديم: المزمور ١٨: ١٤.

أخرى. أما بالنسبة لى فسأقول: (وأعطى عجائب فى السماء من فوق وآيات على الأرض من أسفل دما ونارا وبخار دخان).^(٢٥٩)

عن كيفية دفع للضريبة، وعن السجن فى كنيسة

ولما كان المطلوب من الفرد أكثر مما تطيق نفسه الوفاء به جمع الأمير المسئولين، ووزع بينهم المبالغ المطلوبة بالتساوى على قدر المستطاع، وقد وزعها هؤلاء فيما بينهم بين أهالى بلادهم. ولما كان الحكام الذين عينهم عباس لا يزلون فى السلطة، وأن مصدر كل المصائب لم يكن قد حضر بعد،^(٢٦٠) لذلك لم يقترفوا الأذى ولم يتعدوا حدود القسوة، وطالبوا أهالى البلدة بدفع للمبلغ المحدد.

ولما كان موضوعهم لم يتم^(٢٦١) حدث تقسيم جديد بين المسئولين، ولكن هذا لم يكف؛ أيضا، وبذلك قام المسئولون بنهب الفقراء واليتامى والأرامل الذين كانوا يقيمون فى بلدتهم. لم يرحموا اليتامى، ولم يشفقوا على الأرامل، ولم يفعلوا ذلك نزولا على رغبة السلطة، ولكن كان ذلك من تلقاء أنفسهم، (الفرع فى البرية صيد الأسود وكذلك للفقراء هم مراعى الأغنياء)،^(٢٦٢) وبالمثل بالنسبة لهؤلاء، إن أغلبهم قد هبت عليه تلك العاصفة، وأحاطت به تلك الظلمات التى كانت تنتشر فى الأرض، وكان المساكين لا يعرفون أنه بعد وقت قصير سيكونون هم أنفسهم ضحية الخوف؛ فقد أسرعوا ببيع الأثاث والدواب وممتلكات الفقراء فى بلدتهم، فملأوا منازلهم وأصبحوا أغنياء كما كانوا يريدون، لأنه كان يعطى لهم بالاسترجاع والفوائد دون تحفظ، لدرجة أنهم كانوا على وشك أن يمتلكوا - وفقا لرغبتهم - أطفال

(٢٥٩) العهد الجديد: أعمال الرسل ٢: ١٩.

(٢٦٠) المقصود هنا موسى بن مصعب.

(٢٦١) المقصود هنا أن المبلغ المطلوب لم يحصل عليه.

(٢٦٢) العهد القديم: الأسفار المنحولة، يشوع بن سيراخ ١٣: ٢٣.

الفقراء عبيداً وإماء. إن هؤلاء المساكين كانوا يجهلون أن نهاية الملحدين هي الفناء، وكانوا يشترون الحنطة خمسين جريباً أو حتى ستين، وأحياناً سبعين بدينار واحد. وأى شخص كان يظهر زوزاً كان يأخذ للكمية التى يطلبها. كانوا يقدمون النبيذ خمسين كلتاً وأحياناً ستين أو سبعين أو حتى ثمانين بدينار واحد. كانت الحنطة فى السوق تباع ثلاثين جريباً وأحياناً خمسة وثلاثين، وتصل أحياناً إلى أربعين بدينار واحد. النبيذ بنفس النسبة، والحمل زوزاً، والعنزة زوزاً، والبقرة خمسة زواز، والحمار أربعة زواز. كل شيء كان بثمن بخس. ولما كان الموضوع قد طال أمره ولم تتحقق النتيجة المرجوة جمع الأمير سكان المنطقة، هذا الأمير كان رجلاً مكروهاً وملحدًا وظالمًا، ولم تتح الفرصة لأحد لينتق عليه أو يمدحه، فضلاً عن سلوكه فى المنطقة، لقد جمع أهالى المنطقة وحبسهم جميعاً فى كنيسة كبيرة.

عن السجن فى الكنيسة

عندما كان البشير ينادى معلنا التجمع فى الكنيسة كان الحراس يفيضون حيوية ونشاطاً، يخرجون ويلقون القبض على أى شخص يساورهم الشك فى أنه يمتلك بعض الزوازى. ماذا أستطيع أن أقول إلا قول النبى: (اللهم إن الأمم قد دخلوا ميراثك، نجسوا هيكل قدسك، جعلوا أورشليم أكواماً. دفعوا جثث عبيدك طعاماً لطيور السماء، لحم أتقيائك لوحوش الأرض). (٣١٣)

لقد تجمع كل الرجال الأحرار وحتى النساء اللاتى فقدن أزواجهن أو اللاتى غابوا عنهن مؤقتاً بسبب هذا التعذيب. لقد أخرجهن من منازلهن، وساقهن وأنزلهن إلى الشوارع، وحبسهن فى تلك الكنيسة، نساء لم يكن قد

(٣١٣) العهد القديم: المزمير ٧٩: ٢/١.

ظهروا من قبل قط في الطرقات، كن مجبرات على النزول، ووضعن دون حياء وسط للرجال. لقد فعلوا بالمثل مع النساء العربيات، إن كل نساء العرب دون استثناء كن مجبرات على النزول، وإذا كان أحد للعرب غائبا كانوا يأخذون زوجاته أو بناته. كانوا يستولون على البلدة تلو الأخرى، أو كانوا يأخذون ضامنا ويقومون بقتلهم، سواء بضربهم أو بوضع القيود في الأرجل والأصابع.

إن الظلم الواضح قد ازداد حتى وصل وجلس على الكرسي الأعلى المواجه للمائدة المقدسة الخالدة، لقد ازدادت جراتهم حتى وصلت إلى المائدة المقدسة ليقدّموا نفاياتهم التي تثير الرب، وكانوا يطأون بأرجلهم الملوثة تلك المائدة المهيبة. في المذبح نفسه كانوا يغسلون رجس أعضائهم، وكانوا يلقون بنجاسات أخرى كثيرة في وسط الكنيسة. كل هذا الشعب رجالا ونساء كانوا يقضون حاجتهم دون حياء على مرأى من الآخرين.

لقد ظلوا هكذا ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ في تلك الكنيسة، لقد ارتفع في وسطها صياح أليم، وبدلا من الدخان المعطر بعطور الاختيار صعدت منها رائحة العفونة، مع الصياح المؤلم لهؤلاء الذين كانوا محبوسين.

من أجل الحاجة انقضوا على ثروات الكنائس والأديرة، لدرجة أن الكنائس البعيدة التي لم تكن تشتم فيها الرائحة النفاذة كانت تقاسى من تدنيس تلك القدسيات، وكانت ضحيّتها الكنيسة الكبرى، وهي أكبر كنائس المنطقة. والسبب في ذلك أن الأهالي أصبحوا مجردين من خيراتهم ومن أثاثهم ومن أنبيئهم المقدسة التي وضعت رهينة بين أيدي الوثنيين (أنبياءها متفاحرون أهل غدرات، كهنتها نجسوا القدس خلفوا الشريعة)،^(٣١١) (لماذا لي كثرة ذبالحكم، يقول الرب، اتّخمت من محرقات كبش وشحم مسمنات، وبدم

(٣٦٤) العهد القديم: صفنيا ٣: ٤.

عجول وخرفان ونيوس ما أسرُ. حينما تأتون لتظهروا أمامي من طلب هذا من أيديكم أن تدوسوا دوري. لا تعودوا تأتون بتقديم باطلّة، البخور هو مكرهة لي، رأس الشهر والسبت ونداء المحفل، لست أطيق الإثم والاعتكاف. رعوس شهورك وأعيادكم بغضتها نفسي، صارت على ثقبلا، مللت حملها. فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم وإن كثرت الصلاة لا أسمع، أيديكم ملآنة دما)،^(٣٦٥) عندما نرى بعيون العقل خبث أخطائنا العديدة نتذكر قول النبي عن تلك الأشياء: (لذلك قل لهم، هكذا قال السيد الرب: لا يطول بعد شيء من كلامي، الكلمة التي تكلمت بها تكون، يقول السيد الرب).^(٣٦٦)

إن الحاكم استعمل معهم كل أنواع التعذيب والتهديد، لقد اضطهد - وفقا لرغبته الخاصة - عربًا وسوريين وأصحاب متاجر وأصحاب دكاكين، لذلك فقد خلت الأسواق في هذه الأيام من البائعين والمشتريين، كما خلت الطرقات من القادمين والرائحين، لأن أبواب المدينة كانت مغلقة.

عندما رأى الذين يخشون الرب كل تلك القانورات التي ارتكبها هؤلاء الظالمون وسط مذبح الكنيسة المقدس انتابهم حزن عميق، وصاحوا متجهين إلى الرب قائلين: (اللهم إن الأمم قد دخلوا ميراثك. نجسوا هيكل قدسك. جعلوا أورشليم أكواما. سفكوا دمهم كالماء حول أورشليم وليس من يدفن. صرنا عارا عند جيرائنا هزءا وسخرة للذين حولنا. إلى متى يا رب تغضب كل الغضب وتتقد كالنار غيرتك. أنفض رجزك على الأمم الذين لا يعرفونك وعلى الممالك التي لم تدع باسمك. لأنهم قد أكلوا يعقوب وأخربوا مسكنه. أعنا يا إله خلاصنا من أجل مجد اسمك، ونجنا واغفر خطايانا من أجل اسمك. لماذا يقول الأمم، أين هو إلههم لتعرف عند الأمم قدام أعيننا نقمة

(٣٦٥) العهد القديم: إشعياء ١: ١١/١٢/١٣/١٤.

(٣٦٦) العهد القديم: حزقيال ١٢: ٢٨.

دم عبيدك المهرق؟)، (٣٦٧) (فحمى غضب الرب على شعبه وكره ميراثه. وأسلمهم ليد الأمم وتسلط عليهم مبغضوهم. وضغطهم أعداؤهم فذلوا تحت يدهم. مرات كثيرة أنقذهم، أما هم فعصوه بمشورتهم واتخطوا بياثمهم)، (٣٦٨) هكذا جرد الحاكم البلدة من كل شيء ثم ذهب ليقم بجوار أمير المؤمنين في نصيبين.

إنه في طريق عودته من الشرق قام مرة أخرى بتدنيس كل كنائس البلاد وتخريبها، وخاصة تلك الموجودة في الرها، فقد قاست أكثر من غيرها وفقدت ثرواتها. إننا سنقول مع النبي: (من أجل ذلك حمى غضب الرب على شعبه ومد يده عليه وضربه حتى ارتعدت الجبال وصارت جثثهم كالزبل في الأثرقة، مع كل هذا لم يرتد غضبه بل يده ممدودة بعد). (٣٦٩)

عن الدجال الذي ظهر في الجزيرة عام ١٠٨١ يونانية (٧٦٩-٧٧٠م)

لقد قصدنا أن نروي كل شيء، وأن نترك ذكرى لهؤلاء الذين سيأتون من بعدنا إلى هذا العالم، ليدركوا العبء الثقيل الذي تحمله الأقدمون، فليبتعدوا عنه أو يأخذوا حذرهم. (اضرب المستهزئ فيتنكى الأحمق ووبخ فهِمَا فيفهم معرفة). (٣٧٠) فليأتوا إذن السيئات التي حلت بالأولين، فليبتعدوا عنها لأن كل يوم يأتي حاملا معه سيئاته، فقد أمر الرب تلاميذه (احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بشباب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب

(٣٦٧) العهد القديم: المزمير ٧٩: ١٠/٩/٧/٦/٥/٤/٣/٢.

(٣٦٨) العهد القديم: المزمير ١٠٦: ٤٣/٤٢/٤١/٤٠.

(٣٦٩) العهد القديم: إشعيا ٥: ٢٥.

(٣٧٠) العهد القديم: الأمثال ١٩: ٢٥.

خاطفة)،^(٢٧١) لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضا)،^(٢٧٢) وأيضاً: (حينئذ إن قال لكم أحد هو ذا المسيح هنا أو هناك فلا تصدقوا. فإن قالوا لكم ها هو فسى البرية فلا تخرجوا، ها هو فى المخدع فلا تصدقوا).^(٢٧٣)

إن المسيح قد كشف لنا جميع الخدع التى كان قد تتبأ لنا بها الأنبياء، والتى صرخ بها للرسل فى آذاننا كاللبوق، عن قدوم المحتالين والأنبياء الكاذبين الذين يأتون من بعده. لم نستمع إلى الأنبياء ولا إلى الرب ولا إلى الرسل، ولكننا أغمضنا عيوننا وأغلقتنا آذاننا، وألقينا قلوبنا فى هاوية الخطأ، لكى لا نرى بأعيننا ولا نسمع بأذاننا ولا نعى قلوبنا أقوال الكتاب المقدس. لقد نسيناها وبحثنا عن رغباتنا الخاصة.

إن ما أسماه "دانيال" علامة الهدم، يسوع المسيح، رسول لابن الخطيئة رأيناه. لقد لمسنا بأيدينا المسيح، لقد لمسنا ذلك الذى كان مكتوباً أنه سيأتى فى آخر الزمن. ظهر فى أيامنا أحد رسله، وكل الذى كان سيفعله بنفسه عند حضوره فإن تلميذه قد أثبتنه لنا بالفعل وليس فقط بالقول. كان فى كل مكان كان يسود فيه الخطر والخوف، حيث يوجد خطر الموت، كان للعقلاء يضعون علامة معينة تعتبر إشارة للذين يحضرون ولا يعلمون، فعندما يشاهدون هذه العلامة يفهمون بذكائهم التحذير الذى تعلنه. إنه يخبرهم بما حدث فى تلك المنطقة، ونحن الآن نضع هنا الأحداث التى وقعت فى الوقت الساحق، حتى نحترس من هذا الوحش الذى يكسو المر بالمسل.

فى نفس الوقت جاء رجل من منطقة تكريت،^(٢٧٤) من قرية بيت رامة، عاش حتى سن المراهقة فى معزل عن والديه، ورغب فى حياة نسكية

(٢٧١) العهد الجديد: إنجيل متى ٧: ١٥.

(٢٧٢) العهد الجديد: إنجيل متى ٢٤: ٢٤.

(٢٧٣) العهد الجديد: إنجيل متى ٢٤: ٢٣/٢٦.

(٢٧٤) بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، غربى بجلة، وهى أقرب إلى بغداد. (الولول المتثور ص ٥٠٥)

طاهرة، فخرج متجها إلى دير مار متى المقدس في منطقة الموصل. ظل به نحو سنتين أو ثلاث، وهناك أغواه الماكر لكي يعود إلى سلوكه القديم (كما يعود الكلب إلى قيئه هكذا الجاهل يعيد حماقته).^(٢٧٥) ولما كان لم يبدد بعد ما كان يحصل عليه من أهله فقد أضله يهوذا عن حب الفقراء والأغراب والبؤساء والمكروبين وأشياء كثيرة. فبدلاً من الوفاء بوعوده الجميلة انتهى بأن ضيق عليه الخناق، وعندما عاد إلى منزله بدلاً من أن يهتم بأمور الأبرشية والفقراء والمكروبين قلد أقرانه من الشباب في نزواتهم وحماقاتهم، وبدلاً من أن يوزع ثروته على الفقراء بددها في الترف وحياة اللهو والفجور. في النهاية لوتد عن دينه وتحول إلى الوثنية، وهكذا لجأ إلى التبدير وبدد كل ثروته. ومنذ ذلك الوقت لم يدع شيئاً من ثروته إلا أتى عليه عن طريق الأعمال السيئة، وأصبح محتقراً. ولكن في النهاية عاد إلى نفسه وقال: "كم أنا نعس، ماذا فعلت بنفسى؟" وخرج مولياً وجهه شطر صحراء سنجار، ليقيم بجوار أحد المشاهير هناك. وعندما قبله هذا بجواره انتقى له أقسى الأعمال وأشقها. لقد عود جسمه على الصيام وعلى الصلاة لمدة خمس سنوات تقريباً، حتى انقلب جسده الهزال، وأصبح مثل الهندي، كما تغير لون وجهه من حرقة الشمس. ولكن الشيطان لم يتوقف عن غوايته، فبدأ يظهر له على هيئة ملائكة تعظم أعماله وتتبنه بالمستقبل. عندما سمع القديس مار زعورا ذلك قال له: "يا بني احترس من حيل المحتال، كل تلك الأشياء تصدر من الشيطان".

في تلك الفترة كان زعورا المبجل رئيساً لرهبان تلك المنطقة، كان ينصحه دائماً بألا يهتم بتلك الأشياء، وأن يحتقرها لأنها جميعاً صادرة عن الشرير. وعلى الرغم من ذلك لم يستمع إليه الراهب وأسلم نفسه للشيطان، بل لقد أضل معه أناساً آخرين. كان يقول: "سيحدث كذا وكذا، وفلان سيفعل

(٢٧٥) العهد القديم: الأمثال ٢٦: ١١.

كيت. اليوم سيحضر رجال من منطقة كذا لمقابلتي". إن هذا من صنع الحكماء، وهو ليس بصعب على الشيطان، عندما يوعز إلى شخص أن يفعل شيئاً فسوف يفعله حتماً، لابد وأن ينفذ خطته عليه. إنه لا يقول أشياء لا تحدث، ولكن أشياء تحدث نتيجة لنصيحته. لقد سمى "مخادعاً" لأنه يكشف الأسرار. إنه مكتوب أن المخادع يكشف الأسرار، أليس حقيقياً أن يكون شخص سائراً في الطريق وإذا برمول يقبل عليه مسرعاً ويقول: "فلان سيحضر اليوم هنا". إنه لا ينبئ بأشياء مستقبلية، ولكن أشياء تقع في الحال.

هكذا خُدع هذا اللئس وضلل وانقاد إلى الظلم، وفقاً للظواهر الوهمية للشيطان. بدأت شعوب كثيرة تسير في ركابه، لأنه قد وقع في الخطأ وخرج عن صوابه. وعندما علم "مار زعورا" بذلك ورأى أنه يحقر النصائح التي كانت تعطى له، وأنه كان يغتاب المؤمنين قائلاً "إنهم يغارون مني" قبض عليه، وضربه وطرده من البيت، ومنعه تحت وطأة اللعنة من الإقامة في منطقة الموصل بأسرها، فخرج من تلك البلدة متجهاً إلى الجزيرة، وحط رحاله في بلدة دارا.

كانت توجد في منطقة دارا بلدة كبيرة وقوية، تضم عدداً كبيراً من الأهالي، وكان سكانها أناساً بسطاء وعمالاً مهرة، يفوقون كل من حولهم. كانوا أكثر إيماناً من كل الذين يعيشون معهم في منطقتهم، وكانوا على علاقة وطيدة بالرهبان، وكانوا يعظمون أساقفتهم كما لو كانوا ملائكة. ولهذا كانوا بعيدين عن مفاتن الدنيا، وكانوا مهتمين فقط بعملهم، فقد صوب الشيطان مهمته إلى مثل هذا الشعب المؤمن. إذ عندما دخل تلك البلدة ورأوه مرتدياً ثوباً بالياً وجسمه مهزول ولونه يضرب إلى السواد استقبلوه كما لو كان ملاكاً، وبدأ يقول لهم إنه مرسل من قبل الرب، ليعلن لهم أن بلدتهم على حافة الانهيار والغوص في باطن الأرض التي ستغطيها ولن تعود صالحة للسكن. هؤلاء الأهالي نظروا لبساطتهم صدقوه، وببراعة قلوبهم استمعوا لكل ما قاله لهم. كانت تلك البلدة هي "حاني" في طور عBDين.

كان ينصحهم دائماً بقوله: "كفّروا عن ذنوبكم، صلوا وصوموا قبل أن تفتح الأرض فيها وتبتلعكم، لأن مثقال سيناتكم قد جاوز الحد، ولأن ظلمكم قد فاق ظلم سدوم وعمورة. الآن ليس أمامكم إلا انتظار حكم الرب دون رحمة". إن هذا الشعب البسيط عندما سمع ذلك وشرب العسل الممزوج بالسم لم يتبين مرارة السم القاتل من شدة حلاوة العسل، لم يستمعوا إلى الرب ولا إلى الأنبياء ولا إلى الرسل ولا إلى رهبانهم، وبسبب تلك الأقوال "صوموا وصلوا" لم يتبينوا حيلة الماكر. كل من كان يقال لهم: "اتقوا الله، هذا الرجل دجال"، كانوا يجيبون: "ماذا يقول من شر؟ إنه لا يقول إلا صوموا وصلوا". لم يستمعوا إلى أحد، ولكنهم اتساقوا إليه، وأوقعوا كل سكان المنطقة معهم في الخطأ. لقد استسلموا للأحزان والدموع، وتركوا أعمالهم وهجروا حقولهم وزروعهم دون رعاية ودأبوا على الصلاة.

ومنذ ذلك الوقت بدلوا بقولون عن هذا الرجل إنه يأتي بكل أنواع المعجزات مثل الرب، إن رسله، أي الشياطين، انتشروا لبشروا بدعوته في كل بلاد الجزيرة، وقد أدى ذلك إلى شيوع الاضطراب في كل بلاد المنطقة شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً. كان الجميع مضطربين في أمره، عندما كانت تلتقي قافلتان إحداهما في طريقها إليه والأخرى قادمة من عنده، كانت القادمة تسأل الزاهية: "كيف وجدتم هذا الرجل؟" كانوا يقولون: "لا نعرف مثيلاً في العالم بأسره لما يفعله هذا الرجل". كانوا يكشفون عن أعضائهم ويقولون: "هذا كان مشلولاً، وهذا كانت ذراعاه ضعيفة، وهذا كان مريضاً بالجذام، وهذا كان مكفوفاً، والآن كما ترون نحن جميعاً أصحاء دون عاهة أو مرض. انظروا هذه عيوننا مفتوحة وأيدينا قوية وأرجلنا سليمة، لا ترفضوا تصديقنا، وليكن إيمانكم ثابتاً واذهبوا إلى جواره، كل ما ستطلبون ستأخذون منه". وهكذا استمروا في طريقه وذهبوا إلى جواره. إن الشياطين كانوا يظهرون أمام القوافل التي كانت في طريقها إليه ويعلنون: "لقد رأينا بأعيننا، إنه يطرد الشياطين، ويفتح أعين المكفوفين، ويجعل الصم يسمعون، ويجعل المشلولين

قادرين على السير". وكانوا يقولون لغيرهم: "لقد رأيناها أمامنا يحيى الموتى ويأتى بكل أنواع المعجزات".

تأكد أيها القارئ والمسامع أن الذى كان يظهر للرجال المترددين على هذا المكان، والذين كانوا يذهبون إليه بأعداد كبيرة على حميرهم وبيغالهم وجيادهم، والذين كانوا يظهرون أعضائهم التى شفيت بواسطته، لم يكونوا فى الحقيقة بشرًا، بل كانوا فى الحقيقة شياطين، ولنعلم أيضا وفقا لذلك أننا لم نر قط رجلا قد استرد صحته بجواره، فقد كان الشياطين يظهرون لبعض الناس ويقولون لهم: "نحن ملائكة، نحن مرتبطون بصلاة تقديس مار ماروثا". فكانوا يدعونه "ماروثا"، وكانوا يقولون: "إذا تركنا سنموت". كما كانوا يظهرون لآخرين ويقولون: "إن الثعابين للطائرة ستحل على الأرض، ولن تترك شخصا حيًا". إن الشياطين المتمردة لم تتوقف عن نشر خرافات مماثلة فى كل الجزيرة، ومنذ ذلك الوقت لم تحدث مقاطعات فى الشوارع التى كانت تقود إلى هناك.

افهم أيها العاقل أنه عندما يأتى "ابن الهلاك" لن يتصرف من تلقاء نفسه، ولكن رسله سيذهبون وينشرون خبره فى كل أنحاء الأرض، سيظهرون مجسدين أمام الناس، وسيصرخون: "قلان كان مشلولًا وقلان أعمى وقلان أجذم، وهذا قد شفاهم".

كانوا هم يظهرون كما لو كانوا أمواتًا ومشلولين ولديهم جذام ومكفوفين وعاجزين، وكانوا يأتون إليه. كان بمجرد أن يأمر مشلولًا بأن يمشى كان يمشى، والذى كان مشلولًا تمامًا كان يجعله يسير. إن البؤساء الذين قد تخلوا عن الكتب المقدسة، وكانوا يسبرون فى ركابه، كانوا لا يعلمون أن هؤلاء ما هم إلا شياطين، ولا يوجد أحد من الذين جاءوا لمقابلته قد شفى بسببه. على الأقل لم يصيبهم أذى من الماكر، وعندما يتركه الشيطان كان يبدو أنه شفى.

كانوا يقولون: لأنه ليس لديك الإيمان الكافي فإليك لن تشفى، لقد رأينا تلك الأشياء ونحن نؤكد لها. إن كل واحد قد رأيناه يحضر إلى جواره وكنا نسأله: هل شفيت؟ كان يقول: لقد شفيت. كان لا يقول شيئاً أكثر من: "إذا كان لديك إيمان كافٍ ستشفى خلال أربعين يوماً". وتحت هذا الأمل، وهو انتظار الشفاء خلال أربعين يوماً، كان يصرفهم. ولهذا كانت كل البلاد فى حركة واضطراب، وكانت تلجأ إليه.

كانوا يقدمون له عملاتٍ هدايا، عبارة عن عملات من الذهب والفضة وأشياء أخرى ثمينة. كان يقدم الصدقة والزكاة ويقيم صلواتٍ كثيرة، ثم يقف وينشر على الناس الرماد قائلا: "قليهداً الرب". كان يجلس على كرسي مرتفع، كالأسقف الذى قد تسلم درجة الشماسة. لقد صدر أمر من الكتب الكنسية البابوية أن الكاهن لا يبارك إلا من زميله الكاهن أو الأسقف، وأن لا يقبل المباركة إلا من هؤلاء. إن هذا الجرىء لم يكن يبارك الكهنة فقط، ولكنه كان يرسم علامة الصليب ويضع اليد على رأس الأساقفة. كان يصنع أيضاً زيت المباركة^(٢٧٦) حيث كان يجتمع حوله كثير من الكهنة ويعطيه لهم. كان يعمل الزيت بتلك الطريقة، كان يتلو عليه صلاة ثم يبصق فيه ثم يباركه ببصاقه.

كان الأسقف أو الراهب لا يستطيع الذهاب إلى هناك ولا أن يقول شيئاً دون أن يتعرض للقتل من أهالى تلك البلدة، الذين كانوا يقولون: "إنكم تغارون منه". إن "مار قرياقوس" أسقف المنطقة عندما علم أن فريقه قد وقع أسيراً فى يد الماكر، وأنهم لم يستمعوا إلى أقواله، بل أرادوا أن يقتلوه، ذهب إلى البطريرك المبجل "داود" وأراد أن يخبره بتلك الأشياء. ولكن بمجرد أن علم داود المبجل بتلك الأخبار أسرع باستدعائه، وألقى القبض عليه وحبسـه

(٢٧٦) هو الزيت الطيب الذى كان السوريون ذوو الطبيعة الوحيدة يدهنون به لجسام أطفالهم الذين تلقوا مبادئ الدين قبل تسميدهم.

فى سجن "حران"، إلا أن ذلك لم يضع حداً لتضليله، وذلك لأن الكثيرين كانوا يحضرون إليه فى السجن، وكان هذا للظالم يصنع للزيت ويعطيه لهم بعد أن يكون قد باركه ببصاقه. إننا قد أغفلنا أحداثاً كثيرة، وننتقل إلى أحداث أخرى، لأننا نريد أن نوضح سنوات الكارثة التى تعرضت لها المدينة.

عن أول سنة للكارثة التى وقعت عام ١٠٨٤ يونانية (٧٧٢-٧٧٣م) عن الكتاب والحكام والصرافين

عندما رجع الملك من أرض أورشليملقى القبض على "عباس" وجرده من كل ممتلكاته، وعين بدلاً منه "موسى بن مصعب" الذى سبق أن ورد ذكره وتحديثنا عنه. وقد سلم إليه الحكام والكتاب والصيارفة الذين كانوا يعملون فى عهد عباس لكى يحاسبهم، ثم اتجه إلى بغداد.

إن هذا الطاغية عندما تسلم الأمر أحضر كل من كان حاكماً أو كاتباً أو صرافاً فى عهد عباس، وقبل أن يرحل من الموصل جمعهم وأرسلهم إلى بلد^(٢٧٧) وحبسهم بها مكبلين بالقيود الحديدية الثقيلة، دون أن يستمع لدفاع أحد منهم أو يجرى معه تحقيقاً ليتعرف على حقيقة ما إذا كان مذنباً أو بريئاً. إن هذا الرجل الذى جبل على الشر اتخذ لنفسه معاونين من كل بلدة، وكانوا رجالاً خائنين وأنانيين، لم يضعوا مراقبة الرب وعقابه نصب أعينهم، رجالاً قد اختير من بينهم "ابن الخطيئة"، رجالاً نامامين على شاكلته. كان يكرمهم فى كل المناسبات ويمجد أعمالهم، وذلك بالكلام وبالفعل، كما كان يعدهم بالعطايا السخية كما يعد للشيطان كل من يتبع خطواته ويعتقى أثره. ولكن الذى كان يدبر لهم فى الخفاء كان على نقيض ما وعدهم به، وهو سوء

(٢٧٧) بلد: بلدة تقع على نهر بجلة على مسافة ٢٢ كم جنوب الموصل، وقد خربت فى المائة الرابعة عشرة. (الزواجر المشرقة ص ٥٠٥)

العاقبة وبئس المصير. كان يخدعهم جميعا بأقواله ووعوده، فكانوا يدلونه على من كان فى بلده من كتاب أو حكام أو صيارفة، ويحيطونه علمًا بما يمتلكون من ثروات وعقارات، حتى أصبحت لديه معلومات كافية عن حق كل فرد، وصار على علم بثرواتهم. إن هؤلاء الخونة لم يحصلوا منه على مكافأة مجزية كما كان يعدهم، ولكن للرب وضعهم بين أيدي الكافر الذى كانوا يسرون على طريقه، وقد أساء معاملتهم أكثر من أى شخص آخر.

ظل هذا الطاغية محتفظًا بأولئك الذين كانوا يعملون تحت نفوذ "عباس" رهن السجن لمدة خمسة أشهر أو ستة، حتى تحقق من كل أعمالهم عن طريق هؤلاء الملحدّين الذين كان الطاغية قد اختارهم من بلادهم. عندما لم يصله أى بلاغ من أى بلدة بدأ يفرج عنهم واحدًا تلو الآخر، ووفقًا لما كان قد عرفه من اللواشين فرض - دون رحمة - على كل منهم قدرًا معينًا من الذهب، يتحتم عليه أن يدفعه له، فقد فرض على بعضهم ألفى دينار، وعلى بعضهم أربعة آلاف، وعلى غيرهم عشرة آلاف، وعلى بعض آخر خمسة عشر ألفًا، وعلى آخرين عشرين ألفًا، ومنهم من فرض عليه ثلاثين ألفًا أو أربعين ألفًا. كان يفرض عليهم ذلك ليس لأنهم مدينين بهذه المبالغ، ولكن لمجرد إشباع جشعه وإطفاء غيظه. كان أعوانه يكبّلون أرجل كل مدين منهم وأيديهم، حتى يحصل على المبلغ الذى كان قد فرضه عليه، وعندما كان هذا المغلوب على أمره يوافق كان يرسله مكبلاً بالحديد إلى بلدة مع فارسّين ومسؤولين، ليتسلما منه ذلك المبلغ. ثم بعد ذلك يأمر المحاسبين بأن يسجلوا كل ما تبقى لديهم.

كان هذا الرجل للظالم كلما رأى تمجيد الملك له أمعن فى فعل الشر، حتى ليضيف أمجادًا إلى أمجاده السابقة. وكان هذا الملك يستعذب الخراب أكثر من السلام، وكان يزلّ كالأسد فى وجه فريسته، وبدأ هو الآخر فى إيذاء الناس. بدأ يستغل المنطقة كما كان فرعون يفعل ببنى إسرائيل، فقد أمر

أولا المحاسبين أن يحصوا ثروات بلادهم، فإن هؤلاء المحاسبين قد تعلموا على يديه كيف يكونون جشعين، كما أنه هو نفسه لم يعط الأمر بالإحصاء بدافع العطف، وإنما بدافع الجشع، وليبني لنفسه مجداً وشهرة بإصدار تعديل جديد.

وقد نفذ هذا التعديل وفقاً لما حدث بعد ذلك، أي أن كل من كان مفروضاً عليه - وفقاً للتعديل الجديد - أكثر من ذى قبل كان يدفع وفقاً للإحصاء الجديد، ومن كان المفروض عليه أقل كان يدفع وفقاً لما كان عليه من قبل. إن رجال الإحصاء كانوا يطلبون الهدايا والهبات صراحة وبدون حياء أو خوف. وهكذا أحصوا البلدة، ولم يتركوا شيئاً إلا الخرائب الكثيرة التي خلفتها لصوصيتهم وجشعهم.

عن صانعي الوشم والعلامات

لقد أرسل مع المراقبين أيضاً صانعي الوشم والعلامات، وذلك سيراً على نهج الأولين الذين كانوا يضعون علامة على أى شخص يقع فى قبضتهم ليعرفوا اسم بلدته أو مدينته، حتى يتركوه بعد ذلك إليها. لقد دأبوا على ذلك ليس لمجرد إشباع جشعهم، ولم يقتصروا على وضع تلك العلامات، ولكنهم أضافوا من أنفسهم أشياء أخرى كثيرة.

إن صانعي الوشم كان يأتى أولاً بعظماء البلدة ويقول لهم: "تليجمع كل فرد أتباعه ويدخلهم البلدة ولا يخرج أحد منها، وإلا ستقع عليكم المسؤولية". وعندما أدخل هؤلاء العظماء الأفراد إلى البلدة كان يوضع على كل واحد منهم الوشم. كان يسجل على اليد اليمنى اسم بلدته وعلى اليد اليسرى يكتب أنه من منطقة "الجزيرة". كان يعلق فى رقبة كل واحد منهم شارتين، واحدة عليها اسم البلدة والأخرى اسم المقاطعة. منذ البداية كان يفرض زورا واحداً لكل مجموعة من ثلاثة أفراد. كان يسجل أيضاً اسم الشخص وشكله وهيئته،

ومن أى بلدة ومن أى مقاطعة هو آت. إن ذلك قد أغضب الأهالى جدًا، لأنه قد أدى إلى احتجاز كثير من الأجانب، فمهما كان المكان الذى يعينه رجال الإحصاء فقد كانوا يسجلونه باسم المنطقة، حتى ولو كانوا لم يدخلوها من قبل، وبمجرد أن ينتهى التسجيل نجد أنه يكون قد سبب ألماً عظيماً.

إن واضع العلامة عندما يرى أن عمله ليس كاملاً يخرج إلى الطرقات ويحتجز كل اللذاهبين والآتين. لقد جاب المنطقة أكثر من عشرين مرة، ولم يتوقف إلا بعد القبض على كل الأهالى ولم يفلت أحد من يده. وذلك كما قال النبى دانيال والرسول يوحنا: (اقرأ هذا العنوان كثيرون من اليهود لأن المكان الذى صلب فيه يسوع كان قريباً من المدينة، وكان مكتوباً بالعبرانية واليونانية واللاتينية).^(٢٧٨)

عن المعشرين (فارضى ضريبة العشر)

أرسل مندوبين آخرين لجباية العشر، وهؤلاء أيضاً أدوا إلى انتشار الاضطراب فى المنطقة، فقد دخلوا البلاد كما كانوا يدخلون أيضاً المتاجر ليروا ما بداخلها، فإذا وجدوا رجلاً فقيراً يمتلك بضائع بمائة زوزا كانوا يسجلون عليه خمسمائة، ولو كان لديه بألف كانوا يسجلون خمسة آلاف. كانوا يدخلون منازل السوريين والعرب وأى مكان، حيث كان يوجد القمح والشعير ومحاصيل أخرى من نفس الصنف فكانوا يصادرونها. كانوا يسجلون كذا ألف على فلان دون أن يعرفوا نوع البضاعة، وكانوا يفرضون جريباً على كل عشرة جريبات. كان هذا الاتفاق متفقاً عليه فى بغداد. ولو كان هذا الأمر قد استمر لكانت المنطقة كلها قد هلكت، لأن الكثيرين منهم كانوا يسجلون عشرة آلاف جريب لشخص لم يكن يملك غير عشرين، لأن هؤلاء المعتدين للظالمين الذين قد تقدم نكرمهم كانوا رؤساءهم فى الشر.

(٢٧٧) العهد الجديد: إنجيل يوحنا ١٩ : ٢٠.

كان موسى يطلبهم دائما فيذهبون إليه لإخباره بما يدور في بلدة كل منهم. منذ ذلك الوقت كان الأهالي يخدقون على فارض للضرائب في بلدتهم الهدايا والهبات، حتى يغلقوا فمه ويضمنوا سكوته.

ونتيجة لما تتبع في تعيين المعشر، وأيضا بسبب الواشين، هلك الفقراء تماما، واستطاعوا بعد جهد جهيد أن يرفعوا هذا الظلم. منذ ذلك الوقت خرجوا إلى الطرقات والممرات ونهبوا كل من يروح أو يغدو، كانوا يختبئون في الكمانن ليلا على جوانب الطرقات كاللصوص، ويأخذون ممتلكات الأفراد الذين كانوا يهربون من المعشر ومن الصافي، كانوا يقولون "نحن المعشرون". مثل الشر المستطير بدلوا في تخريب المدينة قاطعين للطرق على المارة، ولذلك توجه الرجال إلى موسى يشكون إليه، فأمر بعدم إلقاء القبض على أى شخص خارج المكان العام، وعلى الفور توقفوا عن آثامهم.

عن الصافي

إن كل نبته مهما كانت تنمو معتمدة على جارتها تكون أقل صلاحية من الأولى، إن تلك النباتات كانت تنمو في غصن سبي ومر، وتتغذى من غصن شر. لهذا كان مكتوبا (لأن محبة المال أصل لكل الشرور الذى إذا ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطغوا أنفسهم بلؤجاج كثيرة).^(٢٧٩) وأيضا (من يحب الفضة لا يشبع من الفضة من يحب للثروة لا يشبع من دخل، هذا أيضا باطل).^(٢٨٠) لو امتلك العالم بأسره سيتطلع أيضا إلى أن يمتلك ما لم تقع عليه عينه، وكما أن "جهنم" و"الشيطان" لا يشبعان أبدا، كذلك "ابن جهنم" و"ابن الشيطان" لا يشبعان أبدا من ثروات الرجال، لا من كرومهم، ولا من مواشيهم، ولا من حقولهم. كانوا يعملون جميعا لحسابه، وكان هذا أيضا لا

(٢٧٨) العهد الجديد: رسالة بولس الرسول إلى أهل تيموثاوس ٦: ١٠.

(٢٧٩) العهد القديم: الجامعة ٥: ١٠.

يكفيه. كان يمارس جشعه على الطرقات والجبال والجدول التي تصب في الأنهار، وحتى على الأموات. كان ينقل رفاتهم من أماكنها وينثرها مثل الزبل على وجه الأرض، وكذلك عظام الذين يرقدون في المقابر منذ ألفى عام أو ثلاثة آلاف.

وبمجرد وصول الذين كانوا مرشحين للصافي قاموا بالاستيلاء على الأماكن العامة والطرقات، وأوقفوا كل المارة. لقد استولوا أيضا على الأنهار، ليمنعوا المرور ويمنعوا الصيادين من صيد الأسماك. لقد قدروا مساحات الأماكن العامة بمقياس من الحبل، من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، أربعين ذراعا من جانب وأربعين ذراعا من الجانب الآخر. لقد استولوا على كثير من المنازل والمتاجر والمساحات، وصادروا كل متجر وجدوا أنه غير مسجل في التعديل القديم، وأجبروا الأهالي على إخلاء مساكنهم.

وبعد أن نجح صانع كل المصائب في تعذيب هؤلاء وأولئك بدأت الكارثة تتوقف، لقد قاموا سور المدينة، واستولوا على الأبراج وما يحيط بها، حتى يشبعوا طمعهم وجشعهم بكل طريقة. لقد أرسلوا مبشرا ينادى: "إن أى شخص يريد استئجار متجر أو برج فليذهب لمقابلة أمير الصافي". لقد سببوا كثيرا من الخسائر لهؤلاء الملاك بمجرد أن يسترد أى شخص شيئا من ثروته، بالإضافة إلى ذلك استولوا على أماكن البيع والشراء خارج البلدة.

ولما كان كثير من الأهالي يعيشون على صيد الأسماك من الأنهار، وكانوا يبيعونها لدفع الجزية القاسية المفروضة عليهم، فقد أرسل مبشرا ليعلن "إن أى شخص سيقوم بالصيد في النهر أو يضع فيه شباك صيد أو سلة دون أمر من الصافي سيعاقب بالموت". لذلك امتنع الأهالي عن الصيد، وإذا حدث أن قبض على شخص يقوم بصيد السمك، أو يقذف للشبكة في الماء، كانوا ينهالون عليه بالصفعات حتى يلفظ أنفاسه، ويأخذون ما معه. كانوا يطلبون

ممن يريد الصيد نصف ما يصيده، لذلك امتنع الصيادون عن الصيد في كل مكان. وقد جاء رسل ليطلبوا من الصيادين المال المفروض عليهم، فكما أن هؤلاء فرضوا مبلغا على القرى الموجودة على شاطئ النهر، فرضوا مثله بالنسبة لكل الأنهار. كان يعرف من أين وكم يجنى كل واحد، لأنهم كانوا يسيطرون على زوارق الممرات، وكان نصف الإنتاج يؤخذ.

منذ ذلك الوقت انتشر الهم والغم بالجميع من كل جانب، أى شخص كان يفلت من العشر كان يقع في الصافي، وأحيانا كان الاثنان يستوليان على شخص واحد في وقت واحد، كما لو كانوا يبحثون عن الهاربين ولا يتركون أحدا ينعم بالراحة.

عن الذين يبحثون عن الهاربين، وعن الأذى الذى اقترفوه

هذا الجذر^(٢٨١) من الاضطهاد تفرع عنه غصن يحتوى على سم قاتل، وصار أكثر من السابقين. لقد عين على كل الجزيرة حاكما مكلفا بإعادة كل واحد إلى بلده. عندما تلقى هذا الأمر عزم على نشر كل المصائب، فقد اختار رجالا كفارا، يمكن أن نطلق عليهم - دون أن نفتري عليهم - أسماء حيوانات متوحشة وجوارح. فقد اختارهم وأرسلهم إلى المدن، كما فرض أيضا قدرا من الذهب يجب على كل فرد أن يحضره إليه من المدينة. عين كثيرا من الحكام ووزعهم على كل مدن الجزيرة. لقد عين لكل مدينة حاكما، كان من واجبه أن يجمع أهلها لمحاولة إعادة الذين هربوا، لذلك كان يجوب كل المدن الأخرى حتى يجد الهاربين. ومن هذا المنطلق كان يمارس جميع أنواع الابتزاز، ليس فقط على الهاربين، ولكن أيضا على أهالى المدينة.

(٢٨٠) المقصود هنا هو موسى.

كانوا يهاجمون الرجال كالحوانات المفترسة، يمزقونهم دون رحمة، ويبيعون كل ما كانوا يملكون أو يحتفظون به كمكافأة لهم. كانوا يقودونهم إلى داخل المنازل، ثم يلقونها عليهم حتى يموتوا جوعاً. للكثيرون كانوا يموتون من الجوع ومن البرد ومن الضربات التي كانوا يتلقونها، حتى يعطوهم الزولزى، لأن كل ما كان يمتلكه هؤلاء الرجال الفقراء كان لا يكفي لإشباع طمع هذا الإنسان المتوحش الذي هبط عليهم، كما أنهم لم يكتفوا بهذا، بل هاجموا أيضاً سكان البلدة بدعوى "أن أحداً منا موجود بينكم".

إن ابتزازاتهم ونفقاتهم كانت تزيد عن المفروض على الجزية والضريبة، وإذا دخل أحد بلدة أو مزرعة كان يجد أكثر من أربعة حكام أو خمسة، وإذا حدث أن هرب أحد من بلدة إلى أخرى، مهماً كان الطريق الذي يسلكه، كان يقع في أيدي من يبحثون عن المنفيين أو الذين كانوا معينين لتحصيل الضريبة أو اللصوص، لأنه منذ ذلك الوقت كان هؤلاء يهبطون في وضوح النهار وعلائية، وليس فقط تحت ستار الليل. وإذا حدث أن هرب من هؤلاء إلى أى مكان فإن أهل القرى أنفسهم كانوا ينزلون به أشد أنواع الأذى دون أن يخافوا الرب.

إن الذى يجب أن نقوله الآن مع النبی موسى: (إنه قد اشتعلت نار بغضبى فتتقد إلى الهاوية السفلى وتاكل الأرض وغلتها وتحرق أسس الجبال. أجمع عليهم شرورا وأنفذ سهامى فيهم. إذ هم خاؤون من جوع ومنهوكون من حمى وداء سام أرسل فيهم أنياب الوحوش مع حمة زواحف الأرض. من خارج السيف يتكل ومن داخل الخنور الرعبة، الفتى مع الفتاة والرضيع مع الأثيب). (٢٨٢)

(٢٨٢) العهد القديم: التثنية ٣٢: ٢٢ / ٢٣ / ٢٤ / ٢٥.

هل تتصور أن النبي يتحدث عن الحيوانات المتوحشة وعن الثعابين التي تتدرج تحت جنس الحيوانات أو الطيور؟ لا... ولكن هكذا يدعو الذين ليس لديهم من الإنسانية إلا صورتها. إن كل خبث الأقعي والحيوان المفترس والجوارح تكمن في علاقتهم، لدرجة أن الفيلسوف يقول: "إني أرى الرجل ولكنني لا أرى الإنسانية". إنه في الواقع يرى صورة إنسان، ولكنه لا يرى سلوك الإنسان، بل سلوك حيوان مفترس وطيائر كاسر، فإن النبي يضيف أيضا ويقول: "سم الأقاعي".

فلنعلم أيها الحكيم أن كل تلك الأشياء توجد بداخلهم، وخاصة غضب مشتعل لا تمكن تهدئته، لأنه يزداد اشتعالا كالنار. لم تكن لديهم رحمة، ولكنهم كانوا كالذئاب المفترسة المجروحة بالحربة. إن حكام المنطقة كانوا مثل الكلاب الصامتة التي لا تستطيع النباح، وأصبحوا شركاء للصوص. كانوا يساعدونهم في كل ما يرتكبون من أضرار ومظالم، وإذا جاء مسكين ليشتكو إليهم أن خيراته قد نهبت كان لا يجد من ينصفه، لأن الجشع قد سد أذانهم وأغلق أعينهم، وأصبحوا غير قادرين على الاستقامة، لأنهم كانوا قد حادوا عن طريق العدل. كانوا يتفننون في الاستيلاء على كل ما يقع في طريقهم، وسلب ونهب كل خيرات الفقراء.

سنعرض أيضا للمصائب التي واجهها العرب، لأنه لم يفلت أحد من الأفة التي حلت في تلك الفترة بسبب كثرة سيئاتنا.

عن الحاكم المعين على صدقة مال العرب

إن كل عادات الثعلب المخرب مليئة بالظلم، وكذلك كل ميوله ومحاولاته مليئة بالغم والضيق، وأيضا بالجنون والانفداع. فقد عين حاكما

لصدقة مال العرب، وقام هذا الحاكم بعمل تعديل كالذى كان مفروضاً على السوريين وعلى مزارعهم. لقد سجل حقولهم وممتلكاتهم كلها، مهما كان نوع الممتلكات، وإذا كان مالکها، فإذا كان أحد يملك حديقة خضر أو كتان أو حمص كانت تسجل.

ولما كان لا وجود لمثل ذلك فى قوانينهم أو فى قوانين ملوكهم الأولين ظهر لهم هذا الشيء حقيراً ولم يشغلوا بالهم به، وعندما ينتهى من تسجيل خيراتهم يتوقف ويحسب، ويحدد قيمة الضريبة. لقد قدر الفدان الأكر^(٢٨٢) بأربع وعشرين زوزاً، وقد ثبت العشر لجباية الماعز والغنم والبقر ومنتجات أخرى بالسعر الباهظ الذى يروق له، وبالمثل بالنسبة للقمح. لم يترك لهم شيئاً دون إحصاء، ولا حتى النحل ولا الحمام ولا الدواجن، وإذا وجد فى أرض عربى حقلاً مزروعاً حمصاً كانوا يسجلونه كما لو كان حقلاً قمح أو شعير أو حديقة.

وبعد أن نظموا الضرائب كل واحد حسب خيرات، وصل أفراد من "عاقولا" و"البصرة"، كانوا دون رحمة أكثر ضرراً من الأفاعى، لصوص وملحدون، لا يخشون أبداً حكم الرب ولا يحترمون المسنين، ليس لديهم أى شفقة تجاه الأرامل، وينهبون أموال اليتامى. من هؤلاء الأشخاص كان جابى الضرائب، منذ ذلك الوقت لم نر سوى إلقاء القبض وحبس رجال محترمين ومسنين. كانوا ينهالون عليهم بالضربات كما يقومون بتعذيبهم، فكانوا يعلقون رجالاً محترمين ذوى أوزان ثقيلة وأجسام بدينة فى قيود من أنزعهم حتى يصبحوا على وشك الموت.

كان يجب - حسب رأيهم - أن يأخذوا العشر، ولكن فى الحقيقة عندما باع العرب كل ما كانوا يملكون لم يتمكنوا حتى من جمع ما هو مفروض

(٢٨٢) الأكر مقياس للمساحة يساوى نحو ٤ آلاف متر مربع.

عليهم. كانوا يحاولون إقناعهم أن يأخذوا حسب القانون الذى فرضه "محمد" رئيسهم ومشرعهم والحكام الأولون، أى أن يؤخذ قمح من أى شخص يملك قمحا وتؤخذ حيوانات من الذى يملك حيوانات، ولكنهم كانوا لا يستجيبون أبداً، وكانوا يقولون لهم: "لذهبوا بيعوا خيراتكم كما تريدون وأعطونا ذهباً".

فى الحقيقة تمت هنا معاقبة المجرم بواسطة المجرم، يوجد قول دنيوى يقول: "إن الأذية قد تنتصر بالأذية والترباق بالترباق الأكثر مرارة والأكثر ضرراً من الأفاعى".

إن هؤلاء العرب كانوا يظهرون مثل الموس فى الخشب وسط هؤلاء الفلاحين المساكين، ويأخذون أراضيهم ومنازلهم ومحاصيلهم ومواشيهم، لدرجة أنهم كانوا على وشك أخذهم هم أنفسهم وكذلك أبناءهم عبيداً. كان هؤلاء الفلاحون يعملون لديهم كالعبيد فى كل ما كانوا يمتلكون، كانوا لا يجدون أى نوع من الأمان بجوار الشعبان الملتوى، أى بجوار "موسى بن مصعب" الذى كرس كل حيله للقضاء عليهم. لم تكن نسمع من كل الجهات إلا ضرباتٍ وعذاباً وحشياً، وأحياناً كثيرة كان العرب يهلكون الفلاحين الذين يقيمون فى أراضيهم، لأنهم كانوا يفرضون عليهم ويجبرونهم على أن يشاركوهم فى الدفع، حتى دمرهم وأخذوا كل ما كانوا يملكون فهربوا من مساكنهم. ولما كانت بداية الكارثة وبداية الخراب، وكانت لا تزال هناك موارد كافية فإنهم لم يتمكنوا من إهلاكها، ولكن هؤلاء الحكام الظالمين لم يكتفوا بذلك فقط، بل كانوا يقدرون الفدان بأربعة وعشرين زوزاً، وكل ثلاثين بقرة مقابل عجل للاختيار، وكل عجل بثلاثى عشر زوزاً، وأربعين بقرة مقابل جاموسة، وكل جاموسة بأربعة وعشرين زوزاً، وكانت فى السوق لاتساوى أربعة، وكانوا يفرضون على كل خلية نحل زوزاً.

إن مكرهم لم يتوقف عند هذا الحد، فقد فرضوا ضريبة على الدخول الأخرى واحداً واحداً، كل واحد حسب رغبته. ولما كانوا يعاملون السكان

المسنين والمحترمين دون رحمة ودون احترام فقد ذهب بعضهم إلى موسى، وبكوا أمامه وشكوا إليه، فاستجاب لمطلبهم وترك لهم اثني عشر ألف دينار، ولكن كما كان مكتوبا (الأعوج لا يمكن أن يقوم والنقص لا يمكن أن يجبر).^(٢٨٤) وإذا حدث بالصدفة أن أصبح متفهما للوضع فيكون هذا عن طريق السهو، ويكون قد نسي نفسه وهو يعمل للخير، ولكنه فجأة يرجع إلى رشده، ويطلب منهم مرة أخرى الاثني عشر ألف دينار. إنه من الصعب فعلا أن يصبح المرء حلوا وأن تنتج الأشياء تمرا.

وبسبب كل ذلك الغضب الكريه الذي أصاب الرجال في جبابرة الضريبة، والذي استمر طويلا، لا أحد يا إخواني يلوم الكاتب لو مر بهدوء ذاكرًا معظم الأضرار التي حلت بنا، لأنه لو أصبح كل الرجال مؤرخين، وإذا تحول كل الخشب إلى أقلام، وكل النبيذ إلى حبر، ستبقى كل السيئات التي أحاطت بالأرض، ولا تكفى لكتابة وسرد ما حدث بالمنطقة.

ننتقل الآن إلى أحداث أخرى، ونترك بعض الذكريات إلى الذين سيأتون من بعدنا إلى هذا العالم.

عن العلامة القديمة التي ظهرت في منطقة الشمال في ذلك العام

كان الرب قد تحدث قديما عن طريق أنبيائه إلى أقوامه المتمردين، وفي النهاية تحدث عن طريق ابنه الحبيب إلى كل أبناء آدم (الله بعد ما كلم الآباء بالأنبياء قديما بأنواع وطرق كثيرة. كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثا لكل شيء الذي به أيضا عمل العالمين)^(٢٨٥) والآن إلينا نحن أبناء الغضب الذين لديهم أقوال الأنبياء، والعهود التي أداها

(٢٨٤) العهد القديم: الجامعة ١: ١٥.

(٢٨٥) العهد الجديد: رسالة إلى العبرانيين ١: ١ / ٢.

"المخلص" لكنيسة، وتبنيها الرسل، قد أدت إلى تحجر قلوبنا، وأغلقت عيوننا وصمت آذاننا، لكي لا نرى بأعيننا ولا نسمع بآذاننا ولا نفهم بقلوبنا الأقوال المطمئنة لمخلصنا حتى تحوّلنا عن مكرنا وأن نعيش، فقد أظهر لنا في السماء علامات توضح تهديده ضد الشعب الجاحد الذي كان يراه، لقد أبرز إلى الرجال الأشرار ضخامة مكرنا وثورة عدله التي تهددنا.

إن العلامة التي قد ظهرت السنة الماضية في المنطقة الشمالية ظهرت مرة أخرى هذا العام في شهر حزيران (يونيو) يوم جمعة، لأنه خلال السنوات الثلاث المتتالية التي ظهرت فيها كان يوم جمعة. كانت تمتد من الشرق إلى الغرب، وعندما كان يُنظر إليها كانت تأخذ أشكالاً متعددة. عندما كان الشعاع الأحمر يختفي كان الأخضر يظهر، وعندما يختفي الأخضر كان الأصفر يظهر، ولما كان هذا يختفي كان الأسود يظهر. إن هذا لا يعني أن الأرض لن تتحمل إلا كارثة واحدة، ولكنها ستتوالى الواحدة تلو الأخرى كما حدث لنا فعلاً. إن شكل هذه العلامة كان كما وضحناه سابقاً.

عن جباية ضريبة الرعوس في السنة الأولى للكرثة

(هلم يا شعبي ادخل مخاضك وأغلق أبوابك خلفك، اختبئ نحو لحيفة حتى يعبر الغضب).^(٢٨١) ونفس النبي قال أيضاً: (ولكن هكذا يقول السيد رب الجنود: لا تخف من آشور يا شعبي الساكن في صهيون، يضربك بالقضيب ويرفع عصاه عليك على أسلوب مصر. لأنه بعد قليل جداً يتم السخط وغضبي في إبادتهم).^(٢٨٧) وقد صاح نبي آخر، عندما رأى بعين النبوة هذا الزمن السيئ والخراب القاسي الذي حدث بالشعب والأساقفة وبالمعبد المقدس، واختفاء الفرحة من أعين الرجال، وقال: (تنطقوا ونوحوا أيها

(٢٨١) العهد القديم: إشعواء ٢٦: ٢٠.

(٢٨٧) العهد القديم: إشعواء ١٠: ٢٥/٢٤.

الكهنة، ولولوا يا خدام المنبح، ادخلوا بيتوا بالمسوح يا خدام إلهي لأنه قد امتنع عن بيت إلهكم التقدمة والسكيب. قدسوا صوما نادوا باعتكاف اجمعوا الشيوخ جميع سكان الأرض إلى بيت الرب إلهكم واصرخوا إلى الرب. آه على اليوم لأن يوم الرب قريب، يأتي كخراب من القادر على كل شيء^(٢٨٨). ها هو أمام أعيننا، لقد اختفى الطعام من بيت الرب، وكذلك الفرحة والحبور. لقد اختفت الفرحة والسعادة من بين الناس، وأبطل الاحتفال بأيام الأحاد والأعياد وتوقفت التضحية، ولم تحدث مطلقاً لراحة الخمر للمذبح المقدس. أعيادنا تحولت إلى معازٍ، وفرحتنا إلى أحزان، وحبورنا إلى كرب. في اليوم المحدد سينزع الرب حالة بنات الكنيسة المقدسة، وعن السيدات الفاضلات ثيابهن وحليهن، والفتيات من على الوجوه، والأقراط من الأذان، والعقود والأساور من كل الأنواع، والحرير وسروليلهن والأحذية، وملابسهن الرقيقة ذات اللون الأرجواني، وثيابهن وأقمشتهم للبنفسجية والقرمزية، وكل حليات زينتهن. سيكون لهن خردل بدلا من العطر العذب، وبدلا من الزنار سلاسل، وبدلا من الشعر الجميل للصلع، وبدلا من أقمشة بنفسجية المسخ والخرق. في هذا اليوم يقول إشعياء: (يصلع السيد هامة بنات صهيون ويعرّى الرب عورتهم. ينزع السيد في ذلك اليوم زينة الخلاخيل والصفائر والأهلة. والحلق والأساور والبراقع. والعصائب والسلاسل والمناطق وحناجر الشمعات والأحرار. والخواتم وخزائم الأنف. والثياب المزخرفة والعطف والأردية والأكياس. والمراني والقمصان والعصائم والأزر. فيكون عوض الطيب عفونة وعوض المنطقة حبل وعوض الجدائل قرعة وعوض الديباج زنار مسج وعوض الجمال كى^(٢٨٩)). سيتجولون مع بناتهم من بلدة إلى بلدة، ومن منزل إلى منزل، جائعات مسلوبات واهنات.

(٢٨٨) العهد القديم: يوشيل ١: ١٣/١٤/١٥.

(٢٨٩) العهد القديم: إشعياء ٣: ١٧/١٨/١٩/٢٠/٢١/٢٢/٢٣/٢٤.

تعالوا إذن إلى الزمان المحدد ونوضح ما حدث به. أولاً جاء حاكم لجباية الضريبة، فقد أعلن للسلام وقال: "ابقوا في سلام ولا تخشوا شيئاً، إنني جئت لجباية الإحصاء الجديد، ولن أحاسب منطقة بدلا من أخرى ولا بلدة بدلا من أخرى ولا رجلاً بدلا من آخر". لقد تصوروا أن الحقيقة كانت على لسانه، فصدقوه وقالوا: (أنعم من الزبدة فمه وقلبه فتال، ألين من الزيت كلماته وهي سيوف مسلولة).^(٣٩٠)

أخذ الضريبة وجباها من كل فرد في بلدته، فأرسل إليهم حكاما كثيرين، وعين على كل بلدة حاكمين أو ثلاثاً، والذين عينوا بدورهم رئيساً لكل عشرة رجال، وأيضاً رئيسين لكل مقاطعة، كل واحد معه كثير من المساعدين. هكذا خرجوا كالذئاب الجائعة المنقضة على قطيع من الغنم، إن الطرقات كانت مليئة بناقلي البريد، يروحون ويجيئون في سرعة خاطفة كالبرق، لدرجة أنه لو كان في البلدة عشرة من المبتزين أو عشرون لكان لزاماً على الأهالي أن يعطوهم ما يطلبون، ولكانوا يقومون بفض الحقائق حتى يحصلوا على ما يريدون، ولما كان هناك من يحاسبهم على ما يفعلون. كانوا ينهبون ويسلبون أموال الأرمال واليتامى، أخذوا كل الماشية عنوة وباعوها لحسابهم، حتى الفلاحون أنفسهم أساءوا معاملة الفقراء الذين يقيمون بينهم.

ولقد دفعنا الثلث الأول^(٣٩١) ولم يكن قد سدد بالكامل حتى وصل حاكم آخر صرف الأول وطلب الثلث الثاني، ولكن الذي طلب وأدى إلى دفع الثلث الأول طلب بجرأة ودون حياء لكي يعوض نفقاته.

(٣٩٠) العهد القديم: المزمور ٥٥: ٢١.
(٣٩١) كانت جباية الضريبة مقسمة إلى ثلاثة أقسام.

هكذا جبا ورحل (وكل واحد كان يسير إلى جهة وجهه، إلى حيث تكون الروح لتسير تسير، لم تثر عند سيرها)^(٢٩١) وكنا نظن أنه سوف يعود. لو قال أحد إنه عند جباية الثلث الأول كان يجبي ثلثاً آخر عن طريق المبترزين، لم يكن هذا افتراء، وذلك دون التحدث عن لصوصية الحاكم ولا عن رؤساء المقاطعة والولاء.

عن الحاكم الثاني

كان رجلاً محتالاً مخادعاً شرماً جشعاً صديقاً للصوص، لدرجة أنه كان يستولى دون حياء على خبرات البشر، وعندما كان يأتي إليه أحد طالباً تطبيق العدل كان يتدخل ويأخذ كل ما لديه ويعطيه للصوص. كانت كلماته حلوة المذاق كالعسل، ولكن نهايتها كانت أشد مرارة من الأفسنتين والمر. لقد اختار لنفسه حاشية من رجال قد أغمضوا أعينهم عن الخوف من الرب، وأطلقهم كالذئاب في البلاد.

لقد طلب من الولاة أولاً أن يحصوا نصيب الأمير، وذلك عند قيامهم بالإحصاء. عندما كان رؤساء المقاطعة والحكام يدخلون قرية كانوا يلقون القبض على حاكم القرية، ويضطرونه إلى إحضار كل ما قام بجبايته. كانوا يتقبون كيس النقود ويأخذون منه كل ما يريدون قائلين: "هذا نصيب الأمير". كانوا يضربون دون رحمة الرجال المحترمين والمسنين الذين غزا الشبيب مفرقهم. منذ ذلك الوقت لم تكن نسمع إلا النواح في كل اتجاه.

كان أيضاً يساعد كل الحكام المكلفين بالبحث عن الهاربين، لأنه كان شريكاً لهم في اللصوصية. فأرسلهم إلى أقصى الحدود وكلفهم بجباية ثلاثة

(٢٩٢) العهد القديم: حزقيال ١: ١٢.

أضعاف قيمة الضريبة أو أربعة أضعافها. كان يتفنن في أن يكبل شعب الله بكل أنواع العذاب المرير. وكان عظماء المدينة أنفسهم يساعدونه، لأنه كان يعدمهم بوعود كبيرة، وكان يجبي للضريبة لنفسه وليس للخزانة الملكية.

لقد تضاعفت الكوارث على المنطقة، النفى والمبتزون الذين كانوا يطلبون ما كان مفروضا على من توفي منذ عشرين عاما، ويقومون بتحصيل نفس الضريبة أكثر من مرة دون رحمة، بالإضافة إلى سبيلات أخرى مثل المغالاة في الضرائب وغيرها، والتي لا يمكن حصرها بسبب كثرتها. كان مجبولا على الشر، فلم تكن بعد قد جمعنا الثلث الأول والثلث الثاني حتى قام هذا الظالم بعمل إحصاء لكل سكان البلدة من العرب والسوريين. لم يعلم بذلك أحد إلا بعض المنحرفين مثله، وكانوا يشاركونه في ابتزازاته. لقد سجل في هذا الكتاب: "إن إرادتنا الطيبة تجعلنا نكتفى بمائة وعشرين ألف دينار. إننا لانقبل امتيازاً ولا غياباً ولا التماساً". لقد سجل أيضا في نفس هذا الكتاب اسم وثروة كل رئيس بلدة، وأرسل الكتاب إلى مصدر كل السيئات، إلى "ابن مصعب". أنا أتصور أن كل هذه الأضرار تصدر من هذا المصدر، لأن كل الحكام الذين عينهم كانوا يعملون نفس الشيء.

إن الحاكم قد تلقى أمراً بأن يذهب هو وعظماء البلدة إلى "موسى"،^(٣٩٣) فجمع الأكابر وأوفدهم إليه، وفي نفس الوقت بذل لهم العهود ووعدهم بأشياء جميلة، وذلك ليمنتحوه أمام موسى، وأعطاهم نفقات السفر، ولكن تلك الخطة لم تخف على أبناء البلدة. ومنذ ذلك الوقت دب بينهم التنافس والبغضاء. وعلى امتداد الطريق كانوا يتشاجرون فيما بينهم، لأن سكان المدينة كانوا يحبونه وسكان القرى كانوا يريدون غيره. وفي النهاية رجحت كفة أهل القرى على كفة المدنيين، وخاصة عندما علم أبناء المدينة بالشر الذي كان يهددهم، عن طريق المعاهدة التي كان قد أبرمها وأرسلها إلى ابن

(٣٩٣) المقصود هنا هو "موسى بن مصعب".

مصعب. لقد توقفوا عن تأييده وجاءوا بآخر، عقد معهم اتفاقاً بسبعين ألف دينار ورحل.

عن الحاكم الثالث

كان هذا خاتمة ثالوث الغضب، فقد كان أكثر ضرراً من زملائه، لأنه نما على فرع سيئ؛ حيث غرس الشر مصحوباً بالقوة والمهارة. فإذا لم يصف شيئاً إلى الأضرار التي اقترفها سابقوه قلن يجترئ منها شيئاً، فكان مثل زملائه لصاً وشريكاً للصوص، جعل المساكين يقاسون كل أنواع الظلم والكوارث، ونهب خيراتهم وباع كل ما كانوا يمتلكون. لقد بسط الظلم على أناس كثيرين، لأنهم كانوا يتخلصون من الفقير ويجعلونه يعاني مظالم كثيرة، ولما كانوا يعرفون أنه لا يستطيع الوفاء بما يطلبون لأنه لا يمتلك شيئاً كان هؤلاء الحكام المملحدون يقولون له: "أخرج إلى الساحة العامة، وابحث عن شخص نعرف أنه يمتلك شيئاً، وقل لقد وضعت ثروتى رهينة عند هذا الرجل، إنه مدين لى". فهذا البائس المضطهد من كل ناحية، من اليمين ومن الشمال ومن الأمام ومن الخلف ومن أعلى ومن أسفل، كان مجبراً على أن يشهد على شخص ظمناً. خوفاً من الرب كان يريد أن يرفض، ولكنه لم يتمكن لأنه كان مدفوعاً بتهديدات هؤلاء الحكام المملحين. لقد اتخذ الرب شاهداً على أنه أجبر على العمل، وأنه ليس بإرادته الخاصة أن يشهد زوراً ضد هؤلاء الذين لم يكن قد رآهم أو عرفهم من قبل. وماذا يقال في هذا الموضوع إذا كانت الغلبة للشر على الخير وللكذب على قول الحق؟ في الحقيقة كان هؤلاء الحكام يحبون هؤلاء الذين يجارونهم في قول الكذب. إن السنة السوء كانت أعذب لديهم من قول الحق، وكذلك الذين ينطقون بالظلم والذين كانت أيديهم مغموسة في الأعمال الدنيئة، لو كان هناك رجل لا يسايرهم ولا يمارس الكفر معهم لكانوا يسلكون معه كل أنواع السبل المكروهة.

هذا الملحد تنقل في كل البلاد مدعيًا ظلمًا أنه من سلالة "موسى"، فجمع كل الماعز والأغنام والبقر وكل خيرات الأهالي المساكين، فكان يبيع عززتين حبلين بزوزا واحد، وشاتين أو ثلاثًا بزوزا، وخمسة ثيوس بزوزا، وحمار بزوزيين، وثورًا بثلاثة زوا، وبقرة سميئة ممثلة بثلاثة زوا أو أربعة.

ضعف القمح وذبل في الحقول بسبب الجفاف الذي سئحدث عنه، كان الرجال ينصبون الكمائن بالتبادل. إن الأسنة كلها كانت تتطوق بالأخطاء، والكل يسير في طريق الكذب.

إن إرميا كان ينظر إلى تلك الأشياء بعين النبوة عندما قال: (احترزوا كل واحد من صاحبه وعلى كل أخ لا تتكلوا لأن كل أخ يعقب عقبا وكل صاحب يسعى في الوشاية. ويخبل الإنسان صاحبه ولا يتكلمون بالحق، علّموا ألسنتهم التكلم بالكذب وتعبوا في الافتراء).^(٣٩٤)

ولأنهم كانوا قد اجتمعوا وجلسوا من أجل الغش وثابروا فإنهم لم يعرفوا الرب قط، بسبب كفرهم كان الناس جميعا كاذبين والكل محووط بالظلم، الكل يجرى في طريق الشر، لم يوجد مطلقًا من يفعل الخير. لقد ضلوا جميعا الطريق. كانوا منطلقين في الشر لأن رؤساءهم كانوا ينتقلون من مكر إلى مكر، ويسارعون من ظلم إلى ظلم، فكانوا ينهبون ويسلبون الفقراء، الذين كانوا فيما بينهم كالحملان وسط الذئاب، فجعلوهم يقاسون كل أنواع العذاب، وباعوا كل ممتلكاتهم التي لم تكف تكفى لدفع الضريبة، فضلا عن التحدث عن الكوارث الأخرى التي كانوا يقاسونها من جانب الذين كانوا يبحثون عن المنفيين، والذين اغتصبوا للماشية مندوبين عن العشر، وعن الصافي، وعن التعديل. أي فرد كان مفروضا عليه أكثر في التعديل الجديد كان عليه أن يدفع وفقا للجديد، والذي كان مفروضا عليه أقل فعليه أن يدفع وفقا للقديم. كان الأسى والمرارة يحوطنهم من كل الجوانب.

(٣٩٤) العهد القديم: إرميا ٩: ٥/٤.

عن ضرائب هذا العلم

سننتقل من سينات إلى سينات، إن الذى ينجو من إحداهن سيقع فى أخرى أقسى من الأولى، والمبتزون لتأكدهم من أنه لن يقوم باستجوابهم أحد فرقوا البشر وفرضوا عليهم دون شفقة أو رحمة. كان رؤساء البلد أنفسهم زملاء للصوص بل أسوأ منهم. لقد جباوا مبيعين ألف دينار ولكنهم دون رحمة طالبوا بدفعها ثلاث مرات. كانوا يقولون "إن قرية كذا دمرت ولا يمكن أن نفرض عليها"، ويطلبون مرة أخرى ما كانوا قد جمعوه من تلك البلدة، وكانوا يذهبونه بالاتفاق مع الرؤساء.

عندما خرجوا لجباية الضريبة بعد أن حددوا لكل شخص ما عليه، تعرض كل الفقراء للنهب. فأخذوا خيرات أغنياء البلدة حتى لم يبق لأحدهم شىء. وإذا حدث أن أحدا كان يمتلك ماثية وكان من بلدة أخرى كانوا لا يتركون له شىئا إلا باعوه.

انقضوا أيضا على المارة فكانوا يلقون القبض على كل شخص يغدو أو يروح، فيأخذون ماثيته وخيراته ويبيعونها. حدث أن خرج سبعة لصوص معا وكونوا جماعة مثل جماعة الأمير. كانوا يستولون على خيرات كل من يقابلونه قائلين: "تريد مساهمتك". منذ ذلك الوقت لم يعد يسمع من كل جانب إلا صوت العويل والصراخ، وإذا هرب أحد من تلك البلدة كانوا يذهبونه فى الطريق، وإذا هرب دون أن ينهب فى الطريق كانت البلدة نفسها، التى كان متجها إليها لتكون ملجأ له، كانت تعد له اللصوص والسفاحين وقطاع الطرق لاستقباله. وإذا اتجه أحد إلى الصحراء خرج اللصوص لاعتراض طريقه كالأسود، وإذا تجول فى البلدة المأهولة يجد آخرين كالذئاب، وإذا دخل أحد بلدة فإن الفلاحين ينهشونه كالأنعام، فإذا لجأ إلى التبلد طالبًا النجدة فإنهم يسدون الطريق أمامه بالعراقيل كأنها العقارب لكى ينهبوه. إن محصل الضرائب كان يعامله بثلاثة أضعاف القسوة التى كان يعامله بها الحاكم

أو اللص، حيث يطلب ثلاث مرات أكثر مما يستحق. كان يقال للحاكم: "هذا الرجل يجب عليه كذا". وكان يتعرض للضرب إلى حد الموت، قائلين: "ادفع". ولم يكن هناك من يحاسب الوالي على لصوصيته. إن كثيراً من فقراء العرب والسوريين كانوا يخرجون إلى ضواحي المدينة يتجولون في الشوارع وحول الطواحين، حيث يقومون بنهب الأهالي. كانوا يقولون لهم: "تعالوا فإن الأمير يطلبكم، تعالوا ادفعوا نصيبكم". كانوا ينهبون ويسلبون كل الناس تماماً، فكان كل واحد يهرب من ضواحي المدينة كالهارب من خندق مليء بالأفاعى.

إن الفقراء كانوا يعانون أيضاً من كارثة أخرى. عندما جاء راسمو الوشم كانوا قد هربوا بحثاً عن ملجأ في كنف الولاة ورؤساء المقاطعات، ولما كانوا يخشون المبتزين والذين يبحثون عن المنفيين طلبوا منهم أن يكونوا تحت حمايتهم. لذلك عندما تم الصلح فرض الولاة عليهم ضرائب، ونشروا المحصلين ومن يبحثون عن المنفيين في كل مكان. إن أى فرد لم يكن قد دخل المدينة من قبل كان عليه أن يدفع غرامة قدرها ثلاثون ديناراً أو أربعون.

وكانت الغرامة في الرها أكثر من أى مدينة أخرى، كان للنبلاء يعانون من هذا التقسيم، فقد عُن عليهم رجلاً فظاً يدعى "رازين". عندما قبض على رجل فقير، وكان يعلم أنه لا يملك شيئاً، فرض عليه حارسين وقال له: "أخرج إلى الساحة العامة وابحث عن أحد، وقل له: أجب بدلا منى. ثم امهرب". فاستجاب لذلك، وذهب إلى الساحة واقترب من شخص، وعندئذ قبض الحراس على هذا الرجل بينما تركوا الأول يهرب، وقبل أن ينطق هذا المسكين بكلمة سحبوه وقادوه إلى الأمير. لقد جالبت عن هذا فاندفع ما هو عليه. كان الآخر يقسم: "لم أجب نيابة عنه، إنى لا أعرفه". ولكنهم وضعوا الأغلال في رجليه، لدرجة أن ساقيه تكسرتا، ولم يتركوه إلا عندما أحضر المبلغ المحدد.

(ويكون في يوم ذبيحة الرب أنى أعاقب الرؤساء وبنى الملك وجميع اللابسين لباسا غريبا. وفي ذلك اليوم أعاقب كل الذين يقفزون من فوق العتبة الذين يملأون بيت سيدهم ظلما وغشاً).^(٣٩٥) هذا هو ما أرشدنا إليه النبي صفنيا، الذى تحدث عن يوم ذبيحة الرب. ما يوم ذبيحة الرب غير يوم الآلام لمخلصنا، فترة كانت فيها كل سنوات الكوارث تكبلنا بالمصائب، لدرجة أن الأعياد قد تحولت إلى ماتم. أى أمراء وأى أبناء ملوك وأى لصوص وأى نهابين يملأون منازلهم بسلب الفقراء ونهبهم ونهب اليتامى والأرامل أكثر من أهل الرها؟ الآن الأشياء المكتوبة كانت مكتملة. إن حكمتهم وذكاءهم قد ضاعت، لقد طلبوا بحكمتهم شيئا واحدا ولكنهم لم يجدوه (ويعرف الضالو الأرواح فهما ويتعلم المتمردون تعليما).^(٣٩٦) (لأنه مكتوب سابد حكمه الحكماء وأرفض فهم الفهماء)،^(٣٩٧) (فتكون ثروتهم غنيمة وبيوتهم خرابا ويبنون بيوتا ولا يسكنونها ويفرسون كروما ولا يشربون خمرا. ذلك اليوم يوم سخط يوم ضيق وشدة يوم خراب ودمار يوم ظلام وقتام يوم سحب وضباب. وأضايق الناس فيمشون كالعمى لأنهم أخطأوا إلى الرب فيسفح دمهم كالتراب ولحمهم كالجلّة)،^(٣٩٨) (هذا لهم عوض تكبرهم لأنهم عيروا وتعظموا على شعب رب الجنود).^(٣٩٩)

كل هذا حدث ولم ينقص منه شيء. إن العالم بأكمله لن يكفى لكتابة المصائب العديدة التى تكبدها الفقراء، ولم تكن لابتزازاتهم بداية ولا نهاية، لم يكتفوا أبدا بالسلائب التى نهبوها. وفقا لأمره تجمع كل الشعب وحبس فى كنيسة فى المدينة.

(٣٩٥) العهد القديم: صفنيا ١: ٩/٨.

(٣٩٦) العهد القديم: إشعياء ٢٩: ٢٤.

(٣٩٧) العهد الجديد: الرسالة الأولى إلى أهل كورنتوس ١: ١٩.

(٣٩٨) العهد القديم: صفنيا ١: ١٧/١٥/١٣.

(٣٩٩) العهد القديم: صفنيا ٢: ١٠.

عن الاعتقال فى الكنيسة الذى حدث ذلك العام

(قد أخطأت أورشليم خطية من أجل ذلك صارت رجسة. كل مكرمها يحتقرونها لأنهم رأوا عورتها وهى أيضا تنتهد وترجع إلى الوراء. بسط العدو يده على كل مشتهياتها فبها رأت الأمم دخولاً مقبسيها الذين أمرت أن لا يدخلوا فى جماعتك)،^(٤٠٠) (كره السيد مذبحة، رذل مقبسه، حصر فى يد العدو أسوار قصورها، أطلقوا الصوت فى بيت الرب كما فى يوم الموسم. ونزع كما من جنة مظلمته، أهلك مجتمعه، أنسى الرب فى صهيون الموسم والسبت ورذل بسخط غضبه الملك والكاهن).^(٤٠١) فليأت الآن النبى إرميا ليرى بعينه كل ما كان قد نتبأ به، لقد تحققت فعلاً نبؤاته.

عندما أمر الحاكم^(٤٠٢) الظالم أن يتجمعوا أصدر أمراً بقضى بأن أى شخص يخفى رجلاً سوف يعاقب بالموت، فخرج أعوانه ليجمعوا كل شعب المدينة. لقد قاموا بتفتيش دقيق فى المنازل، وأجبروا الجميع غنياً كان أو فقيراً أن يدخل الكنيسة، وإذا كان رب المنزل غائباً كانوا يأخذون عائلته، وإذا وجدوا رجلاً مختبئاً كانوا ينهالون على رب المنزل الذى كان مختبئاً به ضرباً حتى الموت، ويبيعون كل ما يملك. هكذا قبضوا عليهم جميعاً صغيراً وكبيراً، عرباً وسوريين. صعد هؤلاء الكفار وجلسوا وسط المذبح ونهبوا أى شخص نما إلى سمعهم أن لديه فلساً (أوبول).^(٤٠٣) كانوا يأخذون هؤلاء البؤساء الذين أنقلوا بالديون وفقدوا ثروتهم وكذلك ثروات زوجاتهم ليندفعوا ما لم يكن يجب عليهم دفعه، لأنه كان يقال لهم: "يجب أن تدفع لملك البلدة". إن الظلم قد ارتفع شأنه لأن الحقيقة قد اختفت. إن الكذب قد ظهر جلياً فى وضع

(٤٠٠) العهد القديم: مراثى إرميا ١: ٨/١٠.

(٤٠١) العهد القديم: مراثى إرميا ٢: ٦/٧.

(٤٠٢) المقصود هنا هو "رازين".

(٤٠٣) الأوبول وحدة وزن ونقد فى اليونان القديمة.

النهار لفقدان العدالة. لقد جعل الأهالي يعانون أشد أنواع الآلام، فقد باع كل ما يملكون وقبض هو الثمن. لقد لوثوا الكنيسة من الداخل لأن الجميع رجالاً ونساءً ألقوا بنفاياتهم بها، لأنهم كانوا قد مكثوا بها ثلاثة أيام وثلاث ليال. لقد خربوها وفاحت منها رائحة عفنة بدلا من الرائحة الزكية (اللهم إن الأمم قد دخلوا ميراثك، نجسوا هيكل قدسك، جعلوا أورشليم أكواما).^(١٠١)

إن التجار الذين أدوا المبلغ بأكمله طلبوا من الفلاحين سند التنازل، ولكن لم يستجب لهم أحد، فشكوههم إلى الحاكم للكافر الذي قال للفلاحين: "اكتبوا لهم إذا أردتم". وهكذا فإن الذين أرادوا قاموا بالكتابة، والذين لم يرغبوا رفضوا. على كل حال فإن الذي كتب لم يجد نفعاً، لأنه قد صدر منشور وأعلن مبشر: "ليس على أحد أن يدفع شيئا، وليس لأحد أن يطلب بدين قديم أو حديث".

فذهب تجار المدينة وأهاليها الذين أسيتت معاملتهم إلى موسى بن مصعب* يشكون إليه من الظلم الذي كانوا هم ضحاياه. ولكنهم كانوا في الحقيقة واهمين مضللين، لأنهم كانوا يطلبون العدل من رجل ظالم، وكانوا لا يتصورون أن كل ذلك يصدر منه. إنه لم يرفض فقط رد ثرواتهم إليهم، ولكنه غضب على الحاكم لأنه لم يطلبهم بثلاث مرات زيادة.

توجه "ابن مصعب" إلى الملك في بغداد، كما تجمع كل شعب الموصل والجزيرة وتوجهوا من بعده إلى الملك أيضا. كان هناك الآلاف بل عشرات الآلاف ينوحون ويبكون ويذرفون الدموع أمام الأمير لمدة تزيد على خمسة أشهر أو ستة من شدة الظلم. لم يجد أحد منهم من ينصفه، بل أصابهم من الأذى أكثر مما تعرضوا له قبلاً نتيجة ألم الأحشاء ومختلف الأمراض، ولم يعد نصفهم إلى أوطانهم. هكذا عادوا من بغداد دون أن يجنوا شيئا سوى

(١٠٣) العهد القديم: المزمير ٧٩: ١.

الشر الذي جلبوه على أنفسهم وعلى بلادهم (الحكم المصغى إلى كلام كذب كل خدامه أشرار).^(١٠٥)

عن أنواع العذاب التي تكبدها الرجال في تلك الفترة

إنه ليس من الغرابة في شيء أن نضع هذا في تعليق حزين، ربما كان الذين سيأتون من بعدنا عندما يرون عقوبتنا سيخشون الرب. إنه مكتوب: (خشية الإنسان تضع شركا والمتكل على الرب يرفع)،^(١٠٦) (لذلك، هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: هاأنذا أطعم هذا الشعب أفسنتينا وأسقيهم ماء العلقم. وأبددهم في أمم لم يعرفوها هم ولا آبائهم وأطلق وراءهم السيف حتى أفنيهم)،^(١٠٧) (لأنك جربتنا يا الله، محصتنا كمحص للفضة)،^(١٠٨) (أدخلتنا إلى الشبكة، جعلت ضغطا على متوننا)،^(١٠٩) (ويل لأشور قضيب غضبي، والعصا في يدهم هي سخطي).^(١١٠)

لقد تنبأ الأنبياء بتلك الأحداث من قبل، أما نحن فقد رأيناها تتحقق أمام أعيننا ولمسناها بأيدينا وشعرنا بها على أجسادنا. الآن ليس في مقدورنا السمع ولكن لدينا الإحساس، في البداية كانوا يصنعون ألواحاً خشبية عرضها أربعة أقدام ومسطحة من الجانبين، ثم يلقون عليها برجل وجهه ناحية الأرض ويجلسون واحداً على رأسه وآخر على أرجله بينما يضربه ثالث دون رحمة على أفضاه وهي شبه عارية، وهكذا أنجزت تلك النبوءة (لأن

(٤٠٤) العهد القديم: الأمثال ٢٩ : ١٢.

(٤٠٦) العهد القديم: الأمثال ٢٩ : ٢٥.

(٤٠٧) العهد القديم: إرميا ٩ : ١٦/١٥.

(٤٠٨) العهد القديم: المزمير ٦٦ : ١٠.

(٤٠٩) العهد القديم: المزمير ٦٦ : ١١.

(٤١٠) العهد القديم: إشعياء ١٠ : ٥.

غضب الإنسان يحملك، بقية الغضب تنمطق بها^(٤١١) وهذا أيضا (انذروا وأوفوا للرب إلهكم يا جميع الذين حولي، ليقيموا هدية للمهوب).^(٤١٢)

في مكان آخر جاعوا بعصوين وضموهما من إحدى الجوانب بالحديد، وثبوتهما في ساق رجل إحداهما من فوقه والأخرى من أسفله، ثم وقف رجل عليهما في الجانب الآخر حتى تمزقت ساقاه. وهكذا نفذ هذا القول (فجعلت رجلى في المقطرة ولاحظت جميع مسالكى وعلى أصول رجلى نبشت).^(٤١٣)

في مكان ثالث كانوا يعلقونهم من أذرعهم، حتى إن أعضاءهم كانت تنفصل عن أجسادهم، وأيضاً النساء كانوا يعلقونهم من أذنانهم حتى كانت تنزع من صدورهن.

في مكان رابع كانوا يجردونهم من ثيابهم ويحملونهم بالحجارة، ثم يغرقونهم في الثلج والجليد، ثم يسكبون عليهم ماءً بارداً، حتى يتجمدوا فيسقطوا ووجوههم على الأرض.

في مكان خامس كانوا يأخذون خمسة ألواح من الخشب ويشقونها من الأطراف، ويدخلون في هذا الشق أصابع شخص ويضغطون على الطرف الآخر حتى ينضم الجانبان وتمزق الأصابع. كانوا يأخذون أيضاً لوحين يضمونهما بعضهما لبعض من جانب ويضعونهما واحداً على الظهر والآخر على البطن، ثم يقف شخص على الطرف الآخر حتى تتكسر الضلوع وتصبح الأحشاء على وشك الخروج.

كانوا يضعون أغلالاً على الأذرع وعلى كل الأعضاء، وكانوا يدببون أطراف عصي ويدخلونها تحت الأظافر، وبالمثل كانوا يصنعون كرات من

(٤١١) العهد القديم: المزمير ٢٦: ١٠.

(٤١٢) العهد القديم: المزمير ٧٦: ١١.

(٤١٣) العهد القديم: أيوب ١٣: ٢٧.

الجوز ويضعونها في محاجر العيون حتى تكاد عيونهم أن تخرج من محاجرها.

كانوا يجعلونهم يقفون حفاة عراة في الثلج وفي الماء البارد حتى شحبت ألوانهم كالأموات، وكانوا يلوحون بعصا غليظة ثم يضربونهم دون رحمة وهم منبطحون أرضاً، ولكن لم تكن الضربات لتجدي نفعا، ولم يكن السجن ليحقق غرضاً (الرؤساء بأيديهم يعلقون ولم تعتبر وجوه الشيوخ).^(٤١٤) قال النبي قليات ليرى هذا الرؤساء المعلقين. وليس هذا فقط، ولكنهم معلقون بين السماء والأرض بينما كان البعض يضربونهم بعصى غليظة والبعض الآخر توضع الأغلال في أرجلهم. كانوا لا يكادون ينتهون من تعذيب فرد حتى ينتقلوا إلى آخر (من أجل هذا حزن قلبنا، من أجل هذه أظلمت عيوننا. مضى فرح قلبنا صار رقصنا نوخاً).^(٤١٥)

لقد أرادوا أن يفلتوا كل ألوان العذاب على أجسامهم مرة واحدة، كانوا يلقون بهم عراة في الثلج، وكانوا يجمعون أحجاراً كبيرة ويضعونها على ظهورهم حتى إن أحشاءهم تمزقت وضلوعهم وعمودهم الفقري تحطمت. كانوا يسخنون الحماق إلى أن يصبح حارقاً مثل النار ويملاؤنه بالدخان ويحبسونهم ويعلقونهم به وهم عراة، ثم يحضرون قططا ويلقون بها وسطهم، ونظرا لتعرضها للحرق كانت تنقض عليهم وتنهش أظافرهما في أجسادهم، كما كانوا يحبسونهم في حجرات مظلمة حيث لا يتسرب إليهم أى شعاع من نور.

إنه مكتوب في الكتاب: (أيضا كل مرض وكل ضربة لم تكتب في سفر الناموس هذا يسلطه الرب عليك حتى تهلك).^(٤١٦) لقد منى الشعب البائس بكل تلك الاضطرابات والظلم بسبب الضرائب.

(٤١٤) العهد القديم: مراثى إرميا ٥: ١٢.

(٤١٥) العهد القديم: مراثى إرميا ٥: ١٥/١٧.

(٤١٦) العهد القديم: التثنية ٢٨: ٦١.

لو لم تكن تلك الكارثة عامة لما شملت مسيحيين ووثنيين ويهودًا وسامريين وعابدي النار والشمس ومجوسًا مع مسلمين وصابنين^(٤١٧) ومانويين. إن الآلهة والإلهات لن يمجدوا هذا الاضطهاد المر، ولكن الموضوع ليس له صلة بالإيمان ولا بذلك الذي يعبد في الشرق ولا الذي يعبد في الغرب.

إن اسم الإسلام قد اختفى تمامًا مع اسم المسيحية، ولو كان المسيحيون قد نجوا وحدهم من هذا الاضطهاد لكانت بكل الحق مجدت شهداء عصرنا أكثر من كل الشهداء السابقين، لأن الموت السريع بعد السيف أفضل من العذاب الطويل الذي لا ينتهي. لم أشاهد مطلقًا - كما قال القديس باسيلي - أحدًا يساق إلى السجن أو إلى العذاب بسبب فقره، فليحضر الآن ليury آلافًا وعشرات الآلاف مما يفوق الحصر، عريًا وسوريين، مذنبين وغير مذنبين، أغنياء وفقراء، كلهم لتمييز بينهم. إن كأس المرارة وغذاء الغضب كانت معدة لكل الناس على السواء، للكبار والصغار، وللأغنياء والفقراء، كما قال النبي (لأنه هكذا قال لي الرب إله إسرائيل: خذ كأس خمر هذا السفط من يدي واسق جميع الشعوب الذين أرسلتك أنا إليهم إياها)^(٤١٨)

إن الغنى يأكل المر دائمًا لأن كل ما كان يحصل عليه حرام ولأن عظامه كانت محطمة بالضربات، أما الفقراء فلأنهم كانوا يطلبون منه ما لم يكن يمتلكه، كما لم يقبل أحد أن يلحقهم بعمل في حقله أو في كرمته، لهذا أكلوا المرارة وشربوا مياها مرة (لذلك هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: هاأنذا أطعم هذا الشعب ألفسنتينا وأسقيهم ماء الطقم).^(٤١٩)

(٤١٧) الصابئون هم المرتكون عن دينهم لينخلوا في دين غيره، أو هم من يعبدون الكواكب ويضعون أنهم على ملة نوح عليه السلام.

(٤١٨) العهد القديم: إرميا ٢٥: ١٥.

(٤١٩) العهد القديم: إرميا ٩: ١٥.

فلا يتصور أحد يا إخواني أنني قد بلغت هنا، ولكن لنعلم أن كل الأقلام وكل أوراق العالم لن تكفى ليكتب عليها العذاب الذى تكبده الأهالى فى وقتنا هذا، فلا نلام إذن لإيجازنا فى عرضها، لأنه ليس فى مقدورنا أن نذكر كل شيء، وأيضا لأن تلك الكارثة لم تظهر فى بلدة واحدة.

عن الجفاف والمجاعة التى حدثت فى تلك العلم، وعن غزو الشعب الجنوبى والشرقى للمنطقة الشمالية

إن الأنبياء فى كل وقت يصرخون فينا كالأبواق، ويصيحون فى أذاننا باستمرار كالنفير فى كل زمان، من أجل أن نهتدى إلى الرب وأن نبحث عنه. ونحن كالأحجار قد تحجرت قلوبنا، وأغلقت عيوننا وصممت أذاننا لكى لا نسير فى طريق الرب، ولكن وفقا لإرادتنا. كل منا يحب ما يروق لقلبه وليس ما يروق للرب، إنه مكتوب فى الأنبياء: (انتظروا كثيرا وإذا هو قليل ولما أدخلتموه البيت نفخت عليه، لماذا؟ يقول رب الجنود: لأجل بيتى الذى هو خراب وأنتم راكضون كل إنسان إلى بيته. لذلك منعت السموات من فوقكم الندى ومنعت الأرض غلتها. ودعوت بالحر على الأرض وعلى الجبال وعلى الحنطة وعلى المسطار وعلى الزيت وعلى كل ما تنبت به الأرض وعلى الناس وعلى البهائم وعلى كل أتعاب اليبدين).^(٤٢٠) سوف ترى الغزارة وسوف تأخذ القليل إلى منزلك (أنت تزرع ولا تحصد، أنت تدوس زيتونا ولا تدّهن بزيت وسلافة ولا تشرب خمرا)،^(٤٢١) كل تلك الأشياء حدثت فى وقتنا القاسى.

إن المطر الذى كان من عادته أن يسقط فى الشتاء قد حجز فى السماء، ولم يكن أبدا بخار ماء، لم ينبت أى زرع، وما نبت جف، وخاصة فى

(٤٢٠) العهد القديم: حجي ١: ١٠/١١.

(٤٢١) العهد القديم: ميخا ٦: ١٥.

المنطقة الجنوبية والشرقية وفي كل الصحراء. لم يكن هناك إلا أعشاب قليلة في وديان الجبال.

وهكذا خرج كل المؤمنين في موكب لأداء صلوات الربيع، وبكل لغة كانت كل أمة تصرخ نحو الرب في اتجاه واحد في هذا الحزن العميق. عندما رأى الأهالي أن المطر لم يسقط أصبحوا - دون رحمة - يحتجزون قمحهم، ولم يخرجوه حتى ولو لبيعته، ولهذا جاء المشتري وبدأ في البحث عنه، ومن هنا سقط البؤساء في أسى عميق. وأيضا هؤلاء الذين جمعوا القمح منذ فترة فراحوا وابتهجوا أنهم هم الذين كان النبي غير محق عندما قال ضدهم (اسمعوا هذا أيها المتهمون المساكين لكي تبيدوا بالنسي الأرض. قالين متى يمضى رأس الشهر لنبيع قمحا والسبت لنعرض حنطة؟ لنصغر الإيفة ونكبر الشاغل ونعوج موازين الفس. لنشتري الضعفاء بفضة والبائس بنعطين ونبيع نفاية القمح. قد أقسم الرب بفخر يعقوب: إني لن أنسى إلى الأبد جميع أعمالهم. وأحول أعيادكم نوحا وجميع أغانيكم مراثى وأصعد على كل الأحقاء مسحا وعلى كل رأس قرعة وأجعلها كمناحة الوحيد وآخرها يوما مرًا).^(٤٢٢) هؤلاء الذين كانوا يملكون القمح عندما علموا أن السماء ممسكة المطر قيدوا أيديهم ولم يبيعوا القمح، وانتظروا حتى يصبح الناس بؤساء ومضطهدين.

إن السلطة أمرت أن يخرج كل الشعب وكل الأمة في موكب من أجل أداء صلوات الربيع. لقد قيل ربما يكون الرب قد أراد أن يكون رحيمًا نحونا ويفتح لنا باب الرحمة، لهذا خرج المسيحيون وعلى رأسهم أسقفهم واليهود بأبواقهم وكذلك العرب.

(٤٢٢) العهد القديم: علوس ٨: ٤/٥/٦/١٠.

لقد أراد الرب أن يشفق علينا، فكان هناك مطر وزرع فى بعض المناطق، كما قال النبي عاموس: (ولنا أيضا منعت عنكم المطر إذ بقى ثلاثة أشهر للحصاد وأمطرت على مدينة واحدة وعلى مدينة أخرى لم أمطر، أمطر على ضيعة واحدة والضيعة التى لم يمطر عليها جفت. فجالت مدينتان أو ثلاث إلى مدينة واحدة لتشرب ماء ولم تشبع فلم ترجعوا إلى، يقول الرب).^(٤٢٣)

اشتدت الكارثة فى الموصل وجف كل زرعها، وحدث مثل ذلك فى الشرق والجنوب، علاوة على أن تلك المناطق كانت مهجورة بسبب قسوة "ابن مصعب"، فقد تركها الأهالى وانتشروا فى تلك المنطقة الشمالية. إن "الغالبية" و"المعديين" ذهبوا جميعهم بأغنامهم وإبلهم وعائلاتهم وكل ثرواتهم وانتشروا فى المنطقة وخربوها لدرجة أنه لم يبق شيء ترعاه الماشية.

كانت الأرض كما لو كانت قد كنست بمكنسة، ولذلك هلك كل دواب المنطقة الشمالية، وفى الشتاء التالى كانت المدن والقرى قد خربت. علاوة على ذلك فى بلدة الموصل: بيت جرمى، وحزا، ومرجا، ونيسابور، وديسان، وكوكا، وصلاح، ومناطق أخرى كثيرة تركها الأهالى ونزحوا إلى بلاد الشمال، لدرجة أنه لم يعد هناك مكان للأهالى يمكن أن يتجولوا فيه، لا فى المدن ولا فى القرى، وكانت المجاعة على وشك الوقوع بسبب كثرة عددهم. هكذا طبق عليهم ما هو مكتوب (هكذا قال رب الجنود: هاأنذا أرسل عليهم السيف والجوع والوبأ وأجعلهم كتين ردىء لا يؤكل من الرذاعة)^(٤٢٤) كل هذه الأشياء جاءت معهم وبعدهم. سنقص فى الوقت تاملنا الكارثة التى حلت بهم بسبب المرض، والسبى والطاعون الذى حل بهم.

(٤٢٣) العهد القديم: عاموس ٤: ٨/٧.

(٤٢٤) العهد القديم: لرميا ٢٩: ١٧.

عام ١٠٨٤ يونانية (٧٧٢-٧٧٣م) مات القديس "بولس" أسقف تكريت و"زينان" من كرما و"يونان" من بيت نهادرًا بسبب عدائتهم "داود". لم ترغب تلك البلاد أن تستقبل أساقفة من جانبه. لقد ظلت هكذا دون أسقف في انتظار خروج جريجوريوس من السجن. وفي هذا العام أمر الملك بإقامة سور حول عاقولا.

هذا الأثم الشرير وقع في الجشع (لأن محبة المال أصل لكل الشرور الذي إذ ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة).^(١٢٥) ولم يكن يكفي الرجال ولا الكرمات ولا الأراضي ولا الحيوانات ولا الدواب ولا الجبال لامتلاك الذهب والفضة، ولكن كان يستعمل دائما الحيل علنا أمام الجميع، وخاصة ليمنع خروج ولو زوا واحدًا من عنده. عندما أمر ببناء حائط عاقولا استعمل حيلة خادعة مع سكان المدينة، فأرسل رجالا وأمرهم بقياس كل منزل في المدينة، طوله وعرضه وأيضًا ارتفاعه، ثم أمر كل صاحب منزل ببناء حائط في مثل طول منزله وعرضه وارتفاعه، على أن يتحمل صاحب المنزل نفقات الحائط الذي يقوم ببنائه. وهكذا أحاط كل مدينة عاقولا بحائط عظيم الارتفاع ومتين البنيان دون أن يدفع من نفقاته فلسًا واحدًا.

عن انتهاك حرمت المقابر التي ارتكبتها الناس
من نبش القبور وإخراج العظام ونثرها على الأرض

لقد تراكت المساوي، وكانت تقع الواحدة تلو الأخرى، الجناح ضد الجناح واليد في اليد، واشتدت وطأة الاضطراب والظلم على كل الرجال. كانوا يبيعون كل ما يملكون، وكانوا يأخذون هم الثمن، وكانوا لا يعرفون

(٤٢٥) العهد الجديد: الرسالة الأولى إلى تيموثاوس ٦: ١٠.

ماذا يفعلون. كانوا يضطهدون لإجبارهم على تسليم ثرواتهم التي لم تكن يوما في حوزتهم ولا في حوزة آبائهم. هذا الضغط وقع على كل جنس من الأحياء، حتى الحيوانات والطيور وحتى أسماك البحر، بسبب ظلم الأمراء أصبح الرجال على جانب كبير من الجراءة، حتى إنهم وصلوا إلى درجة كبيرة وعظيمة من الإحلال.

لقد انقضوا على المقابر حيث كان يرقد الأموات منذ فترة طويلة، فعبثوا بها وانتزعوا عظام الموتى من أماكنها، ونثروها كالزبل على سطح الأرض. إن كل ما سمعناه على الأبعد عن هذا الموضوع وصل إلينا الآن، لقد رأينا بأعيننا وليس سمعنا أنهم نثروا على وجه الأرض عظام هؤلاء الذين يرقنون ويستريحون في المقابر منذ قرون سبقت مجيء المسيح. وقد كانوا في عجلة لأن يأخذوا ثرواتهم من الذهب والفضة، ولهذا نبشوا مقابر كان بعضها يحتوي على أكثر من خمسمائة من رفاة الموتى، وكانوا يلقون بالعظام خارجها وينثرونها في أماكن متفرقة. كانت هناك مقابر مضت عليها قرون عديدة، وكانت الأرض قد خارت من تحتها فضاعت معالمها، ولكن الشيطان أمرهم بنبشها وإخراج عظام الموتى منها وإزالتها من أماكنها. ولذلك فقد أقسم المعمرون الذين ولدوا في تلك الأماكن وقالوا: "لم نسمع مطلقاً من آبائنا ولم ينمُ إلى علمنا أنه كانت توجد مقابر في تلك المناطق".

كل ذلك جعل الحكماء يقتنعون بأن الشيطان كان يوجه هؤلاء الرجال، ويجعلهم يقتفون خطواته حتى يزوج بهم في هذا الظلم. لقد أشيع بين الناس خبر أن بلدة كذا الفلانية قد عثرت على قدر من الذهب والفضة يوازي عدة آلاف زوزا، وأن فلانا عثر على كمية من المجوهرات. إن الحكماء كانوا على علم بأن المدفن الذي يوجد به آلاف من الرجال، كان لا بد أن يكون قد دُفن مع بعضهم، بسبب كثرة الوفيات أو بسبب إهمال الذين قاموا بعملية الدفن، كان لا بد من وجود سولر أو أقرط أو أموال في الأحزمة. إن القدماء

كانوا يوصون قبل موتهم أن تدفن معهم ثرواتهم من الذهب والفضة، بأن توضع في أحزمة تلف حول أجسادهم عند دفنهم. وقد أكد هذا أنه وجد سوار من النحاس قد اعتبره الشيطان من الذهب، وكان السوار جميلاً وكبيراً، وقد أعلن ذلك في المنطقة، ولو كان من حديد لادعى أنه من فضة، حتى يثير الجميع فيقوموا بنفش المقابر.

لقد تحمل الرجال كل هذه المصائب، وكذلك الحيوانات وطيور السماء وأسماك البحار، وكذلك الأشجار وكل ما كان على الأرض، وحتى الذين كانوا تحت الأرض (منعسى أفرام وأفرايم منعسى وهما معا على يهوذا، مع كل هذا لم يرتد غضبه بل يده ممدودة بعد).^(١٢٦)

في نفس هذا العام حدثت ثورة ضد بطريق (كبير الأشراف عند الرومان) أرمينيا الكبرى، حيث قُتل بعد السيف. لقد قيل إن هذا الرجل كان لديه أكثر من مائة ألف عبد، وقد أخذنا كل ثروته وأوصلناها إلى الملك.

عن المصائب التي تراكمت على الأرض بسبب شهود الزور،
وعن الكذب، وعن الدانين والمدنين، وعن الوشائات،
وعن رحمة الرب الذي تحمل غضبنا بصبر دون إثارة

لا يجوز حذف الأحداث التي وضعناها في ذلك الفصل الحزين، لأن الذين سيأتون من بعدنا، عندما يرون النكبات العديدة التي وقعنا فيها والآلام التي قد تحملناها بسبب ظلمنا، ربما يجتنبونها ولا يسيرون مثلنا في الطرقات والسبل غير الممهدة، فلا تحيط بهم الحيوانات المفترسة كما حدث لنا. ليس ذلك لأن الرب كان في حاجة إلى رحمة إبراهيم الذي كشف له الجرائم التي ارتكبتها أهل سدوم مع عابري السبيل الأغراب، ولكن ليبين لأولاده الأمور

(١٢٦) العهد القديم: إشعياء ٩: ٢١.

السبئة التى تثيره وتهيج مشاعره ضد الذين قاموا بها. إنه مكتوب فى كتاب التشريع (فقال الرب: هل أخفى عن إبراهيم ما أنا فاعله؟. وإبراهيم يكون أمة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض. لأنى عرفته لكى يوصى بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب ليعملوا برا وعدلا لكى يأتى الرب لإبراهيم بما تكلم به. وقال الرب: إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيتهم قد عظمت جدا).^(٤٢٧)

هل الرب قد أظهر سيناتهم إلى إبراهيم ليرحم أهل سدوم؟ لكن كان هذا من أجل أن يخبر أولاده ويقول لهم: "ابتعدوا عن تلك الأشياء". هذا نفس ما قاله داود لابنه (واقت يا سليمان ابنى اعرف إله أبيك واعبده بقلب كامل ونفس راغبة لأن الرب يفحص جميع القلوب ويفهم كل تصورات الأفكار، فلذا طلبته يوجد منك وإذا تركته يرفضك إلى الأبد).^(٤٢٨)

هذا هو ما حدث لنا. عندما انحرفنا عن طريق العدل لم يشعر أحد، ولكن عندما رفع الرب يده عنا شعرت كل المخلوقات بهذا معناه، الحيوانات والدواب وأسماك البحر وطيور السماء وحتى الأموات فى مقابرهم وأيضا الأحجار والأخشاب قد قامت معناه.

إنه مكتوب (فقال له يسوع: تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك. والثانية مثلها، تحب قريبك كنفسك)،^(٤٢٩) (بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء).^(٤٣٠) وأيضا: (أكرم أبك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلهك. لا تقتل. لا تزن. لا تسرق. لا تشهد على قريبك شهادة زور. لا تشته بيت قريبك، لا تشته امرأة

(٤٢٧) العهد القديم: التكوين ١٨: ١٧/١٩/٢٠.

(٤٢٨) العهد القديم: أخبار الأيام الأول ٢٨: ٩.

(٤٢٩) العهد الجديد: إنجيل متى ٢٢: ٣٧/٣٩.

(٤٣٠) العهد الجديد: إنجيل متى ٢٢: ٤٠.

قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شينا مما لقريبك)، (٤٣١)
 (أكرم أباك وأمك كما أوصلك الرب إلهك لكي تطول أيامك ولكي يكون لك
 خير على الأرض التي يعطيك الرب إلهك. لا تقتل. ولا تزن. ولا تسرق. ولا
 تشهد على قريبك شهادة زور. ولا تشته امرأة قريبك ولا تشته بيت قريبك
 ولا حقله ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا كل ما لقريبك). (٤٣٢)

إن كل تلك الأشياء لم تصل إلينا عن طريق السمع، ولكننا نحن بأنفسنا
 قد اقترفناها، لهذا لا يدين البشر الرب بسبب المصائب التي حلت بنا، فلنعلم
 أنه لم يعاملنا وفقاً لسيئاتنا، ولنعظم رحمته التي ليس لها حدود، فهو الذي
 تحمل سيئاتنا ومظالمنا التي اقترفناها أبدينا، والتي بسببها حل الغضب على
 الأبناء غير المهيذبين.

هل اقترف أذى في هذا العالم إلا عندنا؟ إن قصة صراع الأخوين قايين
 ها هي عندنا. إن المدوميين عندنا كلها، للكذب والعداوة وثرثرة اليهود
 والطغيان. ها هو حولنا النهب والسلب والقتل وشهادة الزور، كل المساوي ها
 هي بيننا. إننا نريد أن نثبت كل تلك الأشياء واحدة واحدة، حتى يرى أولادنا
 عقوبتنا ولا يفعلوا مثل ما فعلنا، وحتى لا تتركهم هم أيضاً تلك المقرعة المرة.

عن شهادة الزور التي نفشت بيننا

إنه مكتوب (من جهة أعمال الناس فيكلام شفيتك أنا تحفظت من
 طرق المعتبف). (٤٣٣) وأيضاً: (الذي يغتاب صاحبه سرا هذا أقطعه، مستكبر
 العين ومنفخ القلب لا أحتمله). (٤٣٤)

(٤٣١) العهد القديم: الخروج ٢٠ : ١٢/١٣/١٤/١٥/١٦/١٧.

(٤٣٢) العهد القديم: التثنية ٥ : ١٦/١٧/١٨/١٩/٢٠/٢١.

(٤٣٣) العهد القديم: المزمير ١٧ : ٤.

(٤٣٤) العهد القديم: المزمير ١٠١ : ٥.

إن هدفنا أيها الأخوة ليس أن نعرض عليكم مصائب الناس أو كوارثهم، ولكننا نريد أن نظهر لكم أنهم كانوا هم السبب وراء تلك الكوارث حتى تجتنبوها (يتكلمون بالكذب كل واحد مع صاحبه بشفاة ملقة بقلب بقلب يتكلمون. يقطع الرب جميع الشفاة الملقة واللسان المتكلم بالعظام). (١٣٥)

عندما تكون هناك قضية بين شخص وجاره أو صديقه يذهب أحدهما ويقف في مكان عام وينادى على أحد الرجال: يا سيدى فلان، هل تضمّننى؟ فيسرع هذا ويجيب على الفور قائلا: باسم الرب أنا متضامن معك فيما تريده. ويقسم قبل أن يعرف الموضوع، لم يكن الوثنيون هم فقط الذين يفعلون هذا، ولكن أيضا المسيحيون والرجال المعمرون، لأى سبب مهما كان، حتى لو أراد أخذ زوا واحد كان يستأجر شهود زور كيفما يشاء، وكانوا لا يضعون أبدا عدالة الرب نصب أعينهم، ولكن فى لحظة واحدة كانوا يطيحون بالفقير من على الأرض.

عن الدائنين والمدّين، وعن الكذب

(بل بالقلب تعملون شرورا فى الأرض ظلم أيدىكم تزنون). (١٣٦) (فهو مملوء لعة وغشا وظلما، تحت لسانه مشقة وإثم). (١٣٧) (فضتك لا تعطه بالربا وطعامك لا تعط بالمرايحة). (١٣٨) ويقول داود: (فضته لا يعطيها بالربا ولا يأخذ الرشوة على البرىء، الذى يصنع هذا لا يترزع إلى الدهر) (١٣٩)

(١٣٥) العهد القديم: المزامير ١٢: ٢/٢.

(١٣٦) العهد القديم: المزامير ٥٨: ٢.

(١٣٧) العهد القديم: المزامير ١٠: ٧.

(١٣٨) العهد القديم: اللاويين ٢٥: ٣٧.

(١٣٩) العهد القديم: المزامير ١٥: ٥.

(والرذيل محتقر في عينيه ويكرم خافى الرب، يحلف للضرر ولا يغير).^(٤٤٠) كل تلك الأشياء لا توجد بيننا الآن.

إن أهالى القرى مضطهدون بسبب لبترازلت وحشية، لقد جاءوا إلى المدينة يحملون الهدايا إلى الذين يقرضون بالربا، عندما رأهم هؤلاء قالوا لهم: "مرحبا بكم". وبألفاظ معسولة أضافوا: "سأعطيك كل ما أنت فى حاجة إليه، لا تحمل همًا، ما دمت أنا على قيد الحياة سوف أعطيك، ولن نحتاج إلى أحد، ولن أطالبك بشاهد أو ضامن أو رهن. لن أطلب منك فائدة ولا استرجاعًا، خذ ما شئت وعندما تجنى المحصول ردّ إلى مالى أو أعطني قمحًا أو نبيذًا فى حينه. اذهب الآن واحضر فى خلال أيام".

هذا البائس عند سماعه لتلك الكلمات يعود إلى منزله منشراح الصدر، وهو لا يعلم أن الشيطان لن يسمح للآخر أن ينفذ ما خرج من فمه (أنعم من الزبدة فمه وقلبه قتال، ألين من الزيت كلماته وهى سيوف مسلولة).^(٤٤١)

هذا البائس كان واثقًا من الكلمات المعسولة التى طمأنه بها المرابى، ولم يكن فى حيرة من أجل البحث عن المال لدفع الضريبة، فظل ساكنًا فى منزله حتى وصل للمبزون، وما إن أمسكوا به حتى قال لهم: "انتظرونى قليلا حتى أحضرها لكم". وذهب بسرعة إلى ذلك الذى كان قد وعده أن يعطيه، وقال له: "هل تسمح يا سيدى أن تعطينى ما طلبته حتى لا يطيحوا بى؟" فأجابه: "انتظر قليلا". فكان إما أن يتركه ويذهب لفترة، أو أن يستهزئ به قائلا: "اذهب الآن وتعال فى خلال أيام". هذا المكروب عند سماعه لتلك الكلمات المعسولة عاد إلى أهله بفرحة غامرة مبتهجا، وهو لا يعلم أن الشيطان لن يسمح للدائن أن يبر بوعده. "اذهب اليوم وانتنى غدا صباحا فى الوقت الحاضر ليس معى ما يكفيك". واستمر فى مماطلته لعدة أيام، ولما كان

(٤٤٠) العهد القديم: المزمير ١٥: ٤.

(٤٤١) العهد القديم: المزمير ٥٥: ٢١.

هذا مضطهدا طوال حياته فقد أسرع بإحضار العديد من الوسطاء، وفى النهاية اكتفى الآخر بأن قال له: "إن أعطيك لأنه ليس لدى ما أعطيه لك". ثم قال له: "أريد منك صكا بالمبلغ". فوافق، وعندما كتب الصك أرسله أيضا بكلمات معسولة، وقال له: "الذهب الليلة ولتنتى صباحا". وعندما كانوا يعودون فى الصباح الباكر كان يقول لهم: "إن أعطيك إلا إذا أعطيتمونى رهنا". وعندما كانوا يعطونه الرهن كان يضيف قائلا: "كم تعطون فائدة على تلك النقود؟ وبالنسبة للقدية كم تعطون من القمح؟ لأننا لا نأخذ أموالا سائلة". وبسبب حاجتهم الملحة كانوا يلبون كل ما كان يطلبه، على قدر ما يخرج من فمه كانوا يعطونه، ويكتبون له صكاً أيضا، ويطلب منهم بعد ذلك ضمانات. وهكذا فقد نقض كل الأقوال والوعود التى كان قد وعدهم بها. فى البداية أخذ منهم رهنا وأعطوه صكاً، وسجلوا على أنفسهم فوائد طلب استرجاع وطلب ضمانات.

وبمجرد أن أعطاهم لينجدهم لم يقبلوا يديه فقط، بل أخذوا يلحقون أخمص قدميه، وقالوا: "إذا مضت عدة أيام ولم نحضر لك حقا فنحن مدينين بكل ما هو مسجل فى هذا الصك". لذلك ذهبوا فوراً وباعوا ممتلكاتهم وجمعوا أموالهم، ولكن عندما حملوها وذهبوا لدفع الدين ليتحرروا جاء الشيطان عدو كل الخير. جاء وبدأ فى مهاجمتهم بقسوة باقتراحاته: "كيف ترد تلك الأموال الآن؟ سوف يطلبونها مرة أخرى ولن يكون معك ما تعطيه، لأنك بعت كل ممتلكاتك. إذا لم تعطه فهذا لا ينقصك ولا يستطيع أن يحدث بك ضرراً، على كل حال رهنك يظل عنده، وإذا أخذته منه يجب أن تضعه عند دائن آخر أفضل من أن يبقى عنده".

تلك كانت النصائح الضارة التى قدمها الشيطان للمدينين، وهى ألا يحترموا كلمتهم ولا يكونوا محل ثقة للدائن، ثم بعد ذلك لا ينجدهم. كان يجبرهم على أن يرددوا الأكاذيب التى مارسوها علينا، هذه النصائح الظالمة

كانت تأتي من بنات آدم، ونفنت في الوقت الحاضر قول النبي: (شعبي ظالمود أولاد، ونساء يتسلطن عليه، يا شعبي مرشدوك مضلون ويبلعون طريق مصالحك)،^(٤٤٢) إنهن اللاتي يحكمن الرجال، كن ينصحن: "اعمل هذا أو ذاك". وكان الزوج يقول: "إنك نصحتي خيرا". لأن هؤلاء الرجال كانوا لا يراعون الوعود والعهود المبرمة للرب، ولا يفكرون فيما سيحدث لهم، أي إنهم عندما يطلبون مرة أخرى لا نعطيهم أبدا، ولكن نصيحة الشيطان وزوجاتهم كانت تروق لهم.

ومما كان يحدث أيضا أنه عندما كان أحدهم يمسك المال في يده، وكان الدائن يضغط عليه قائلا: "رد على مالي". كان يرفض بشدة، لأن الشيطان كان مستحوذاً على قلبه قائلا: "ليس لدى شيء". وكان يسجن ويضرب ولا يرد شيئا. إنه إلى مثل هؤلاء يتوجه كاتب المزمير عندما قال: (الشرير يستقرض ولا يفي أما الصديق فيترأف ويعطي).^(٤٤٣)

وبدلاً من أن يذهب المدين إلى باب الدائن ليرد إليه ماله كان الدائن يذهب بنفسه إلى باب المدين ويتوسل إليه، وإذا حدث أن دفع المدين نصف الدين كان الدائن يعتبر نفسه سعيداً جداً. هكذا كان الكذب يسيطر تماماً على كل الناس.

عن اللوشاية والظلم والنهب المتبادل، وعن شهود الزور

عندما كان يحضر سكان المدينة ليسددوا الضريبة كانوا يحدثون غوغاء مثل أهل قياغا، كانوا يتجولون في البلاد، ويساءلون عن أي مكان يوجد فيه رجل يمتلك شيئاً احتياطياً، سواء كان قمحاً أو نبيذاً أو منقولات، ثم يذهبون لمقابلة الأمير ويقولون له: "يجب أن يدفع فلان جزءاً من جزيتنا، إنه

(٤٤٢) العهد القديم: إشعيا ٣: ١٢.

(٤٤٣) العهد القديم: المزمير ٢٧: ٢١.

يمتلك كذا عند فلان، ومنذ عدة سنوات لم يدفع الجزية". حينئذ يصدر الأمير هذا الأمر: "أذهبوا وبيعوا خيراته". وإذا كان هذا الرجل أو غيره يتعرض لهم كان الحاكم يطلب منهم: "هل لديكم شهود ضده؟" فكان يأتي من بين أهل البلدة من يشهدون ضده، على الرغم من أنهم لم يكونوا قد رأوه من قبل. وهكذا بينما هو يشتكى كانوا يبيعون كل ما يملك، وكانوا لا يسمحون له حتى أن يقترب من خيراته. وكان للبعض يقول له: "لقد جاوبت عنا بدلا من فلان". وغيرهم يقولون: "إنك تملك في بلدنا كرمة أو حديقة أو حقل زيتون، ومنذ عدة سنوات لم تدفع جزيتك". وكان هذا يقسم: "لم أدخل بلدكم قط، وليست لدى حديقة عندكم". ولكن هؤلاء كانوا لا يتركونه قبل أن يجعلوه يبيع كل ما يملك، فكان الرئيس نفسه هو الذي يوجههم إلى هذا الطريق.

لهذا السبب كان الرجال يخافون الظهور في الشوارع، ولكنهم لم يفلتوا من هؤلاء الأثمين، لأن هؤلاء كانوا يبحثون عنهم. وعندما كان أحدهم يفاجئ أحدا كان يقول له: "أعطني كذا وإلا سأحملك إلى الأمير". بهذه الطريقة أصبح هذا العمل تجارة مربحة جدا لكثير من رجال البلدة. وهكذا ملأوا منازلهم بالذهب والفضة.

إنه بسببهم قال النبي ميخا الذي كان يوبخ الملوك في وجههم: (قد باد النقي من الأرض وليس مستقيم بين الناس، جميعهم يكمنون للدماء يصطادون بعضهم بعضا بشبكة. اليدان إلى الشر مجتهدتان، الرئيس طالع والقاضي بالهدية والكبير متكلم بهوى نفسه فيعكشونها)،^(٤٤٤) وأيضا: (لاتأتمنوا أصحابا لاتثقوا بصديق، احفظ أبواب فمك عن المضطجعة في حضنك).^(٤٤٥) وقال داود: (الذين صقلوا أسننتهم كالسيف، فوقوا سهمهم كلاما مرا. ليرموا الكامل في المختفى بغتة يرمونه ولا يخشون. يشددون

(٤٤٤) المهد القديم: ميخا ٧: ٢/٣.

(٤٤٥) المهد القديم: ميخا ٧: ٥.

أنفسهم لأمر ردىء، يتحاشون بطمر فخاخ، قالوا: من يراهم. يخترعون
 إثماً تمموا اختراعاً محكماً، وداخل الإنسان وقلبه عميق. فيرميهم الله بسهم
 بغتة كانت ضربتهم).^(٤٤٦) لقد قال أيضاً عنهم: (يعودون عند المساء يهرون
 مثل الكلب ويدورون في المدينة)،^(٤٤٧) (وأحب اللغة فأنته ولم يُسرَّ بالبركة
 فتباعدت عنه. ولبس اللغة مثل ثوبه فدخلت كمياه في حشاه وكزيت في
 عظامه).^(٤٤٨)

لقد كان هذا النهب والسلب قد اقترفه في المدينة هؤلاء الكلاب الجياع
 المفترسة، فلاحون ومواطنون، كانت أفواههم مفتوحة كالقبور العفنة لدرجة
 أنه إذا حدث أن تم القبض على أحد هؤلاء الفقراء وتمكن من الهرب بقبض
 عليه غيرهم فوراً، وبعد هؤلاء غيرهم أيضاً. لقد قال إشعياء عنهم: (كيف
 صارت القرية الأمانة زانية، ملانة حقاً كان العدل يبيت فيها؟ وأما الآن
 فالقاتلون. صارت فضتك زغلا وخمرك مغشوشة بماء. رؤساؤك متمردون
 ولغفاء اللصوص، كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع العطايا، لا يقضون
 لليتيم ودعوى الأرملة لاتصل إليهم).^(٤٤٩)

ويقول من جديد: (وأجعل صبيلاً رؤساء لهم وأطفالاً تتسلط عليهم.
 ويظلم الشعب بعضهم بعضاً والرجل صاحبه، يتمرد الصبي على الشيخ
 والدنىء على الشريف).^(٤٥٠) (رؤساؤها في وسطها أسود زائرة، قضاتها
 ذئاب مساء لا يبقون شيئاً إلى الصباح. أتبيأها متفخرون أهل غدرات،
 كهنتها نجسوا القدس خالفوا الشريعة. الرب عادل في وسطها لا يفعل ظلماً،

(٤٤٦) العهد القديم: المزمير ٦٤: ٣/٤/٦.٧.

(٤٤٧) العهد القديم: المزمير ٥٩: ٦.

(٤٤٨) العهد القديم: المزمير ١٠٩: ١٧/١٨.

(٤٤٩) العهد القديم: إشعياء ١: ٢١/٢٢/٢٣.

(٤٥٠) العهد القديم: إشعياء ٣: ٤/٥.

غداة غداة يبرز حكمه إلى النور لا يتعذر، أما الظالم فلا يعرف الخزي^(٤٥١)،
 (ويل للمفكرين بالبطل والصابغين الشر على مضاجعهم، في نور الصباح
 يفلطونه لأنه في قدرة يدهم. فإتهم يشتهون الحقول ويقتصبونها والبيوت
 ويأخذونها ويظلمون الرجل وبيته والإنسان وميراثه).^(٤٥٢) لقد قال ميخا تلك
 الأشياء بمناسبة النهب والإجرام، وبضيف: (فإن أغنياءها ملائون ظلما
 وسكانها يتكلمون بالكذب ولسانهم في فمهم غش. فلما قد جعت جروحك
 عديمة الشفاء مخربا من أجل خطيائك. أنت تاكل ولا تشبع وجوعك في
 جوفك، وتعزل ولا تنجى والذي تنجيه أدفعه إلى السيف. أنت تزرع
 ولا تحصد، أنت تدوس زيتونا ولا تدمن بزيت وسلافة ولا تشرب خمرا).^(٤٥٣)
 أى تلك الأشياء لم تحدث لنا؟ أين الزيت والقمح والنبذ الذى يعيش عليه
 العمال؟ ولكن المبتزين أنفسهم قد أصابتهم الكارثة بطريقة أشد وأقسى من أى
 شخص آخر.

فى السنة الأولى فقراء المنطقة السفلى والأغراب هلكوا كما سبق أن
 ذكرنا، وفى الثانية الذين كانوا يقيمون فوق الأوتل، وفى الثالثة الذين كانوا
 فوق هؤلاء، وأخيرا فى الرابعة هؤلاء الرجال للظالمون والمبتزون هلكوا هم
 أنفسهم، ولم يبق لهم شيء سواء من مالهم الخاص أو من الذى كانوا قد نهبوه
 وجمعوه.

تلك الأشياء وغيرها مثلها وأفظع منها، تلك التى تتبأ بها الأنبياء نفذت
 وأبرمت من الرجال الواحد فى مواجهة الآخر، فقد ضاعف منها أهل الريف
 وأهل المدن والتجار، وبدأوا يسيئون لأنهم سارعوا بشراء أهل الريف،
 كرومهم وحقولهم وكل أعمالهم، ولكنهم لم يفرحوا كثيرا لأن الفلاحين انقلبوا

(٤٥١) العهد القديم: صفنيا ٣: ٥/٤/٣.

(٤٥٢) العهد القديم: ميخا ٢: ٢/١.

(٤٥٣) العهد القديم: ميخا ٦: ١٢/١٣/١٤/١٥.

ضدهم، ولو كان هؤلاء المواطنين فى إحدى تلك البلدان نبىذ أو قمع لكانوا يحملونه لبيعه أو لأكله. وكان الحاكم يساعد فى كل تلك الأثام وكان لا يعاقب أحداً.

أما عن هؤلاء التجار فقد كان الفلاحون لا يكتفون بمجرد نهبهم وأخذ خيراتهم، بل كانوا يقبضون عليهم ويقدمونهم للحاكم قائلين: "كل ثمرة عملنا قد نهبها هذا الرجل فأعطه أمراً أن يدفع للبلدة". كان الحاكم بضطهده حتى يجعله يخفى من على وجه الأرض، ويأخذ كل ما يملك سواء الذى كان قد نهبه أو لم ينهبه. كان الأغنياء يهربون من أمام الفلاحين كالقطيع أمام الذئاب، يختبئون تاركين الكرمات وكل ما كانوا قد أخذوه.

حدث أيضاً أن بعض الرجال ذهبوا لشراء نبىذ من معصرة الفلاحين، فذهب هؤلاء واشتكوا إلى الأمير. ولما كان النبىذ لا يزال موجوداً فى بلدتهم فقد أرسل الحاكم وختمه بالشمع الأحمر، وإذا كان قد دخل المدينة كان الحاكم ينهبه. هكذا كان النبىذ وثمنه مفقودين.

وإذا كنا سنضاعف من سرد المساوئ التى حدثت، أو التى سببها الناس بعضهم لبعض بالتبادل، ستظل السيئات باقية هنا وهناك، لأنه من المستحيل على أى أحد أن يكتبها بسبب كثرتها، ولكن ذلك الكم يكفى للعقلاء.

فلنقل بشأن هذا الموضوع مع النبى إرميا: (لأن شعبى أحرق، إياى لم يعرفوا، هم بنون جاهلون وهم غير فاهمين، هم حكماء فى عمل الشر ولعمل الصالح ما يفهمون. نظرت إلى الأرض وإذا هى خربة وخالية وإلى السموات فلا نور لها)،^(٤٥٤) (أتطلق إلى العظماء وأكلمهم لأنهم عرفوا طريق الرب قضاء إلههم، أما هم فقد كسروا النير جميعاً وقطعوا الربط. من أجل ذلك يضربهم الأسد من الوعر، تنب المساء يهلكهم، يكمن النمر حول

(٤٥٤) العهد القديم: إرميا ٤: ٢٢/٢٣.

مدنهم، كل من خرج منها يقتل لأن ذنوبهم كثرت، تعالمت معاصيهم)،^(٤٥٥) (نظر وجوههم يشهد عليهم وهم يخبرون بخطيتهم كسديم، لا يخفونها، ويل لنفوسهم لأنهم يصنعون لأنفسهم شرا).^(٤٥٦)

عن العام الثانی للكارثة، أي عام ١٠٨٥ يونانية (٧٧٤-٧٧٥م)

كما سبق أن كتبنا وأعطينا معلومات عن الكوارث الوحشية والنهب التي ارتكبتها الرؤساء دون رحمة بسبب صدقة المال للعرب والصافي والعشر والنفى وأسباب أخرى كثيرة أشرنا إليها فيما سبق، فإنه لاداعي هنا أن نكرر للرجال العقلاء أن ذلك العام قد أضاف سينات بكثافة غزيرة أكثر من السابقة واللاحقة، ولم يكن فقط من جانب الأرض والأهالي، ولكن أيضا من جانب السماء والرب.

إن مسئول الصافي طلب دون رحمة اثنين لواحد، والمعشرون انقضوا على عابري السبيل مثل الكلاب المتوحشة ينهبون دون رحمة الزاهبين والعائدين، والذين كانوا يبحثون عن الهاربين كانوا أكثر جشعا من النسور التي تترقب خراب الجثث، ينتظرون بشغف سقوط الرجال المساكين بين الأيادي، فكانوا يسحبون الفقراء كالنسور حول الجثة.

ماذا سأقول عن انقلاب الأضرحة، والأحرى ماذا سيقول إرميا الذي تنبأ لنا عن انتهاك حرمة المقابر، وعن بعثرة عظامهم كالزبل على وجه الأرض، دون أن يوجد أحد لجمعهم؟ إنه مكتوب: (في ذلك الزمان، يقول الرب: يخرجون عظام ملوك يهوذا وعظام رؤسائه وعظام الكهنة وعظام الأنبياء وعظام سكان أورشليم من قبورهم. ويبسطونها للشمس وللحمر

(٤٥٥) العهد القديم: إرميا ٥: ٦/٥.

(٤٥٦) العهد القديم: إشعياء ٣: ٩.

ولكل جنود السموات التى أحبوها ولتى عبدوها ولتى ساروا وراءها ولتى استشاروها ولتى سجدوا لها، لا تجمع ولا تدفن بل تكون دمة على وجه الأرض). (١٥٧)

. تلك الأشياء حدثت فى وقتنا هذا، وقد أشرنا إليها فيما سبق. وقد فاق ذلك العام كل الأعوام السابقة واللاحقة بمسئلاته، وخاصة بسبب انتهاك المقابر. وقال أيضا إرميا عن هؤلاء الذين يعيشون فى ذلك الوقت: (ويختار الموت على الحياة عند كل البقية الباقية من هذه العشيرة الشريرة الباقية فى كل الأماكن التى طردتهم إليها، يقول رب الجنود). (١٥٨) ويقول إرميا مرة أخرى: (وتصير جثث هذا الشعب أكلا لطيور السماء ولوحوش الأرض ولا مزعج. وأبطل من مدن يهوذا ومن شوارع اورشليم صوت الطرب وصوت الفرح وصوت العريس وصوت العروس لأن الأرض تصير خرابا). (١٥٩)

كل تلك الأشياء قد أنجزوها، ألقيت جثث الأهالى مرعى لحيوانات الصحراء ولطيور السماء، لأن النبى يشبه هذا الشعب الذى ليس له رب بالحيوانات وبالطيور الذنسة. إن صوت فرح العريس والعروس قد توقف لأنه حتى هؤلاء الذين كانوا متزوجين ألّفوا بزوجاتهم وعملوا لهن ورقة الطلاق بسبب كثرة الكوارث (ولكثرة الإثم تبرد محبة الكثيرين). (١٦٠)

إنه ليس من الضروري أن نقص تلك الأشياء من جديد، سنمر عليها بخطوة سريعة، سننتقل نحو تكاثر المصائب التى أضافها ذلك العام للسابقين، وسنتحدث عن الشتاء للقاسى والبرد للقارس، وعن عيوب المراعى، وعن نقص الغذاء للحيوانات البرية، وعن عدد وفيات البهائم، وعن المجاعة، وعن

(١٥٧) العهد القديم: إرميا ٨: ٢/١.

(١٥٨) العهد القديم: إرميا ٨: ٣.

(١٥٩) العهد القديم: إرميا ٧: ٣٤/٣٣.

(١٦٠) العهد الجديد: إنجيل متى ٢٤: ١٢.

الأمراض القاسية، وعن الطاعون الذى أهلك الرجال والحيوانات كالجراد، وعن العنف الذى مارسه سكان المدينة الواحد على الآخر، وعن نهب الرجال، وعن الاغتيالات التى ارتكبت بسبب نقص الخبز، وعن قطع الطرق، حيث أدت إلى جعل المسيحيين يأكلون اللحم أيام الصوم، وأيضاً أكل الموتى بدلاً من الخبز. تلك هى الأشياء التى سأحدث عنها، والتى سأروىها وسأكتبها من أجل هؤلاء الذين سيأتون من بعدنا.

عن الشتاء القارس، وعن الماشية والحيوانات والطيور التى نفقت، وعن الرياح العنيفة التى حدثت فى هذا الشتاء

إنه مكتوب: سأحول صيفكم إلى شتاء (ويكون فى ذلك اليوم أنه لا يكون نور، الدراى تنقبض).^(١١) هذا فى الواقع ما حدث فى العالم هذا العام.

فى هذا العام حدث ذلك فى العالم، فكانت زراعة النبيذ عزيزة، لأن الرب أراد أن يتنفس الفقير، وأن يضع حداً لجشع هؤلاء الحكام الذين كانت أفواههم فاعرة، مثل مقابر مفتوحة لم تشبع بالجثث التى يحملها كل يوم حكام الأقاليم. فى ذلك الوقت لم يكتفوا بالمزروعات التى كانت تحملها لهم كل الأقاليم. لقد أعطى الرب من ثروته مزروعات وفيرة من أجل سد أفواههم القذرة، ووهب الراحة للناس المساكين، منتظرين أن يأتى إليهم يوم الانتقام، وأن تكون سيئاتهم زائدة ومقياس مظلهمهم مملوءاً.

ولكن الشتاء بدأ منذ شهر تشرين الأول (أكتوبر)، وهجم على الكرمات المحملة بالكروم تلج غزير، واستمر فترة طويلة. دخل العمال الكرمات لجمع الكروم بينما كان الثلج يكسوها، وبسبب البرد الشديد الذى اشتد سقطت

(١١) العهد القديم: زكريا ١٤: ٦.

الحبوب كلها أرضاً واختفت في الثلج. لقد استقبل البرد والثلج، كما أن المطر كعادته لم يسقط منذ تشرين الأول (أكتوبر) حتى بدلية حزيران (يونيو). طوال تلك الفترة كان هناك يوم ثلج ويوم آخر رياح محملة بالجليد تشق الجبال، وكذلك برد قارس.

لقد أراد الرب في هذا العام أن ينزل غضبه على الإقليم من كل الجوانب، من السماء ومن الأرض، من جهات السماء الأربع: من السماء بالثلج، وبالجليد الشديد في الأرض، ومن أسفل بثلج يشق الصخور، وعلى السطح بالمسائى الكبيرة التي ارتكبها الناس بعضهم ببعض، والتي لا نستطيع حصرها.

عن نفوق الماشية والحيوانات الذي حدث ذلك العام، وعن نقص علف الحيوانات

حدث جفاف شديد كما سبق أن ذكرنا، فتجمعت قبائل التغالبة والمعديين، وجمعوا أغنامهم ورجالهم وعائلاتهم وقاموا بغزو المنطقة الشمالية، وكذلك قاموا بغزو المنطقة الجنوبية وخربوها، لشنروا جميع الحبوب وأرسلوها إلى المنطقة السفلى. جميع المزارع الخارجية احتلت واكتسحت الأرض، كما لو كانت قد كنست بمكنسة، للغذاء كان كميات قليلة، ولما كانت لا توجد مراعى بالخارج وقليل من المحاصيل في الداخل فإن كل ماشية المراعى والإسطبلات نفقت، وكذلك الخراف والماعز.

عندما كان يقوم الراعى باصطحاب حيواناته إلى المرعى كانت الحيوانات لاتجد ما تأكله، لم يكن يوجد إلا للغبار، ولا حتى ورقة شجر باقية من شدة الحر. الحيوانات التي كانت ترعى في الخارج كانت تأكل ما يجمع الذين يرعون في الإسطبلات، ثم في النهاية تتفق هذه وتلك، لأن الشتاء امتد طويلاً وكان البرد قارساً.

فى الخارج كان الصقيع وفى الداخل المجاعة، من أجل ذلك كل مواشى المنطقة الشمالية نفقت، الأغنام والبقر والجياد والحمير، لدرجة أن المزارع كانت موبوءة بجثثهم العفنة، حتى إنه كانت تتبعث منها رائحة عفنة أكثر من رائحة المقابر.

عن الرياح العاصفة التى هبت فى ذلك العام

علاوة على ذلك هبت ريح شديدة وعاصفة، لدرجة أننا لم نرَ لها مثيلاً فى زماننا أو زمان أجداننا. لقد أبادت كثيراً من الأهالى، والماشية الصغيرة، والحيوانات الكبيرة، والطيور. لقد اقتلعت كثيراً من المزروعات، وارتفع التراب من على وجه الأرض فى دوامة أشبه بدوامات الثلج.

ازدادت قوتها ليومين متتالين بين عيد الميلاد وعيد الغطاس، ثم فى الثالث عشر من شباط (فبراير) أول أحد فى الصوم الكبير ويوم الاثنين التالى له. ولما كانت الأرض محملة بالجليد ولم تكن هناك رطوبة فإن كل المزروعات قد اقتلعت من الأراضى الرملية، أما الأراضى الضعيفة فقد يبست وجفت. إن الضباب والظلام حدثا بسبب سحب التراب، وهلك كل الطيور وخاصة الحمام. لم نعرف ماذا حدث لها، هل تقدمت مدفوعة بالهواء؟ أو سقطت فى الصحراء وهلكت من البرد؟ فإنها قد هلكت، ولكن عدداً قليلاً منها قاوم، أما الحيوانات البرية فقد نفقت وكذلك الحيوانات المتوحشة.

عن البرد الذى سقط ذلك العام

لقد سقط فى ذلك العام أيضاً برد لم نر مثيلاً له فى أيامنا، كان سميكاً مثل الزلط، وكان ذا أشكال مختلفة، وكانت له زاويتان أو ثلاث زوايا أو

أربع، حادة كالسيف. لقد كسر الأشجار والكرمات واقتلع المزروعات، وكل
الآجر الذى كان يكسو المنازل قد تحطم. إن هذا الصقيع قد سبب أضراراً
كثيرة بسبب الزوابع العظيمة التى هبت فى نفس الوقت.

. إن الهواء الذى كان يحول الجليد إلى سحب كان يحمل المياه التى
تسقط على الأرض، ويصعد بها فى مواجهة تلك الهابطة من السحاب، لدرجة
أنها كانت تظهر للذين ينظرون إليها. إن الأرض نفسها كانت ترفعها وتقدف
بها مباشرة أمام السموات.

عن العودة إلى بلدة موسى بن مصعب، وعن الحكام الذين عينهم،
وعن العذاب الذى تحمله الأهالى من جانبهم

كما قلنا فيما سبق عندما مضى عام على هذا الظالم، أى العام السابق،
تجمع كل سكان بلاد الجزيرة والموصل، وذهبوا إلى الخليفة ليتظلموا له من
العذاب الذى فرضه عليهم، ولكنهم كانوا مخطئين عندما تصوروا أن العدل
يكن بجوار رجل ظالم وصديق للصوص. وبدلاً من أن يجدوا الخير الذى
ينشدونه لم يحدث إلا أن نفذ فيهم مكره، فإنه بالإضافة إلى عدم استجابته لهم
فقد جمع العرائض التى قدمها له الفقراء بسبب عذابهم وسلمها إلى موسى،
وبذلك فقد غمره بالشرف، وجعله يتفوق على كل عظمائه. لقد فوضه أن
يعين حكاما يختاره من بينهم، وكان على كل مدينة أن تقدم واحداً منها.

عندما تسلم هذا الأمر أضاف إلى سيئاته الأولى سيئة جديدة، رجع
غاضباً زائراً كالأسد المنقض على فريسته، أشبه بحيوان مفترس عندما
يتمكن من الهروب من الفخ الذى وقع فيه. هكذا ضاعف هذا الرجل من
مساوئه عندما زلده للملك قوة بكلماته.

فقد ساعده الرب كما قال يرميا: (لأنه هكذا قال لى الرب إله إسرائيل: خذ كأس خمر هذا السخط من يدى واسق جميع الشعوب الذين أرسلك أنا إليهم إياها. فيشربوا ويترنحوا ويتجننوا من أجل السيف الذى أرسلته أنا بينهم. فأخذت الكأس من يد الرب وسقيت كل الشعوب الذين أرسلنى الرب إليهم).^(٤٦٢) ويقول أيضا: (وتقول لهم: هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: اشربوا واسكروا وتقيأوا واسقطوا ولا تقوموا من أجل السيف الذى أرسلته أنا بينكم).^(٤٦٣) ويقول مرة أخرى: (لأنى هأنذا أبتدى أسوء إلى المدينة التى دعى اسمى عليها فهل تتبرأون أنتم؟ لا تتبرأون لأنى أنا أدعو السيف على كل سكان الأرض، يقول رب الجنود. وأنت فتنبأ عليهم بكل هذا الكلام وقل لهم: الرب من العلاء يزمجر ومن مسكن نفسه يطلق صوته يزرر زئيرا على مسكنه بهتاف كالدانسين يصرخ ضد كل سكان الأرض. بلغ الضجيج إلى أطراف الأرض لأن للرب خصومة مع الشعوب هو يحاكم كل ذى جسد، يدفع الأشرار للسيف، يقول الرب).^(٤٦٤)

فى الحقيقة فإن الرب حاكم كل سكان الأرض ذلك العام، لأنه لم يوجد شعب واحد ولا مملكة واحدة فى سلام، ولكن كلهم على السواء حلت بهم الكارثة، كلهم شربوا الكأس من يد الرب. إن الفرس قد ثاروا وسخطوا لأننا لم نعطيهم شيئا، العرب كانوا مسحوقين بالابتزازات، واليهود والمسيحيون ومعهم المصريون والأرمن وأهل السند وكل الشعوب تكبدت ضريبة قاسية.

هذا يوضح أنهم شربوا من هذه الكأس (أريت شعبك عسرا، سقيتنا خمرالترنج).^(٤٦٥) إن مملكة الرومان لم تكن معفاة من تلك الكارثة القاسية، ولكنهم مثل شعوبنا، فإن حكامهم سقطوا كذلك فى الجمع، لأن مزيج الكأس

(٤٦٢) العهد القديم: يرميا ٢٥: ١٥/١٦.

(٤٦٣) العهد القديم: يرميا ٢٥: ٢٧.

(٤٦٤) العهد القديم: يرميا ٢٥: ٢٩/٣٠.

(٤٦٥) العهد القديم: المزمير ٦٠: ٣.

نفسه كان مجهزا لكل الشعوب (ويل لمن يسقى صاحبه مافخاً خموك
ومسكرا أيضا للنظر إلى عورتهم).^(٤٦٦)

وقال حبقوق أيضا: (قد شبت خزيا عوضا عن المجد، فاشرب أنت
أيضا واكشف غرلتك، تدور إليك كأس يمين الرب، وقياء الخزي على
مجدك. لأن ظلم لبنان يغطيك واغتصاب البهائم الذي روعها لأجل دماء
الناس وظلم الأرض والمدينة وجميع الساكنين فيها).^(٤٦٧) لقد أظهر النبى
أن الكأس الأولى التى تجرعتها الأرض وسكانها فى العام الماضى كانت من
أيدى الرب، عندما أنذر وقال: "إن كأس يمين الرب مستغطيك والخزي سيمحو
نصرك". (ويكون مقدسا وحجر صدمة وصخرة عثرة لبني إسرائيل وفخا
وشركا لسكان أورشليم).^(٤٦٨) إن هذا قد تحقق فى موسى، فمن كانوا
يستقبلونه جلبوا على أنفسهم الغضب، والذين لم يستقبلوه السيف، من كل
جانب كان العذاب يحيط بهم.

عاد كما سبق أن ذكرنا ووضع الرب عقبات عن طريق وسيطه وذلك
لكل الشعوب، فأرهقهم بالبرد والجليد والثلج والصقيع، لدرجة أنهم لم يتمكنوا
من الخروج والهروب من أمامه، بسبب قسوة البرد. إذا نجح أحد منهم فى
الهروب يرجع فوراً وسريعا دون أن يذهب خلفه أحد، مثل الذى كان فى
السجن ثم خرج ملهوبا إلى مسكنه (إن نقبوا إلى الهاوية فمن هناك تأخذهم
يدى وإن صعدوا إلى السماء فمن هناك أنزلهم).^(٤٦٩)

لقد تتبأ الرب بما كان يجب أن يحدث لنا، عندما عاد موسى زار
كالأسد المنقض على فريسته، بحث فوجد رجالا أقوياء دون رحمة فعينهم
حكاما فى بلادهم. كان هذا ضد مصلحة الأهالى الفقراء لأنهم لم يتمكنوا من

(٤٦٦) العهد القديم: حبقوق ٢: ١٥.

(٤٦٧) العهد القديم: حبقوق ٢: ١٧/١٦.

(٤٦٨) العهد القديم: إشعيا ٨: ١٤.

(٤٦٩) العهد القديم: علموس ٩: ٢.

مغالطة الحاكم الذى كان أصلا من المنطقة، ولم يكن يخفى عليه شىء، فاختار هؤلاء بدورهم نبلاء المدينة والمنطقة وتعاونوا معا. منذ ذلك الوقت كرسوا أنفسهم علنا للصوصية هم والحاكم، ولم يطلب منهم أحد حسابا.

لقد كان الفقراء فى حالة حزن عميق، فضعت أيديهم وارتعبت قلوبهم وتمزقت صدورهم، عندما علموا بوصول هذا الأثم وضاع أملهم. (لأنه مثل خبزى يأتى أنينى ومثل المياه تنسكب زفرتى. لأنى ارتعابا ارتعبت فأتأتى والذى فزعت منه جاء على. لم أطمئن ولم أسكن ولم أسترح وقد جاء الرجز).^(٤٧٠) هكذا قال أيوب.

لقد عينهم حكاما، واحدا لكل بلدة، كان هناك للكثيرون مع هذا الرجل. إن ابتزازاتهم قد فاقت الضرائب التى كانوا يفرضونها، لأنهم كانوا لصوصا وأشرارا وقطاع طرق. لقد اختار هؤلاء الرجال قضاة ليعينوهم. إنه مكتوب (الحاكم المصفى إلى كلام كذب كل خدامه أشرار).^(٤٧١)

لذلك كانوا يرتكبون ابتزازاتهم بعنف مع الأهالى المساكين، وكذلك ضربات وصفعات وحشية. كانوا ينالون مكافأة أكثر من نصف الذى سلبوه، ثم يعودون مرة أخرى ويأخذون عددا من الزوازى لمجهوداتهم. كانوا يجبرونهم على بيع خيراتهم ليؤدوا الضحية، فكانوا يبيعونه ويأخذونه مكافأة. هكذا ملأوا منازلهم بخيرات اليتامى والأرامل، وباعوا أيضا أغنامهم وأبقارهم وكل ما كانوا يملكون. أحيانا كان أحدهم يذهب إلى مكان لا يوجد به شىء فيبدأ فى طلب مكافأته، ثم يقوم بتهديد الأهالى ويبيع خيراتهم. هل سجد شخصا أكثر وحشية من هذا؟ (رؤسلك متمردون ولغفاء اللصوص، كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع العطايا، لايقضون لليتيم ودعوى الأرملة لاتصل إليهم).^(٤٧٢)

(٤٧٠) العهد القديم: أيوب ٣: ٢٤/٢٥/٢٦.

(٤٧١) العهد القديم: الأمثال ٢٩: ١٢.

(٤٧٢) العهد القديم: إشعياء ١: ٢٣.

كانوا يطلبون بقسوة من هؤلاء المساكين ثلثاً أو ثلثين، وكانوا لا يعرفون لا بداية ولا نهاية. كانوا لا يخبرون أحدا بما كانوا يحملون، كنا نجهل ما كانوا يأخذون أو ما كانوا يتركون. كانوا يتصرفون كاللصوص والأشرار وكقطاع الطرق، فقد احتجزوا نبلاء المدينة وأحرارها وباعوا بهائمهم مع كل ما كانوا يملكون. كانوا يبيدونهم ويفنؤهم من على وجه الأرض، كان لا يفهم أن يأخذوا كل ما كانوا يملكون، بل كانوا يطلبون منهم أيضا ما لم يكونوا يملكون.

لقد عين ولاية من أجل الضرائب العديدة لصدقة المال للعرب، وكان هؤلاء يطلبونها عدة مرات. لقد جعلوهم يدفعون الضرائب القديمة، فمن كان مفروضا عليه عشرة زواجر كانوا يطلبون منه ثلاثين وأحيانا أربعين. كانوا يختلقون باسم رؤسائهم ضرائب خارجية يفرضونها على السائرين في الطرقات خارج البلاد، وحدث أنهم كانوا يضربون الأغراب المعينين في البلدة ويدعونهم "حديثي العهد بالإسلام وكذلك بالمسيحية"، لأنهم لم تكن تقلقهم مصلحة الإسلام، ولكن ما يهمهم هو إشباع طمعهم وجشعهم. كانوا يحددون ويفرضون الضرائب دون رحمة على البلد وعلى حقول العرب دون أن يعرفوا قيمة المحاصيل.

كان ذلك أساس المساوئ، ثم أضاف عليه الحكام وكذلك رؤساء المناطق والرسل والولاة.

في الحقيقة إن اللصوصية وعدم الرحمة والفسخ والخداع كانت تهيم عليهم جميعا دون فرق، فقد تحدث النبي إشعياء عن هؤلاء الناس عندما قال: (من أطراف الأرض سمعا ترنيمة: مجدا للبار، فقلت: يا تلفى يا تلفى، ويل لي، الناهبون نهبوا الناهبون نهبوا نهبا. عليك رعب وحفرة وفخ يا ساكن الأرض. ويكون أن الهارب من صوت الرعب يسقط في الحفرة والصاعد من وسط الحفرة يؤخذ بالفخ، لأن ميازيب من العلاء انفتحت وأسس

الأرض تزلزلت. تسحقت الأرض تسحفاً، تشققت الأرض تشققاً، تزعزعت الأرض تزعزعا. ترنحت الأرض ترنحا كالسكران وتدللت كالجزال وثقل عليها ذنبها فسقطت ولا تعود تقوم)،^(٤٧٣) كانوا يمارسون الظلم دون حياء، لقد ثارت الأرض وانقلبت وانتقل الناس من بلدة إلى بلدة ومن مكان إلى مكان وازداد ظلم الناس (وكما يكون الشعب هكذا الكاهن، كما العبد هكذا سيده، كما الأمة هكذا سيدتها، كما الشاري هكذا البائع، كما المقرض هكذا المقرض وكما الدائن هكذا المدين).^(٤٧٤)

وقد قال إشعياء أيضاً بخصوصهم: (هوذا الرب يخلّي الأرض ويفرغها ويقلب وجهها ويبدد سكانها. وكما يكون الشعب هكذا الكاهن، كما العبد هكذا سيده، كما الأمة هكذا سيدتها، كما الشاري هكذا البائع، كما المقرض هكذا المقرض وكما الدائن هكذا المدين. تفرغ الأرض إفراغاً وتنهب نهبا لأن الرب قد تكلم بهذا القول. ناحت ذبلت الأرض، حزنت ذبلت المسكونة، حزن مرتفعو شعب الأرض. والأرض تدنست تحت سكانها لأنهم تعدوا الشرائع غيروا الفريضة نكثوا للعهد الأبدى).^(٤٧٥) لقد قال للشيطان لمريديه: "إن عيني تراهم". قال لأعدائه: "اتبعوه واقتبسوا عليه".

لن يثور أحد ولن يهرب أحد من الكفر كبيراً كان أم صغيراً، لقد نصب شبكته فوق فيها كل أبناء آدم. إن يده مثل العش قد تجمعت فيه كل الشعوب. إن أحداً سواء كان أسقفاً أو قساً^(٤٧٦) أو حاكماً لم يكن معصوماً من الخطيئة أو من الكارثة أو من النهب أو من الوشاية أو من الإهانة أو من اللعنة أو من الحقد أو من الثرثرة أو من اللصوصية أو من الزنا أو من

(٤٧٣) العهد القديم: إشعياء ٢٤: ١٦/١٧/١٨/١٩/٢٠.

(٤٧٤) العهد القديم: إشعياء ٢٤: ٢.

(٤٧٥) العهد القديم: إشعياء ٢٤: ١/٢/٣/٤/٥.

(٤٧٦) القس كلمة أرامية (قسّوشا) معناها "الشيخ". ولما كان الكهنة في صدر النصرانية ينتخبون من بين الشيوخ لاعتصافهم بالحكمة والخبرة دعى للكاهن قساً أو قسّساً. (تاريخ الأمم والملوك ج ٩ ص ٢٣٩)

انتهاك حرمان القبور. إن كل بذور الشيطان من الآن مزروعة في كل الرجال، كل واحد كان مضطراً أن يفعل الشر وفقاً لترتيبه ولقدرته.

عند رؤية تلك الأشياء قال النبي: (لذلك لعنة أكلت الأرض وعوقب الساكنون فيها، لذلك احترق سكان الأرض وبقي أناس قلائل. ناح المسطار ذبلت الكرمة أن كل مسروري القلوب. بطل فرح الدفوف انقطع ضجيج المبهجين بطل فرح العود. لا يشربون خمرا بالغناء، يكون المسكر مُراً لشاربيه. دمرت قرية الخراب، أغلق كل بيت عن الدخول. صراخ على الخمر في الأرقعة، غرب كل فرح، انتهى سرور الأرض).^(١٧٧) لقد ذهب الفرح وتوقف للرقص، وبدلاً منهما كان البؤس والحزن والمرارة.

لم تصل إلينا تلك الأشياء عن طريق السمع، ولكننا نراها أمام أعيننا. لقد تبادل الناس مع العذاب، وقد تمكنوا من مهاجمة الأساقفة والمنعزلين والعموديين، وأنزلوا الكثيرين من فوق أعمدتهم وأخرجوهم من صوامع اعتزالهم. إن القس الذين كانوا يعيشون بعبادة وطهارة في المجتمعات النقية للأبرشيات والأديرة كانوا يقاسون أكثر من الاضطهاد والتعذيب والضربات العنيفة، بسبب ابتزازات هؤلاء القضاة، فليعلم الذي يقرأ ويفهم أننا لم نر في العالم تعذيباً أشد قسوة من ذلك الذي حدث في ذلك العام. لو لم تختلط الأمور لدرجة أن كل الشعوب قد ظلمت وتعذبت أكثر من كل الشعوب السابقة لكن قد وجدت شهداء اليوم، فلو كان أحد يملك شيئاً ويريد الهروب لكان يظل محبوباً كما لو كان في أغلال، حتى يصبح خالياً من كل شيء ولا يبقى له شيء، وبمجرد أن يصبح خالياً من كل شيء كان يستطيع الهرب، ولكن ما لم يكن يمتلك شيئاً لا يستطيع ذلك سبيلاً. فإذا هرب فإن الطريق نفسه ينهبه، وإذا حدث أن وضع شيئاً في الأرض فإن المكان نفسه يعلنه: "هذا خير فلان فاحضر وخذه". وإذا أسلم أحداً ودية يكون هذا مغتصبه، ويأخذ خيره بدلاً من اللصوص وقطاع الطرق.

(١٧٧) العيد القديم: إشعيا ٢٤: ٦/٨/٩/١٠/١١.

بهذا الشأن قال النبي عوبديا: (إن كنت ترتفع كالنسر وإن كان عثك موضوعا بين النجوم فمن هناك أحدرك يقول الرب)،^(٤٧٨) ويقول أيضا: (كيف فُتِّش عيسو وفحصت مخالبه؟).^(٤٧٩) كان يجب أن تعرف كيف أن ما كان يخبئه شخص يصبح واضحا جليًا. وقد قال هوشع أيضا: (جاءت أيام العقاب، جاءت أيام الجزاء، سيعرف إسرائيل، النبي أحق، إنسان الروح مجنون من كثرة إنمك وكثرة الحقد)،^(٤٨٠) وأيضا: (أفرايم منتظر عند إلهي، النبي فخ صياد على جميع طرقه، حقد في بيت إلهه)،^(٤٨١) الحقد قد تضاعف بين الجميع، بالإضافة إلى الكذب والظلم والمحاباة.

(لأن شعبي أحق، إياي لم يعرفوا، هم بنون جاهلون وهم غير فاهمين، هم حكماء في عمل الشر ولعمل الصالح ما يفهمون. نظرت إلى الأرض وإذا هي خربة وخليّة وإلى السموات فلا نور لها)،^(٤٨٢) قال إرميا: كل الأرض كانت خربة وانقلبت رأسا على عقب، وكسى سطحها ظلمات المعاصي والظلم. لقد بيعت كل مواشي المنطقة، كما يقول لنا النبي ناحوم: (أكثر تجارك أكثر من نجوم السماء، الغوغاء جنحت وطارت).^(٤٨٣) إن تجار الماشية أصبحوا أكثر عددا من نجوم السماء كما قال لنا النبي ناحوم. كنا نبيع دابتين مئيتين أو ثلاثا بزوزا واحد، ونفس العدد من الغنم، والبقرة بزوزا والحمار بزوزا والبلغل بعشرة، وكل ما بقى من هذه الدواب كان يذهب هباء. إن ممتلكاتهم الثمينة والقيمة التي نهبها القضاة كانت أيضا تباع مقابل لا شيء، فالشيء الذي كان يساوي عشرين زوزا أو ثلاثين كان يباع باثنين أو ثلاثة.

(٤٧٨) العهد القديم: عوبديا ١: ٤.

(٤٧٩) العهد القديم: عوبديا ١: ٦.

(٤٨٠) العهد القديم: هوشع ٩: ٧.

(٤٨١) العهد القديم: هوشع ٩: ٨.

(٤٨٢) العهد القديم: إرميا ٤: ٢٢/٢٣.

(٤٨٣) العهد القديم: ناحوم ٣: ١٦.

عندما دمرت المنطقة كنا فى بداية أيام الصوم الكبير المقدس، وبدأنا فى الأسابيع للمساء "للسعادة"، والتي لن نسميها نحن للسعادة ولكن نطلق عليها المرارة والحزن والقلق، لأن الكارثة أصبحت أعظم من باقى السنة.

إن الكارثة امتدت طيلة الصوم الكبير المقدس حتى الأحد "الجديد".^(٤٨٤) لم يكن هناك لا عيد ولا يوم أحد... لم نغم بالصلوات التي كانت عادتنا القيام بها أيام الصوم والشعائين، وحتى أيام الآحاد. لقد نزع المسيحيون كل الأدوات الحديدية والخشبية من منازلهم وباعوها، فقد انتزعوا الأبواب وباعوها منتظرين الفرج، وأخيرا انتزعوا حتى العوارض الخشبية لمنازلهم وباعوها، ثم تركوا أنقاض مساكنهم وذهبوا عراة ينتقلون من بلدة إلى بلدة ومن مكان إلى مكان. إنه هنا الذى يجب أن نقول مع النبی إرميا: (لذلك، هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: هاأذا أطعم هذا الشعب أفسنتينا وأسقيهم ماء العلقم. وأبدهم فى أُمم لم يعرفوها هم ولا آبائهم وأطلق وراءهم السيف حتى أُنفيهم).^(٤٨٥) وقال إشعيا أيضا: (ويكونون كظبي طريد وكغنم بلا من يجمعها، يلتفتون كل واحد إلى شعبة ويهربون كل واحد إلى أرضه)،^(٤٨٦) وأيضاً: (بل تريض هناك وحوش الفقير ويملا البوم بيوتهم وتسكن هناك بنات النعام وترقص هناك معز الوحش. وتصيح بنات آوى فى قصورهم والذئاب فى هياكل التمتع ووقتها قريب المجيء وأيامها لاتطول).^(٤٨٧)

إننا يجب ألا نقول فقط: (انقطعت النقدمة والسكيب عن بيت الرب، ناحت الكهنة خدام الرب)،^(٤٨٨) وقد انتزعت الكتب من الكنيسة وتم بيعها، أما

(٤٨٤) الأحد الجديد: هو أول أحد بعد عيد شم النسيم عند السريان.

(٤٨٥) المهد القديم: إرميا ٩: ١٦/١٥.

(٤٨٦) المهد القديم: إشعيا ١٣: ١٤.

(٤٨٧) المهد القديم: إشعيا ١٣: ٢٢/٢١.

(٤٨٨) المهد القديم: يوتيل ١: ٩.

الباقى فقد أحرق فى النار، وأيضاً أنيتهم للمقدسة قد تحطمت، وخربت حدائق الكروم وقطوف العنب (ناح المسطار ذبلت الكرمة أن كل مسرورى القلوب).^(٤٨٩) لقد أنبتت الحقول أشواكاً وعليقاً، وأشجار تين قد يبست وذبلت، وكذلك أشجار الزيتون والرمان ونخيل البلح وأشجار التفاح، لذلك اختفت الفرحة من بين الناس، فقد هرب العمال وأصبحت منازلهم مأوى للحيوانات المتوحشة.

عن الكارثة التى تحملها سكان القرى نتيجة للسلب، وعن المساوى التى ارتكبها الفلاحون أنفسهم

لم نشأ أن نترك هذا خارج النص الحزين الملىء بالحسرة والألم القاسى. لقد قلت فيما سبق إن تعيين الحكام الأصليين فى البلاد كان أكثر ضرراً من كل المساوى السابقة واللاحقة، ولما كان جشع الحاكم الشخصى لا يكفى فقد اختار كل حاكم مساعدين له من الأشخاص الأكثر وحشية والأكثر بؤساً، والذين لم يتركوا ولو مساراً فى الحائط دون أن يزعوه، لأنهم كانوا جشعين كذئاب الليل. كانوا لا يملكون شيئاً، وفجأة هنا امتلكوا ثروات عن طريق اللصوصية بمشاركة حكامهم. هؤلاء الذين كانوا سفاحين وقطاع طرق وسكارى وملحدين وناهبى الكمائن ليلاً وناهبى المنازل، اليوم هم الذين أصبحوا حكاماً. انظروا يا إخوانى عمل المعاصى وبين أيدي من كانوا يلقون بهم؟ هكذا قيل "إن الشرير سيعاقب بالشر"... ها هنا بين أيدي من ألفت بنا سيئاتنا، وماذا فعل بنا هؤلاء الجشعون الذين لارحمة لهم؟

وعند جمع الضريبة وكثير غيرها كانوا يطالبون بأكثر من القيمة بكثير، فباعوا كل ما كان يملكه الرجال وأخذوا الثمن. لم يكونوا يفرضون الضريبة المطلوبة فقط فى مكان ما، ولكن كانوا يفرضون نفس الضريبة لعدة

(٤٨٩) العهد القديم: إشعياء ٢٤: ٧.

مرات. لم تكن هناك بداية ولا وسط ولا نهاية لابتنزازاتهم. كانوا ينقضون على المدن قائلين: "إن نصيب تلك البلدة كذا وتبقى عدة آلاف من الدنانير لدفعها". ويذهبون لفرضها من جديد، ولما كانوا يحصلون على المبلغ بالقوة كانوا يبدأون من جديد فى طلبها. لم يستطع أحد أن يتكلم، لأن الجميع كانوا يخشون أن تفرض عليهم ضريبة إضافية من الحاكم. كانوا يقبضون على النبلاء ويستنزفونهم دون رحمة، لدرجة أنهم أهلكوا وأبادوا الكثيرين.

إن الفلاحين أنفسهم قد ساعدوا الأشقياء، فكانوا يهاجمون الرجال، فيحملون ويبيعون كل ما كانوا يمتلكون، وكانوا يقولون كذبا: "إن لديك فى بلدتنا كرمة أو حديقة أو غابة أو حقل زيتون". أو: "إنك أجبت بدلا من شخص". أو: "إنك خاضع عندنا للضريبة، وها هى عدة سنوات لم تدفع الجزية، ادفع الآن".

لذلك الأسباب ولأسباب أخرى مماثلة قبض أهل القرى على الرجال المساكين ونهبوهم. لقد علمهم الحاكم نفسه أن يتصرفوا هكذا، فكان يساعدهم ولا يحاسبهم على أفعالهم. كانوا ينقضون على عابر سبيل يقبضون عليه، ثم يثيرون ضده شهود زور يقولون: "إن فلانا متضامن لجزيتنا". وكان يؤكد بأدلة: "لم أر فى حياتى هؤلاء الرجال ولا هم قد رأونى من قبل". وكان هؤلاء يقولون: "إنه متضامن لجزيتنا". فكان يوجد بينهم شهود زور، كانوا يتحاملون عليه، وهكذا كانوا يبيعون ماشيته وخيراته وكل ما كان يملك. كانوا يملكون فى المدن كالكلاب التى تقتفى أثر أصحابها فى الأرض، كالحيوانات أو الأغنام. كانوا يستفسرون عن كل من كان عنده أمانة، سواء كانت قمحا أو حديدا أو أى بضاعة أخرى، ويأخذونها منه. كانوا يتجولون فى المدن فى جماعات مراقبين رجلا وقائلين: "إن فلانا هذا منا". إن الذى يهرب من واحد كان يقع فى يد آخرين يقودونه بدورهم إلى آخرين، وإذا حدث أنه كان يخبئ شيئا، سواء فى الأرض أو عند أحد، كان المكان نفسه

يصرخ كالمرأة الحامل التي أصابتها آلام الوضع، إنه في تلك الحالات أو في حالات مماثلة أو حالات مشابهة أمضى الأهالي الأيام المقدسة للصوم الكبير.

فلنرجع الآن إلى الأضرار الأخرى التي ارتكبتها القرويون فيما بينهم، (يذهبون من قوة إلى قوة، يَرَوْنَ قَدَامَ اللَّهِ فِي صِهْيُونَ)،^(٤٩٠) ونحن سننقل من سوء إلى سوء (لأنه أمر على أمر، أمر على أمر، فرض على فرض، فرض على فرض، هنا قليل هناك قليل)،^(٤٩١) (ولا يضعف قلبكم فتخافوا من الخبر الذي سمع في الأرض فبقته يأتى خبر في هذه السنة ثم بعده في السنة الأخرى خبر وظلم في الأرض، متسلط على متسلط).^(٤٩٢)

عن المرارة التي عانى منها الرجال، وعن النهب الذي مارسه القرويون بعضهم ضد بعض

(لأن السيدرب الجنود يصنع فناء وقضاء في كل الأرض)^(٤٩٣) فقد تمكنا من أن نرى خراب كل شيء. إن غضب الرب لم يبتعد أيضا عنا لأننا لم نتوقف عن ارتكاب العديد من المعاصي، ولكن من يوم إلى يوم نضيف إلى أخطائنا، كالرجل الذي فرض عليه حمل ثقيل، وبدلا من أن يخفف منه على العكس يضيف عليه. لقد سخط الرب علينا، ولكننا دأبنا على عمل الشر، ولهذا صرخ فينا إرميا قائلا: (ثم قال الرب لى: وإن وقف موسى وصموئيل أمامي لا تكون نفسي نحو هذا الشعب. اطرحهم من أمامي فيخرجوا. ويكون إذا قتلوا لك: إلى أين نخرج؟ أنك تقول لهم: هكذا قال

(٤٩٠) العهد القديم: المزامير ٨٤: ٧.

(٤٩١) العهد القديم: إشعياء ٢٨: ١٠.

(٤٩٢) العهد القديم: إرميا ٥١: ٤٦.

(٤٩٣) العهد القديم: إشعياء ١٠: ٢٣.

الرب الذين للموت فبالى الموت والذين للسيف فبالى السيف والذين للجوع فبالى الجوع والذين للسبى فبالى السبى، وأوكل عليهم أربعة أنواع، يقول الرب: السيف للقتل والكلاب للمحب وطيور السماء ووحوش الأرض للأكل والإهلاك).^(٤٩٤)

الآن طردنا الرب من أمامه، ولم يتمكن للقربان ولا التكفير ولا الرجال العادلون الموجودون بيننا من مصالحة الرب معنا، ولكنه خرب البلاد، فخرج الأهالي من منازلهم، وانقض عليهم الكلاب لتقطيعهم والطيور لافتراسهم دون رحمة. إن هؤلاء الناس كانوا أسوأ من الكلاب والطيور، لأنهم عندما أكلوا وأشبعوا غليلهم لم يتوقفوا عن التخريب، بخلاف ذلك الحيوان لا يفترس ولا يطحن ولا يوطئ بقدمه ما تبقى. على العكس، تلك الحيوانات المفترسة قد التهمت فأشبعت غليلها وحملت معها إلى مأواها ما تبقى.

إن هذا لا يكفي كل السيئات التي سordناها، بل يجب أن نضيف عليهم هذا، عندما سددت الضرائب تقريبا بأكملها جاء رجل قاس يدعى "رازين" سبق أن تحدثنا عنه فيما سبق، جاء إلى آمد إلى أرزون^(٤٩٥) وإلى ميافرقاط. في آمد بين أهالي البلدة كان يوجد رجال محتفرون وبخلاء... أرزون... في ميافرقاط...^(٤٩٦)

عندما رأى المساكين أن تلك اللصوصية الواضحة لم تتوقف، وأن هؤلاء المبتزين لم يكن لديهم خوف من الرب أو خشوع، وأن مصدر كل المساوئ لم يطلب منهم حسابا عن الآثام التي ارتكبوها في المنطقة، ثاروا وقالوا: لقد أعطينا لنا ولجيراننا، لقد دفعنا جزيتنا وأيضا تلك التي لم تكن

(٤٩٤) العهد القديم: لرميا ١٥: ٣/٢.

(٤٩٥) منطقة كانت تمتد من نهر دجلة الشرقى إلى مياه بطنان، ومن سمرق إلى ميافرقين، وأشهر مدنها أرزون وسمرق، فكانت أرزون بين سمرق وميافرقين، وترى خربها الآن في مكان يقال له "خراب بازرا"، أي المدينة الخربة، وتبعد نحو عشر ساعات عن سمرق. (أول نصارى بغداد ص ٤٢)

(٤٩٦) هنا فقرة كبيرة مفقودة في المخطوطة.

مفروضة علينا. متى إذن سيشفون غليلهم من لحومنا؟ إن نعطي شيئاً لأننا لانعلم من أين نأخذ وماذا نعطيهم".

عندما سمع الحاكم ذلك ضرب كفيه وصك أسنانه، وكالأسد أصبح محباً لسفك الدماء. لقد جمع ضدهم كل لصوص مدنهم وسفاحيها، وأرسل معاونه ومعه مجرمين ودمويين، ومعه نبلاء المدينة وفلاحين فاسقين، ودون رحمة جمع هذا من بين القرويين جماعة غفيرة العدد مسلحة بالرماح والقلاع وتقدم نحوهم. لقد ارتكب مزارعو المنطقة كثيراً من الأذى لكل المجرمين واللصوص الموجودين بينهم، وجعلوا إخوانهم يعانون كثيراً من الأذى، لدرجة أن اللسان غير قادر على سردها.

المنطقة التي نارت كانت تقع في الجبال في المنطقة الشمالية للمدينة، وكانت تدعى "توتس"، فكان شعبها يتكون من سوريين وأرثيين، كانوا يتقاسمون المنطقة، أي أرمينيا الرابعة. كانت توجد في تلك المنطقة الأماكن التي تنتج الرصاص والفضة وركائز أخرى من حديد، وبسبب الكارثة الكبيرة التي حلت في كل البلاد اجتمع عدد كبير من الرجال في هذا المكان، حيث كان يوجد الرصاص، حتى أصبح المكان مخيماً، ولدرجة أن الملك نفسه قد عين حاكماً فيه. لقد اجتمع الرجال في هذا المكان من كل فج، وشقوا خنادق كبيرة وعميقة للبحث عن الرصاص.

وقد اتجهت قوات الفلاحين إلى المكان الذي حددناه. لقد أرادوا أن يفرضوا عليهم الضريبة، ولكن الحكام الفرس لم يستجيبوا. كانوا يقولون "إن معظمهم كانوا من بلدكم. إنهم يدفعون الجزية والضريبة". ولكن هؤلاء لم يستسلموا فاستعدوا للقتال بضرلوة، ولذهب كل ما كان يملكه غيرهم. لقد أعطى الفرس الأمر لساكنتي المخيم أن يستعدوا لمهاجمتهم، ولمنعهم من الدخول عندهم إذا لم يكونوا يريدون أن يقتلوا. عندما انقض عليهم الذين لم يكونوا من المخيم وبدلوا في قتلهم فإن الذين كانوا يعملون في الرصاص ولوا الألبار في وجود السيف.

ولما كنا لا نزال في الشتاء فقد كان يوجد في تلك المنطقة جليد كثيف. كان الثلج على منافذ الخنادق، والحفر كانت مملوءة بالمياه بسبب الثلوج التي لم تكن ظاهرة. لقد وقع الكثيرون في تلك الخنادق عند هروبهم، ومعظمهم اختنقوا وهلكوا دفناً تحت الثلج في قيعان تلك الحفر. لقد قتلوا الكثيرون أيضاً بحد السيف، لم يعفوا عنهم ونهبوهم، وفي النهاية نجد أنهم قد سلبوا كل المخيم.

فليات: إذن النبي إرميا شخصياً، وليقل بهذا الشأن: (فتح كل أعدائنا أفواههم علينا. صار علينا خوف ورعب وهلاك وسحق. سكبت عيناي ينابيع ماء على سحق بنت شعبي. قد اصطادني أعدائي كعصفور بلا سبب. قرصوا في الجيب حياتي وألقوا عليّ حجارة. طفت المياه فوق رأسي، قلت: قد قُرضت)،^(٤٩٧) فليصف أيضاً ما قد قيل: (ويكون أن الهارب من صنوت الرعب يسقط في الحفرة والصاعد من وسط الحفرة يؤخذ بالفخ، لأن ميازيب من الغلاء انفتحت وأسس الأرض تزلزلت)،^(٤٩٨) لم ينقص أي شيء من هذا هنا. إن المسيحيين لم يرافقوا حتى بزملائهم الذين كانوا قد اختنقوا أو قتلوا، ولم يسحبوهم حتى لنفهم، وإذا حدث بالصدفة أن سحبوا أحداً يكون ذلك بسبب سلخه من ملابسه ويتركونه عارياً في قاع الخندق.

أما عن السيئات التي ارتكبوها في تلك المنطقة فإنه من الأفضل عدم التحدث عنها، أولاً لأنه ربما لن يصدقنا أحد بسبب مكرهم، ثانياً خوفاً من أن يعرف الملحدون ولا يقولوا إن المسيحيين لا يخشون الرب أبداً، لأن أفعالهم أسوأ من أفعال المجوسيين، لذلك ومن أجل إظهار ما هي الأسباب التي أدت بنا إلى تلك الكارثة، لكي يأخذ الذين يرون أعمالنا حذرهم، وأيضاً لإظهار رحمة الرب التي تتحمل بصبر إثارتنا وكثرة جشعنا فسوف نقول شيئاً.

(٤٩٧) العهد القديم: مراثي إرميا ٣: ٤٦/٤٨/٥٢/٥٤.

(٤٩٨) العهد القديم: إشعياء ٢٤: ١٨.

لقد تقدموا إذن نحوهم، وبسبب الثلج الغزير الموجود على الأرض لم يتمكنوا من الهرب، وإذا حدث أن هربوا يذهب البعض على أثرهم ويجدونهم ويلقون بهم فى الثلج، هم وخيراتهم وزوجاتهم ولولادهم. هؤلاء ارتعدوا وأصبحوا كالحين كالمح بسبب قسوة البرودة، وبدلاً من أن يرحمهم نهبوا الرجال والنساء والأطفال وتركوهم عراة دون ملابس ودون أحذية، فقد خلعوا عنهم أيضاً سرلويلهم، ولم يخشوا أن يكشفوا الطبيعة. لقد ارتكبوا أيضاً دون خجل أعمال فجور مع نساتهم وبناتهم فى وجودهم كلهم. إن الأثم الذى كان على رأسهم حكم أن كل ما يستولى عليه رجل فإنه يكون ملك ذلك الرجل، لدرجة أنه هو نفسه وهؤلاء للصوص للذين انضموا إليه وجاءوا معه استطاعوا ثلبيّة رغبتهم وتنفيذها وغصبتهم:

كان الفلاحون ورؤساؤهم أكثر صلابة من الوثنيين، ولم تكن لديهم أدنى رحمة بإخوانهم، لقد اقتصروا جشعهم فى هؤلاء الذين كانوا محترمين فى نظر الجميع. إن قطاع الطرق قد حطموا كل الأشياء التى كان يستخدمها الرجال، لقد حطموا بالنار ما كان من خشب، كسروا ذلك الذى فى الأرض، أخذوا لأنفسهم البرونز والحديد، لم يتركوا فراشاً ولا باباً ولا أنية ولا حوضاً دون أن يحطموها بالنار. لقد حطموا الأواني والحلل والجرأت، وقد شربوا نبيذاً كان موجوداً بقدر ما استطاعوا وسكبوا الباقي على سطح الأرض. إذا حدث أن دفن وعاء فى باطن الأرض ولم يتمكنوا من تحطيمه فيمسك أحدهم رمحه ويتقب القاع، فيندلع النبيذ فى باطن الأرض، وفعلوا نفس الشيء مع العسل، فقد أكلوا على قدر ما استطاعوا وسكبوا الباقي على الأرض، وحطموا خلايا النحل، غمسوها فى الماء حتى يبيدوها كلها. كانت لديهم الجراءة أن يفعلوا ذلك، وفقاً لنصيحة الشيطان الذى خطط لهم الطريق، ليصبحوا أسوأ من الوثنيين الموجودين بينهم، تجرأوا أن يأكلوا لحماً وجنباً أثناء أيام الصوم المقدس، وعملوا أعمالاً أخرى كثيرة محرمة. وحدث أنه عندما وصل إلينا ما كانوا قد قاموا به تجاه إخوانهم أن غرقنا فى حزن عميق ودموع وأسى، وقد اندهشنا عندما رأينا إلى أى درجة أغوى الشرير للرجال.

لقد تجرأوا أيضا على أن يهاجموا الكنيسة التي نهبوا، فقد أخذوا كتبها وكل أشياء العبادة المقدسة، ولما كانوا قد حبسوا زوجاتهم في الكنائس فقد دخل الوثنيون بأنفسهم واعتدوا عليهن في وسط المعابد. إنه هنا يجب أن نبكى مع إرميا ونقول: (وقد خرج من بنت صهيون كل بهائها، صارت رؤسها كأبائل لا تجد مرعى فيسيرون بلا قوة أمام الطارد. طرق صهيون نائحة لعدم الآتين إلى العيد، كل أبوابها خربة، كهنتها يتعهدون، عذاراها مذلة وهي في مرارة. نجستها في أذيالها، لم تذكر آخرتها وقد انحطت انحطاطا عجيبا، ليس لها معز، انظر يا رب إلى مذلتى لأن العدو قد تعظم. بسط العدو يده على كل مشتهياتها فبتها رأت الأمم دخولاً مقبها الذين أمرت أن لا يدخلوا في جماعتك)،^(٤٩٩) (قد صار ميراثنا للغرباء، بيوتنا للأجانب)^(٥٠٠) تلك الكوارث حدثت في تلك المنطقة، لقد قادوا الرجال مكبلين مثل القتلى، جمعوا كل غنائمهم وقادوهم معهم. لقد جابوا كثيرا من القرى طاردين الفلاحين ناهبين وساحبين الأهالى.

ذهب رازان إلى أرزون وإلى ميفرقاط، وعندما رأى لصوصية حكام تلك البلاد قادمي إلى عذاب عظيم وإلى تعذيب قاس (ففى الحال ضربه ملاك الرب لأنه لم يعط المجد لله، فصار يأكله الدود ومات)،^(٥٠١) حطم أيديهم وقيد أرجلهم بالأغلال، وحمل كل ما كانوا قد نهبوه. لقد سلمهم للرب إلى أيدي هذا المجرم الآثم، وكل الفواحش التي كانوا قد ارتكبوها وقعت عليهم أنفسهم. كنا نقول عنهم إنهم كانوا يحتجزون فى المشوارع شبابا جرذا وكانوا يندسونهم.

(٤٩٩) العهد القديم: مراثى إرميا ١: ١٠/٩/٦.

(٥٠٠) العهد القديم: مراثى إرميا ٥: ٢.

(٥٠١) العهد الجديد: أعمال الرسل ١٢: ٢٣.

إن الكتاب والعرفان للظالمين الذين كانوا مسيحيين كانوا يأخذون ويقودون دون خجل شابات، سواء من بنات الشعب أو بنات النبلاء فيقومون بتدنيسهن. في الحقيقة لم يخلوا مطلقاً ولم يكونوا يعرفون أى حدود جعلتهم يهاجمون عرائس المسيح، لقد سلمهم للرب إلى أيدي من هو أظلم منهم: "إن الشرير ينتقم من الشرير والرب من الاثنين".

عندما رأى هذا أعمالهم الشريرة أحضرهم فتقب أنوفهم ووضع لكل منهم لجاماً مثل الجمال، وعمل لهم ثياباً في الجبهة بين العينين، وعلق به ألواحاً وربطهم بسلاسل، وكانوا يسحبونهم منها... هذا...^(٥٠٢) كان يسلّمه إلى الخادم لكي يدور به بسخرية في الساحة العامة، ثم يلقي بهم في السجن. كان لا يعطى لهم الخبز أبداً إلا ليظلوا على قيد الحياة. لقد كانت تتصاعد من كل مكان في المنزل - حيث كانوا محتجزين - رائحة عفونة أسوأ من رائحة المقبرة. لقد لاحظت بعض تلك الأشياء، فعند رؤيتها بضع الرؤساء للرب أمام ضمائرهم، حتى لا يتصرفوا وفقاً لرغباتهم مخالفين للنزاهة، وحتى يعلموا أن هناك قانوناً حتى بالنسبة لمن يسن القانون، وليفهموا أن الأمير الذي يتصرف بطريقة غير قانونية يفقد سريعاً لقب أمير، ويحصل بدلاً منه على لقب طاغية، اللقب الملىء بالعار.

عن المجاعة التي تفشت بين البشر، وعن الأمراض الوحشية،
وعن الطاعون العظيم الذي حل في ذلك العام

إنه مكتوب في النبي: (لذلك، هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: هاأنذا أطعم هذا الشعب أفسنتينا وأسقيهم ماء العلقم. وأيديهم في أمم لم يعرفوها

(٥٠٢) الجملة هنا نالسة في المخطوطة.

هم ولا آباؤهم وأطلق وراءهم السيف حتى ألقينهم^(٥٠٣) (لذلك، هكذا قال رب الجنود عن الأنبياء: هأنذا أطعمهم أفسنتيننا وأسقيهم ماء العلقم لأنه من عند أنبياء اورشليم خرج نفاق في كل الأرض)^(٥٠٤) (وأرسل عليهم السيف والجوع والوبأ حتى يفنوا عن وجه الأرض التي أعطيتهم وآباءهم إياها)^(٥٠٥) كل تلك الأشياء التي تنبأ بها النبي حدثت، وليس أقل ولكن أسوأ.

لقد حدث خراب عظيم في بلاد الجنوب بسبب الجفاف الذي تحدثنا عنه فيما سبق، ثارت كل المنطقة الجنوبية والشرقية بسبب وحشية "موسى بن مصعب" واضطهاده، فقد قام سكانها بغزو بلاد ما بين النهرين، وامتلأت القرى والمدن والمنازل والحقول، لدرجة أننا لم نستطع المرور أو حتى الوقوف في مكان ما بسببهم. إن ذلك أدى إلى قسوة العذاب الذي حل على المساكين وعمال الجزيرة، لأنه لم يعط أحداً أى أجر، ولم يستخدموا أحداً منهم إذا عرض أن يعمل بثمن طعامه. كان منهم الكثير على قدر ما تتوقع، ولكنهم مع ذلك لم يكونوا يحصلون على الخبز المطلوب. كانوا يمرون حول المنازل رجالاً ونساءً وأطفالاً وكهولاً طوال اليوم دون توقف، وعندما يلاحظون في مكان ما باباً مفتوحاً يسرع إليه ثلاثون أو أربعون مرة واحدة. في البداية كان الجميع يحسنون إليهم، ولكن عندما تزايد حشد هؤلاء المساكين وهؤلاء الغرباء وهؤلاء الجياع توقف الناس عن العطاء، لأن الأهالي خافوا أن يعجزوا هم أنفسهم، وأن يصبحوا أكثر بؤساً من هؤلاء، بالإضافة إلى أن الحاكم عن طريق الفسح والسرقة نزع كل محصول الحقول وباعه...^(٥٠٦) إن الفقراء أنفسهم لم يسلّموا من المسلوئ، فبينهم شباب أصحاء صنعوا ملابس لأنفسهم كما لو كانوا مصابين بالجذام أو من ذوى العاهات

(٥٠٣) العهد القديم: إرميا ١: ١٦/١٥.

(٥٠٤) العهد القديم: إرميا ٢٣: ١٥.

(٥٠٥) العهد القديم: إرميا ٢٤: ١٠.

(٥٠٦) الجملة هنا ناقصة في المخطوطة.

أومن المكفوفين، وبجراحة ودون خوف كانوا يمرون منحنيين كالعجزة، وينقضون على الذى يمتنع عن إعطائهم ويضربونه حتى الموت. كان الرجل لا يبتعد عن الباب قبل أن يحصل على ما يطلبه، وبسبب لعنتهم كان الرجال يخشون أن يفتحوا أبوابهم.

إن الأثمين الذين كانوا يتصرفون هكذا كانوا يذهبون بعد ذلك إلى السوق يبيعون الخبز الذى شحوه ويشتررون لهم لحماً ونبيداً، فكان الأفراد عندما يرون ذلك يتوقفون عن مساعدة الفقراء، ولكنهم وقعوا فى أسى عظيم، لأن الأثمين المحرومين من الإنسانية، والذين كانوا يقومون بتلك الفظائع ويعتبرونها مهنة، هاجموا منازل كل المناطق وطواحينها. إن سكان مختلف مناطق الجزيرة اجتمعوا ودخلوا المدن بسبب المجاعة، باعوا كل خيراتهم ولم يقبل أحد أن يعيرهم، أكلوا لحماً ومواد لبنية طيلة الصوم، وبسبب بخس ثمن الماشية كنا نعطيهم لحماً حيثما كانوا، وعلى قدر ما كانوا يطلبون. فى عدة مناطق اشتدت تلك المجاعة على أهل البلد، بسبب كثرة الأجانب، لدرجة أنهم تعرضوا لجثث الموتى.

إن الأغراب الذين كانوا قد تركوا بلادهم بسبب المجاعة لكى لا يهلكوا كان السيف والطاعون قد سبقهم وصاحبهم وتبعهم حيثما ذهبوا، فأكلوا المر وشربوا الحقد، وتشتتوا وسط قوم لا يعرفونهم، فأرسل الرب خلفهم للسيف والأسر والمجاعة والطاعون حتى هلكوا (وأرسل عليهم السيف والجوع والوبأ حتى يفتنوا عن وجه الأرض التى أعطيتهم وآباءهم إياها).^(٥٠٧) لقد غرقوا فى ذلك العذاب طيلة فترة الشتاء، ولكن عندما حلت الأيام الأكثر دفئاً وبدأنا نرى العشب انفضوا على الحقول الخضراء، وتغذوا على طريقة الحيوانات.

(٥٠٧) العهد القديم: ليرميا ٢٤: ١٠.

كانوا يقطفون ما يحملونه ويذهبون إلى السوق ويبيعونه ليشتروا خبزاً، كان لونهم لون العشب الأخضر، لم يكونوا أبداً قد شبعوا كما كانت الحيوانات. ولقد نفذ فيهم ما قاله النبي: (أنت تأكل ولا تشبع وجوعك في جوفك، وتعزل ولا تنجى والذي تنجيه أدفعه إلى السيف)،^(٥٠٨) حدث ذلك الآن، كان هؤلاء يأكلون ولم يشبعوا أبداً. لقد وقعوا جميعهم في مرض الأمعاء، وامتلأت بهم الأروقة والأسواق وواجهات المتاجر والأبراج والمباني وكل الأماكن. ثم بعد ذلك استولت عليهم عدة أمراض، الخرايرج والبتور وآلام المعدة وآلام العين والحمى، دون ذكر أمراض أخرى مثل الجدري والحصبة وكثير غيرها لا نعرفها، كما أن للبواسير والاستسقاء كانت منتشرة جداً.

لقد سمعنا أنه يوجد في الموصل مرض يؤدي إلى ورم رأس المصابين به، ثم يسقطون فجأة ويموتون، لدرجة أنه كان الوقت لا يكفي لدفعهم. لقد نظرنا إلى ذلك على أنه أسطورة، ولكنه لم يتأخر في الحدوث عندنا. إن هذا الضرر انتشر شيئاً فشيئاً في مدن المنطقة السفلى حتى وصل إلينا، هكذا يتدرج المرض، كان أولاً يستحوذ على قمة الرأس، ثم يتقدم شيئاً فشيئاً حتى يصيب القلب، فيختل العقل وينطفئ نور العين، ويفقد الشخص وعيه ويظل دون حركة كالمت، يظل هكذا لأيام طويلة محروماً من كل معرفة إنسانية. إذا لم يكتب الرجل المصاب بهذا المرض وصيته منذ اليوم الأول أو الثاني للمرض فلن يكون من الممكن له أن يفعلها بعد ذلك، ولو حدث بعد ذلك أن استرد أحاسيسه ومقدرته على الكلام يجد نفسه أشبه بمن يستيقظ من نوم عميق، ولا يدري حتى أنه كان مريضاً إذا سمح له ضعف جسمه أن ينهض واقفاً.

(٥٠٨) العهد القديم: ميخا ٦: ١٤.

إن هذا الضرر كان يستولى على نفس للشخص أكثر من خمس مرات أو ست. كان البعض يزرع منذ الهجوم الأول أو الثانى، وكان البعض أيضا يصاب أكثر من خمس مرات، ومازالوا مأخوذين من الضرر. الكثير من الذين كانوا مصابين كانت تطفح فيهم خرايرج بيضاء، كانت تجف بعد يوم أو اثنين، ثم احمرار يختفى أيضا ثم تظهر بقع داكنة، وقد تحملنا كل ذلك العذاب لفترة طويلة، وكنا نظن أننا على وشك استرداد الصحة. إن الذى كان يهرب من ذلك الضرر كان يصاب بالبثور والجدري، كنا نرى أربعة أشخاص أو خمسة فى بلدة واحدة يعانون، وكل واحد منهم مصاب بمرض مختلف، لأن مرض كل واحد منهم لا يشبه مرض الآخر. كنا نجد الذى يتألم من البثور ومن المعدة ومن الخرايرج ومن البواسير، ومن هذا المرض الذى يؤدى إلى اضطراب القلب، وأحيانا كانت جميع تلك الأمراض تظهر مرة واحدة على نفس الشخص، وبعد أن يعانى من كل ذلك يسقط ميتا، لأن الجوع والظما كانا يعذبانه أكثر من تلك الأمراض. كانوا يتألمون فى الأروقة والمعابد والكنائس والأبراج والأسواق، كانوا مطمورين بالزبد ومكبلين بمختلف الأمراض، وغيرهم مدفوعين من عذاب الجوع يتجولون فى المدن. كانوا يقفون بجوار باب حوالى عشرة مكروبين أو عشرين أو ثلاثين دفعة واحدة، بعضهم بالبثور والبعض بالخرايرج والبعض يتألم من الأحشاء والبعض بأمراض أخرى. وبينما كل تلك الكوارث تحل بأجسامهم إذا بآلم الجوع والظما الوحشى يضطربهم إلى السير على أيديهم وأرجلهم ليطلبوا الخبز من كل مكان، وكان الذين يريدون تقديم الصدقة كانوا لا يكونون حتى لإعطاء من يأتون إلى أبوابهم، وبسبب كثرة الذين يذهبون إلى المنازل كان الذين يسيرون فى الشوارع يعانون من الجوع والظما (والشعب الذى يتنبأون له يكون مطروحا فى شوارع أورشليم من جَرَى الجوع والسيف وليس من يدفنه هم ونساؤهم وبنوهم وبناتهم وأسكب عليهم شرهم. وتقول لهم هذه الكلمة: لتذرف عيناى دموعا ليلا ونهارا ولا تكفأ لأن العزاء بنت شعبى

سُحِقت سحقا عظيما بضربة موجعة جدا. إذا خرجت إلى الحقل فإذا القتلَى
بالسيف وإذا دخلت المدينة فإذا المرضى بالجوع لأن النبی والکاهن کلّیهما
یطوفان فی الأرض ولا یعرفان شینا).^(٥٠٩)

وانتشر ذلك المرض فی البلاد وبدأ الأهالی یساقطون کالجراد، وكان
الناس یخشون دخول المدن، سواء من ظلم للملطة أو من الأمراض
والطاعون. لقد انقضوا على الرجال، وهاجموا الطرقات ونهبوا المارین، لقد
هجموا علیهم ونهبوهم وسلبوهم وقتلوهم، لیس سعیا وراء الذهب والمال
ولکن من أجل لقمة العیش، لدرجة أن كثيرا من الرجال قتلوا لأن أحدهم كان
یحمل دقیقا أو قمحا وهو ذاهب إلى أهله، وذلك بسبب قفیز واحد أو
خمسة...^(٥١٠) كانوا یسکبون دم رجل دون رحمة.

لقد تجرأت مناطق بأكملها فی مهاجمة مناطق ونهبها، ومناطق أخرى
قطعت فیها الطرقات على عابری السبیل. إن لون هؤلاء الأهالی عندما
تركوا بلادهم كان مثل العشب الأخضر، كانوا یبیعون ثمرة عملهم لیقتنوا
الخبز، كانوا یأكلون دون حد، وبعد فترة قصيرة یسقطون على باب الموت.
أحيانا بینما كان أحدهم بمسك للخبز فی يده ویأكل یتحول إلى اللون الأسود،
ویلتوی إلى الخلف ویسقط ویلفظ أنفاسه. إن هذا قد حدث لکثیر من بینهم،
بدأوا یموتون بأعداد کبيرة، لدرجة أن الرجال لم یتمکنوا من دفنهم طيلة
الیوم. إن الرب لم یهجر الفقراء، فقد امتکت رحمته وشفقته إلیهم. لقد تمکن
منهم ذلك المرض الذی سقط الأولون فیہ، لدرجة أن الشوارع وكل الأماكن
كانت موبوءة، لذلك فی تلك اللحظة حیث كان الأهالی لا یزالون یمتلكون
بعض الشیء كان کل واحد یعتنى بهم وفقا لوسائله، فمن كان منهم یموت
كان یدفن بتکریم. كان الأهالی یحضرون نعوشا وأكفانا، وكسوهم وأوصلوهم

(٥٠٩) العهد القديم: یرمیا ١٤: ١٨/١٧.

(٥١٠) هنا كلمة ناقصة فی المخطوطة.

ووضعوهم فى مقابرهم الخاصة، وسط فرقة من الخدم والمزامير كما هو لائق بالمسيحيين. وجمعوا أيضا الذين تلقوا صفعات، وكانوا يتسكعون فى الشوارع مكبلين بالمرض والجوع والظما، فأدخلوهم فى مبنى كبير حيث عينوا البعض لخدمتهم، كان كل واحد يأخذهم ويحملهم حسب قوته.

ولكن عندما انتشرت الكارثة فى البلدة أصبح الجميع على السواء فى الحاجة، فالذين كانوا أغنياء أصبحوا شحاثين (الذين كانوا يأكلون المأكـل الفاخرة قد هلكوا فى الشوارع، الذين كانوا يتربون على القرمز احتضنوا المزابل).^(٥١١) إن نفس النـبى إرميا أضاف: (صارت صورتهم أشد ظلاما من السواد، لم يعرفوا فى الشوارع، لصق جلدهم بعظـمهم، صار يابسـا كالخشب. كانت قتلى السيف خيرا من قتلى الجوع، لأن هؤلاء يذوبون مطعونين لعدم أثمار الحقل).^(٥١٢)

هكذا كان حال هؤلاء الذين أدركتهم تلك الأمراض، لأنهم حملوا من الشوارع ودفنوا، لقد استولت الكارثة أيضا على أبناء نبلاء المدن، وسقطوا جميعا مرة واحدة، كبيرا وصغيرا، أطفالا وشيوخا، شبابا وشابات، لدرجة أنك لو دخلت عشرين منزلا كنت تجد بصعوبة رجلا يستطيع أن يقدم ماء لجاره. كان الجميع راقيدين كالأموات غير قادرين على التمييز بين الخير والشر.

بالمثل، كما قلنا فيما سبق، لم يكن هناك منزل لا يوجد فيه أموات، بالمثل يمكن القول هنا لم يوجد ولا حتى منزل واحد فيه مرضى. ويمكن أن نضيف مع إرميا (لصق لسان الرضيع بحنكه من العطش، الأطفال يسألون خبزا وليس من يكسره لهم).^(٥١٣) فى الواقع إذا حدث أن بقى هناك فى

(٥١١) العهد القديم: مراثى إرميا ٤ : ٥

(٥١٢) العهد القديم: مراثى إرميا ٤ : ٩/٨.

(٥١٣) العهد القديم: مراثى إرميا ٤ : ٤.

منزل شخص أو اثنان لم يصيبهم المرض كانوا يتألمون هم أيضا من الجوع أكثر من المرض، لأنه لم يوجد هناك من يعمل لهم ويخبز الخبز. الذين كانوا يتأوهون من مختلف الأمراض يتألمون أيضا من الجوع والظما، لأن الناس كانوا في حالة إعياء شديد لا تمكنهم من القيام وتقديم الماء للآخرين.

اشتدت الأزمة وبدأ الطاعون يتفشى فيما بينهم، لدرجة أننا كنا ندفن في يوم واحد شخصين أو ثلاثة من نفس المنزل. كنا نحمل مرة واحدة في نفس النعش الأم وابنتها أو الأب وابنه أو الأخوين معا. لقد دفن أخوان في نفس الوقت، أحدهما في جانب من المدينة والآخر في الجانب الثاني، أحضرنا نعشيهما وجمعناهما معا وأوصلناهما إلى المقبرة ووضعناهما الواحد فوق الآخر، وأحيانا في نفس اللحظة يحدث أن أهاليهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة. اشتد المرض على النبلاء وعلى رؤساء العائلات، وكل كهنة كنيسة أمد سقطوا في هذا الطاعون.

بدأت الآفة تنتشر شيئا فشيئا وتخرج من المدن لتغزو ضواحيها وقراها، وما حدث في المدن حدث في الخارج. هنا نفذ قول إشعياء: (انهضى انهضى قومي يا أورشليم التي شربت من يد الرب كأس غضبه ثفل كأس الترنج شربت مصنعت. ليس لها من يقودها من جميع البنين الذين ولدتهم وليس من يمسك بيدها من جميع البنين الذين ربّتهم. اثنان هما ملاقيك، من يرثى لك، الخراب والانسحاق والجوع والسيف، بمن أعزيك؟. بنوك قد أعيوا اضطجعوا في رأس كل زقاق كالوعل في شبكة، الملائون من غضب الرب من زجرة إلهك).^(٥١٤)

كان لون الرجال الذين هربوا من هذا المرض في الواقع مثل لون السلق الذابل من الصقيع، كانوا جميعا صلعا لدرجة أننا لم نتمكن من التفرقة

(٥١٤) العهد القديم: إشعياء ٥١ : ١٧/١٨/١٩. ٢٠.

بين الراهب والأسقف إلا عن طريق ملابسهم، لم نستطع التمييز بين الأسقف وبين الدنيوى لأنهم كانوا على السواء حالقين. إن السمع والبصر قد ضعفا ولم يقويا إلا بعد فترة طويلة، طوال فترة الصيف اشتد المرض.

عندما حل موسم الحصاد فى "بيت عربايا" اجتمع كل شعب المنطقة الشمالية، حتى الأجانب اجتمعوا، ليذهبوا للحصاد بثمن لقمتهم فقط، وقد ذهب أيضا النساء والعمال. إنها عادة شعب الشمال أن يذهب الشبان للحصاد، ولكن فى تلك الفترة المسنون والعمال والنساء والأطفال ذهبوا، بسبب الكارثة الكبرى التى حلت بهم، فمنذ أن ذهبوا وأكلوا حتى الشبع سقط جميعهم فى مختلف الأمراض، لدرجة أن الطرقات والشوارع المنحدرة والأراضى المرتفعة والمنخفضة كانت مكدسة بهم، فى المدينة والقرى وفى كل مكان كانوا يسقطون كالجراد.

ولم يكن هناك أى أجر لهم إلا الخبز اللازم. نقول إن الكثيرين كانوا يذهبون إلى الحقول، وبمجرد أن يأكلوا ويشبعوا يسقطون أمواتا، لدرجة أنهم كانوا يخرجون عشرين ويعودون خمسة. عندما علم ذلك أصحاب الحصاد لم يدخلوا إلى حقولهم، إلا الذين كانت لهم هيئة جيدة وبنية سليمة. كانوا يعطونهم خمسة أوبولات أجرا يوميا أو عشرة على الأكثر. هكذا كان الرجال يجنون محصولهم الذى كان وفيرا دون رحمة بهؤلاء المساكين، كانوا لا يعطونهم حتى الخبز الجاف للشبع، ليس بسبب الجذب ولكن بسبب سوء نيتهم. سنشير أيضا إلى الأضرار التى سببها الرجال، وانتهاك حرمان المقابر وسلب الموتى.

عن انتهاك حرمت المقابر، وعن سلب الموتى

إن النبی إرمیا قد تتباً بانقلاب المقابر، لقد تحدث عن تشتيت عظامهم كالزبل على الأرض ولا تجد هناك من یجمعها. كانوا كالزبل على سطح الأرض، عن هذا الزمن قال الرب: (فی تلك الزمان، يقول الرب: یدخرجون عظام ملوك یهوذا وعظام رؤسائه وعظام الكهنة وعظام الأنبياء وعظام سكان أورشليم من قبورهم. ویبسطونها للشمس وللqمر ولكل جنود السموات التي أحبوها والتي عبدوها والتي ساروا وراءها والتي استشاروها والتي سجدوا لها، لا تجمع ولا تدفن بل تكون دمنة على وجه الأرض).^(٥١٥) لقد هاجمنا الشیطان بسبب سیناتنا التي تعد أكثر من القرون والأزمنة والأعداد الكبيرة، وقد عملوا ما قد تحملناه هذا.

لقد أعدوا الرجال ولقوا بعظامهم دون رحمة خارج المقابر كما یسحب رجل حجرة من المنزل ویلقى بها فی الخارج، هكذا كانوا یسحبون ویلقون بعظامهم خارج مقابرهم، كانوا لا یبالون أبداً بوضعهم فی أماكنهم عندما كانوا یفقدون فیهم انتقامهم وجشعهم. إذا وجد رجال صالحون ویخشون الرب یلومونهم بسبب هذا المكر وهذا الظلم وهذا الإلحاد كانوا یقولون: "ما هو الضرر الذي نفعله؟" أو "من أين نأخذ لنعطی الضريبة؟" عندما كنا نسألهم: "هل تجدون شیئاً؟" كانوا یجیبون على الفور موافقين بأقوال الشیطان والدم ورئیسهم: "إننا وجدنا". وعندما كنا نستجوب أحدهم: "أنت نفسك ماذا وجدت؟" كان یقول: "أنا لم أجد حتى الآن شیئاً، ولكن فلاناً وجد كذا وكذا أقرطاً وأحزمة وعقوداً من ذهب، وفی تلك البلدة قد أخذنا كذا من الذهب والفضة". لقد علمه الشیطان أن یقول تلك الأقوال الباطلة بسبب الخزی. عندما كنا نسأل الذي ادعى علیه أنه قام باكتشافات كان لكتشافه إما قرطاً من

(٥١٥) المید القديم: إرمیا ٨: ٢/١.

نحاس أو حزاماً من حديد. تلك كانت اكتشافاتهم، ولكن الشيطان عن طريق أعوانه ادعى لهم المعجزات بالألوف والملايين، حتى تضامن معه الجميع في هذا الإلحاد، لقد أعطاهم جهنم مكافأة.

ولما كانت الأجيال الماضية المختلفة قد قاومتها، ولم يتمكن من ممارسة خططه عليهم أثناء حياتهم، فإن أنصاره استجابوا له ونفذوا الآن رغباته بتشتيت عظامهم. إن عدو كل الخير قد استخف بنا وبأبنائنا، استخف بهم لأن عظامهم قد تبعثرت، وبنا لأننا نفذنا هذا العمل بأيدينا، وبالمثل هؤلاء قد تعرضوا للعديد من الكوارث، من أمراض مختلفة حلت على الناس، وتحققت أقوال الكتاب المقدس التي نقول إنه عند فتح المقابر ستغزو البلاد العديد من الأوبئة.

وبسبب الحرية الكبيرة التي نالها الرجال بانتهاك حرمة المقابر فإنهم قد قاموا بنهب الأموات المدفونين حديثاً، لدرجة أنهم عندما كان الذين يقومون بالدفن يدفنون ميتاً ويرجعون ليأخذوا جاره كانوا يجدون أن الأول قد نهب، وكذلك كانوا ينهبون مقابر العرب واليهود. عندما كانوا ينهبون ميتاً كانوا يدفنونونه مرة أخرى لكي لا نلاحظ ذلك، أو يتركونه عارياً ملقى على وجهه ويذهبون بمجرد أن يلاحظ الناس ذلك، سواء لأنهم باغتوا بعض منتهكى حرمة المقابر، أو لأنهم وجدوا حاجيات الموتى عندهم. لذلك لم يكن الميت الذي يدفن يترك دون حارس ليلاً أو نهاراً حتى تتعفن جثته. كانوا يغطونه بالجبس حتى تتسوس عظامه، حتى الملابس القيمة التي كانوا يلفونه بها طلوها بزيوت الأرز. لهذا السبب كان هناك كثير من السهارى وسط مدافن السوريين والعرب واليهود، لأنهم لم يكونوا يتركون ميتاً دون حراس قبل أن تتعفن وتتحلل جثته. لم يراع هؤلاء الأثمون واللصوص حتى المساكين المدفونين في قميص ممزق أو ثوب مهلهل.

إننا نجد ذلك مذكورا عن انتهاك حرمت المقابر، ولكن ليس عن نهب الموتى. والآن نجد أننا قد تفوقنا بكفرنا وظلمنا على كل الشرور المذكورة وغير المذكورة في الكتب المقدسة، فلنتعرف إذن بالطبيعة التي لا تقدر والتي لا تفهم للرب إزاء هؤلاء الأولاد الضالين الذين تحملوا خطايانا وكثرة سيئاتنا.

عن الطاعون وما سببه من دمار، وعن الحيوانات المفترسة التي ظهرت بعد ذلك

بعد أن سقطنا في كل ذلك الكفر، وفي كل ذلك الظلم البغيض من كذب ونهب وسلب ونميمة، ومن اغتياب ومن لصوصية ومن زنا ومن سرقة ومن شهادة زور ومن قتل، بدأت المصائب تحيط بنا من كل جانب. لم نقم بالتوبة ولم نتوجه إلى الرب، ولكننا حركنا الموتى النائمين من أماكنهم، لذلك تحول الرب نحواصلنا. لقد هجرنا الرب وأصبحت كل الأضرار تحيط بنا كما قال النبي: (أجمع عليهم شرورا وتنفذ سهامي فيهم. إذ هم خاؤون من جوع ومنهوكون من حمى وداء سام أرسل فيهم أنياب الوحوش مع حمة زواحف الأرض. من خارج السيف يتكل ومن داخل الخنور الرعبة الفتى مع الفتاة والرضيع مع الأثيب)،^(٥١٦) وقد قال إشعيا أيضا: (تترك معالجوارح الجبال ولوحوش الأرض فتصيف عليها الجوارح وتشتى عليها جميع وحوش الأرض).^(٥١٧) وقال حبقوق: (قد شبت خزيا عوضا عن المجد، فاشرب أنت أيضا واكشف غرلتك! تدور إليك كأس يمين الرب وقياء الخزي على مجدك. لأن ظلم لبنان يغطي بك واغتصاب البهائم الذي روعها لأجل دماء الناس وظلم الأرض والمدينة وجميع الساكنين فيها).^(٥١٨) وقد قال القديس

(٥١٦) العهد القديم: التثنية ٣٢: ٢٣/٢٤/٢٥.

(٥١٧) العهد القديم: إشعيا ١٨: ٦.

(٥١٨) العهد القديم: حبقوق ٢: ١٧/١٦.

إرميا أيضا: (ثم قال الرب لى: وإن وقف موسى وصموئيل أمامى لا تكون نفسى نحو هذا الشعب أطرحهم من أمامى فيخرجوا. ويكون إذا قالوا لك: إلى أين تخرج؟ أنك تقول لهم: هكذا قال الرب، للذين للموت فبالى الموت والذين للسيف فبالى السيف والذين للجوع فبالى الجوع والذين للسبى فبالى السبى. وأوكل عليهم أربعة أنواع، يقول الرب: السيف للقتل والكلاب للسحب وطيور السماء ووحوش الأرض للأكل والإهلاك. وأدفعهم للقتل فى كل ممالك الأرض من أجل متئسى بن حزقيا ملك يهوذا من أجل ما صنع فى أورشليم).^(٥١٩) ويقول: (إذا خرجت إلى الحقل فإذا القلتى بالسيف، وإذا دخلت المدينة فإذا المرضى بالجوع لأن النبى والكاهن كليهما يطوفان فى الأرض ولا يعرفان شيئا).^(٥٢٠)

عندما عظمت المّدائد بسبب الحاكم، وحلت الفاقة والمجاعة والطاعون ومختلف الأمراض على البشر، قاموا بترك منازلهم وأقاموا فى الجبال والأودية. هناك هلكوا كالجراد من الجوع ومن الطاعون ومن البرد، واقتربتهم الطيور والحيوانات ولم يجدوا أحدا يدفنهم.

استفحل هذا الطاعون فى البقاع السفلى وخربت كل تلك المنطقة، حتى إن بعض المناطق التى كان يوجد بها أربعون شخصا أو خمسون، فرغت من سكانها. فى الموصل كنا نخرج من البلدة أكثر من ألف نعل يوميا، وفى منطقة نصيبين^(٥٢١) دمرت كثير من القرى المهمة بأكملها، مات كل عظماء

(٥١٩) العهد القديم: إرميا ١٥: ٤/٣/٢/١.

(٥٢٠) العهد القديم: إرميا ١٤: ١٨.

(٥٢١) نصيبين بلدة تقع داخل الحدود التى ضمت إلى روما عام ٢٩٨، فلما أصبحت حينئذ من مدن الحدود، وكانت متحكمة فى الطريق الرئيسى بين أعلى العراق ودمشق، حصنها الرومان تحصينا قويا. ربما كان بها مسيحيون فى ذلك الوقت كما كانوا فى أماكن أخرى كثيرة فى العراق، وبعد بضع سنين عام ٣٠١/٣٠٠ اعتبرت مقرا لكرسى الأسقفية، فكان أول أسقفها 'بابو' وخلفه 'يقوب'، وكان بالمدينة كثير من اليهود أيضا، وكلفت لهم بها مدرسة. (سلك الثقافة الإغريقية فى الغرب ص ١٨٦)

البقاع. إن هذا الوباء قد أهلك بالأخص أساقفة المدن والقرى، ففي دير
قرتمين هلك بسبب ذلك الوباء خمسة وتسعون شخصاً من البارزين، وفي دير
القديس صليبا^(٥٢٢) مات كل العظماء، وتحولت حقول البلدان والساحات
الواسعة للمدن إلى صحراء.

بعد ذلك الوباء ظهرت بعض الحيوانات المتوحشة، والتي لم تكن
تخشى أحداً، فلم تكن تهرب من أمام الرجال ولا تخشاهم، وأهلك الكثيرين.
كانت تلك الحيوانات قريبة المشبه بالذئب، ولكنها تختلف عنه في أن وجهها
كان صغيراً وطويلاً ولها أذنان كبيرتان كالخيل، وشعرها المنتشر على
العمود الفقري كان يشبه شعر الخنزير، وكان طويلاً ومتجهاً إلى أعلى.
اقتربت تلك الحيوانات للكثير من الأذى بين أهالي طور عابدين. لقد قيل إنها
افترست في بعض البلدان أكثر من مائة شخص، وفي كثير غيرها عشرين
أو أربعين أو خمسين. لم يستطع الرجال عمل شيء ضد هذه الحيوانات التي
لم تكن تخشى أحداً، فإذا صانف وطارد بعض الرجال أحدها فإنه لم يكن
يهرب من أمامهم، ولكنه كان يهاجمهم فيلقون بأسلحتهم وينقض عليهم
ويمزقهم إربا. كانت الحيوانات تدخل المنازل والساحات وتحمل الأطفال
وتخرج دون أن يتصدى لها أحد. كانت تصعد ليلاً فوق الأسطح وتحمل
الأطفال من منازلهم وفراشهم وتنزل دون أن يتعرض لها أحد. حتى الكلاب
نفسها لم تكن تتج عليها، ولهذا السبب تحملت المنطقة كلها محنة مرة وأكثر
قسوة من تلك التي كانت قد تحملتها من قبل. لم يكن رجالاً أو ثلاثة
يستطيعون أن يسيروا سوياً. لم نعد نرى ماشية في تلك البلدة، لأنها أبيدت
كلها. في الواقع عندما كان أحد تلك الحيوانات المتوحشة يهاجم قطيعاً من
الماعز أو الغنم فإنه يقضى على الكثير منها.

(٥٢٢) دير القديس صليبا أو دير الصليب: يوجد كثير من الأديرة بهذا الاسم، وربما كان أحدهم الذي ورد
اسمه هنا هو الذي يقع بالقرب من "هاج" في طور عابدين. (ابن العبري: التاريخ الكنسي ج ١
ص ٥٦٩/ ج ٢ ص ٥٢٢)

وماذا يمكن القول بخصوص تلك الكارثة الرهيبة غير أنها مرسلة من قبل الرب؟ لأنه واضح للكافة أنها استمدت قوتها من الرب، ما دامت الكلاب والرجال لم يتمكنوا من إلحاق الأذى بأى واحد منها. لقد قال: (أجمع عليهم شرورا وأنفذ سهامى فيهم).^(٥٢٣) تلك هى العقوبات التى حلت بنا: جزية بلا رحمة، والهروب من مكان إلى آخر، وها هى أيضا المجاعة، والوباء، ومختلف الأمراض، وها هو النهب، والسلب المتبادل بين المدن المجاورة.

فى ذلك العام لم تهاك فقط الماشية، ولكن وجدنا أيضا الطيور الكاسرة تنهش جثث الرجال الرافدين دون تابوت، بالإضافة إلى كل ذلك ها هى الحيوانات المفترسة التى التقرفت كثيرا من الأذى فى كل بلدة. لقد مرت تلك الحيوانات فى بلدة أرزون وكذلك فى منطقة ميفارقاوط وعلى جبل "صهيا"، كما سببت بعض الخسائر فى آمد.

(من أجل ذلك حمى غضب الرب على شعبه ومد يده عليه وضربه حتى ارتعدت الجبال وصارت جثثهم كالزبل فى الأثرقة، مع كل هذا لم يرتد غضبه بل يده ممدودة بعد)،^(٥٢٤) وذلك لو لم يكن قد رفع صولجانه، فيكون هذا لأننا لم نتب عن آثامنا، ولكننا قد أضفنا إليها، وفى مرات كثيرة قد ضاعفناها، لدرجة أن آثامنا قد توالى دون توقف، وقد مد الرب يده مرة أخرى من أجل إصلاحنا...^(٥٢٥)

لقد قبضوا أيضا على العرب والسوريين بسبب الميراث، وأهانوهم بوحشية وبمرارة، وكانوا لا يعترفون أبدا بالقرابة وفقا لما هو مكتوب فى قانون الملوك بخصوص الورثة، ما عدا الابن الذى كان ممكنا أن يكون وريثا لأبيه والأب لابنه والعلم لابن شقيقه وابن للشقيق لعمه.

(٥٢٣) العهد القديم: التثنية ٣٢: ٢٣.

(٥٢٤) العهد القديم: إشعياء ٥: ٢٥.

(٥٢٥) بعض من أوراق المخطوطة مفقود هنا.

كنا نهرب بصعوبة من تلك الحيوانات المفترسة. لقد قال النبي يونس:
(إذ قد سعدت على أرضى أمة قوية بلا عدد أسنانها وأسنان الأسد ولها
أضراس اللبوة. جعلت كرمى خربة وتينتى متهشمة، قد قشرتها وطرحتها
فأبيضت قضبانها). (٥٢٦)

... (٥٢٧)

عن وفاة أمير آمد

إن الوقت قد طال بنا لنزوى المصائب التي حلت على آمد فسى ذلك
العام، لأنها قد تحملت تلك الكارثة أكثر من البلاد الأخرى. ولما كان
الاضطراب لا يزال فى البداية ولم ينته بعد فساتحدث عن بداية الأفة.
سنحضر القديس إشعيا لأنه قد رأى مقدما تلك المصائب، وهو أكثر بلاغة
منا، ومعه رفيقه إرميا: (لايقوم شاهد واحد على إنسان فى ذنب ما أو خطية
ما من جميع الخطايا التي يحظى بها، على فم شاهدين أو على فم ثلاثة
شهود يقوم الأمر)، (يا ملأنة من الجلبة المدينة العجاجة القوية
المفتخرة؟ قتلاك ليس هم قتلى السيف ولاموتى الحرب . جميع رؤسائك
هربوا معا، أسروا بالقسى، كل الموجودين بك أسروا معا، من بعيد فروا.
لذلك قلت: اقتصروا عنى فأكبى بمرارة، لا تلحوا بتعزيتى عن خراب بنت
شعبى. إن للسيد رب الجنود فى وادى الرؤيا يوم شغب ودوس وارتباك،
نقب سور وصراخ إلى الجبل. ودعا السيد رب الجنود فى ذلك اليوم إلى
البكاء والنوح والقرعة والتنطق بالمسح). (٥٢٩)

(٥٢٦) العهد القديم: يونس ١ : ٧/٦.

(٥٢٧) هنا فقرة مفقودة فى المخطوطة.

(٥٢٨) العهد القديم: التثنية ١٩ : ١٥.

(٥٢٩) العهد القديم: إشعيا ٢٢ : ٣/٢/٥/١٢.

جاء أيضا النبي إرميا "الذى كانت أقواله أفضل من أى واحد آخر" تعبر عن الألم والنواح (من مفرج عنى الحزن؟ قلبى فسى سقيم. هو ذا صوت استغاثة بنت شعبي من أرض بعيدة: أَلْعَلَّ للرب ليس فى صهيون أو ملكها ليس فيها؟ لماذا أغاظونى بمنحوتاتهم بأباطيل غريبة؟. من أجل سحق بنت شعبي اتسحفت، حزنت، أخذتلى دهشة. أليس بَلَسَانٌ فى جلعاد أم ليس هناك طبيب؟ فلماذا لم تُعْصِب بنت شعبي؟)، (٥٢٠) (باليث رأسى ماء وعينى ينبوع دموع فلُبِكى نهرا وليلا قَتَلتى بنت شعبي. ياليت لى فى البرية مبيت مسافرين فأتارك شعبي وأطلق من عندهم لأنهم جميعا زناة جماعة خائبين. يمدون ألسنتهم كقسيهم للكذب، لا للحق قووا فى الأرض، لأنهم خرجوا من شر إلى شر وإياى لم يعرفوا، يقول الرب). (٥٢١) تلك المصائب وأفظع منها تضاعفت تلك السنة على آمد بلدة الجزيرة، بسبب فعل هذا الحاكم الظالم والطاغية الذى كان قد جاء.

حدث أن جاء حاكم أصله من الرقة، ويدعى "مبدول"، كان رجلاً كافراً بخيلاً، ولا يبالى أبداً بالرب فى تصرفاته. هكذا...، (٥٢٢) هذا المبدول كان الرجال لا يستطيعون المرور أو الاقتراب من ضواحي (منزله) بسبب رائحة العفونة النفاذة التى كانت تهب من هذا المنزل وتنتشر على البعد، وإذا أُجبر أحد أن يذهب إلى هذا البيت لأنه كان يوجد هناك أحد له، بظل منزعا من تلك الرائحة لمدة يوم أو يومين.

هنا يجب أن نقول مع النبي إشعياء: (فأصابت يدي ثروة الشعوب كعش وكما يجمع بيض مهجور جمعت أنا كل الأرض ولم يكن مرفرف جناح ولا فاتح فم ولا مصفصف) (٥٢٣) إن للعرب والسوريين، الكبار

(٥٢٠) العهد القديم: إرميا ٨: ٢٢/٢١/١٩/١٨.

(٥٢١) العهد القديم: إرميا ٩: ٣/٢/١.

(٥٢٢) هنا ورقة أو أكثر مفقودة من المخطوطة.

(٥٢٣) العهد القديم: إشعياء ١٠: ١٤.

والصغار، أصحاب البلد والأجانب، تجمعوا دون أن يوجد أحد ليخفق جناحه ويفتح فمه ويتكلم، فليات النبي داود أيضا وليزّ المعبد المقدس مدنسًا وقد أصبح مكانًا قذرًا مثل معبد بعل الذي هدمه جدعون (اللهم إن الأمم قد دخلوا ميراثك، نجسوا هيكل قدسك، جعلوا أورشليم أكلوا).^(٥٣٤) وقال إشعياء: (لذلك لعنة أكلت الأرض وعوقب الساكنون فيها، لذلك احترق سكان الأرض وبقي أناس قلائل)،^(٥٣٥) (ناحت ذبلت الأرض، حزنت ذبلت المسكونة، حزن مرتفعو شعب الأرض)،^(٥٣٦) (فإن جميع المواعيد امتلأت قينا وقذرا، ليس مكان)^(٥٣٧) لقد قال لهم النبي متحدًا باسم الرب: (الذين قال لهم: هذه هي الراحة، أريحوا الرزح وهذا هو، السكون، ولكن لم يشاءوا أن يسمعوا. فكان لهم قول الرب: أمرا على أمر، أمرا على أمر، فرضا على فرض، فرضا على فرض...)^(٥٣٨) كنا نستطيع أن نرى هنا قاذوراتهم وقبائحهم، وكانت مواعيدهم مغطاة من كل جانب بالقاذورات.

أى دموع وأى آلام يمكن أن تكفى عندما نرى رجالا نبلاء ومحترمين يأخذون الخبز في أيديهم ليأكلوا، وأمامهم الزبل يتركم بعضه فوق بعض، بينما آخرون خرجوا من قبل بسبب الازدحام من هذا المكان. بخصوص هذه المواضيع قال النبي يوشيا وكتب: (تنطقوا ونوحوا أيها الكهنة، ولولوا يا خدام المذبح، ادخلوا بيتوا بالمسوح يا خدام إلهي لأنه قد امتنع عن بيت إلهكم التقديم والسكيب)،^(٥٣٩) ولكن لأن الكنيسة قد نبذها وهجرها الرب وألقى بها في أيدي الأعراب.

(٥٣٤) العهد القديم: المزامير ٧٩: ١.

(٥٣٥) العهد القديم: إشعياء ٢٤: ٦.

(٥٣٦) العهد القديم: إشعياء ٢٤: ٤.

(٥٣٧) العهد القديم: إشعياء ٢٨: ٨.

(٥٣٨) العهد القديم: إشعياء ٢٨: ١٢/١٣.

(٥٣٩) العهد القديم: يوشيا ١: ١٣.

بينما كان الرجال غارقين في هذا البؤس الكبير أخذ هذا الكافر الكتاب الذي كتب في أول العام على هيئة تعديل، إن أى فرد لم يكن مسجلاً أو مختوماً على يديه تفرض عليه غرامة قدرها ٤٨ زوزاً، وتصل إلى ستين أو خمس وثلاثين أو خمس وعشرين أو خمسة عشر، وبذلك أخرج الكثيرين، ولكن الفقراء والمعوزين ظلوا في السجن يقاسون من الجوع ومن تلك الرائحة العفنة.

لقد قبض على النبلاء بدلاً من أولادهم وإخوانهم وأهاليهم الذين لم يكونوا مسجلين في هذا الدفتر المفصل، وفرض عليهم غرامة، وقد قبض أيضاً على الذين كانوا مسجلين وسبب لهم خسائر فادحة. لقد اختار رجالاً سكارى وفاسقين يعاونونه، كانوا يبحثون عن الكبير والصغير ويسلمونهم له، حتى إنه لم يفلت أحداً دون أن يجبر على الدفع سواء عن نفسه أو عن أهله دون أى منازعات.

لقد احتجز مرة أخرى سكان المنطقة، وأجبرهم على أن يتعاملوا معه، وبسبب هذا الموضوع كانت هناك نزاعات كثيرة. ضرب رؤساءهم إلى حد الموت، وسلب ونهب كل فرد وفقاً لرغبته الخاصة، دون أن يجد من يلومه أو يسأله "ماذا تفعل؟" لم يكن هناك صدق أو إخلاص فى معاونيه، فقد قبضوا على أهالى المدينة، وبعد أن عاهدوهم وأولادهم وإخوانهم وأهاليهم على متوسط ألفى دينار، وبعد أن تسلموها لم يتوقفوا عن أعمالهم الشريرة، بل فرضوا عليهم الغرامات، وأوجدوا لهم مشكلات من كل نوع، فخرجوا إلى الطرقات والشوارع. وعندما قبضوا على المرابين أو الذين لم يكونوا قد نهبوا من قبل أخذوا كل ما كان معهم. إن الرب فى رحمته عمل على أن تكون تلك الكارثة فى شهر أيار (مايو)، ومنذ ذلك الوقت اختبأ الرجال فى الجبال مثل اليمامة فى التجويفات. لم يعد هناك على الطرقات لا رائحة ولا غاد، لأن هذا الاضطهاد امتد إلى كل مكان. هلك الناس من الجوع، وكانوا

يخشون دخول المدينة أو البلدة إذا حدث أن كان أحدهم يملك شيئا يمكن بيعه، ولشراء خبز كانوا يحضرون معهم زوجاتهم، وبمجرد لقترابهم من المدينة كانوا يرسلون زوجاتهم إلى البلدة، أما هم فيختبئون في الحقول يتألمون من شدة الجوع، منتظرين عودة الذين أرسلوهم، بعضهم يومين وآخرون ثلاثة أيام وغيرهم أربعة، بل قد يمتد أحيانا من يوم الأحد إلى الأحد التالي. كانوا يظنون مكسسين مثل الحمام في المقابر والحقول يعذبهم الجوع، وأحيانا كانت الزوجة تعود خاوية الوفاض. الآن نستطيع أن نقول: (من خارج السيف يتكل ومن داخل الخدور الرعبة، الفتى مع الفتاة والرضيع مع الأشيب).^(٥٤٠)

اشتد الفزع أيضا على أهالي تلا والرها وحران. لقد قال النبي في الواقع: (فقال لي: هذه هي اللغة الخارجة على وجه كل الأرض، لأن كل سارق يباد من هنا بحسبها وكل حالف يباد من هناك بحسبها).^(٥٤١) عندما وصلت هذه الكارثة إلى نصيبين، ورأى أهلها أن عليهم ضرائب قاسية، وأنه يقبض على الغادى والرائح، وأنهم انقضوا فوراً على المزارع، اجتمع نبلاء البلدة وذهبوا للقاء موسى وحاولوا أن يقنعوه أن يعقد معهم اتفاقاً ولكنه رفض. طلبوا منه استرداد الضرائب الخارجية التي فرضها عليهم أعوانه، وأن يمنع تلك الكلاب المتوحشة من دخول البلدة، فلم يلب لهم ذلك، وقبض عليهم وألقى بهم في السجن في الموصل، وظلوا مكبلين بالأغلال. لقد أقسم بحياته أنه طوال احتفاظه بسلطته لن يخرجوا من السجن. تشفع لهم الكثيرون ولكن دون جدوى، وظلوا في السجن حتى خلصهم للرب ولقى الطاغية العقاب الذي يستحقه.

أن الألوان الآن أن نتحول عن تلك الكارثة إلى كارثة أخرى.

(٥٤٠) العهد القديم: لشمثية ٣٢: ٢٥.

(٥٤١) العهد القديم: زكريا ٥: ٣.

عن أمراء مكلفين للمعشر، وعن أمراء مكلفين للصافي

سأحدث عن الثعبان الذي نشأ من تلك الأفعى، والثمار المكروهة التي بعثرها علينا.

إن ما كانت ترسله تلك الأفعى على البلاد كان أسوأ من الثعبان، فقد جاءوا ودخلوا المدينة وأحصوا دون رحمة كل ما كان يملكه الأهالي. لو كان هناك رجل لا يملك قمحا ولا شعيرا ولكنه يشتري من السوق لياكل كانوا يسجلون له ألف جريب، ولآخر ألفين ولآخر خمسة آلاف ولآخر عشرة، وحتى أربعين ألف جريب أو خمسين ألف، دون أن يدخلوا منزل كل واحد ليروا ماذا يملك. كانوا يسجلون ما يملكه الشيطان عليهم، وفعلوا نفس الشيء بالنسبة لأصحاب المتاجر وتجار الغلال وتجار الزيوت، وتجار كل نوع موجود في الأسواق. كانوا يفرضون عليهم الضريبة دون رحمة، ويطالبونهم بها، لدرجة أن الواحد لو باع كل ما يملك في متجره فإنه لا يحصل على أكثر من نصف المطلوب منه.

إنه هنا الذي نستطيع أن نقول: (فضلة القمص أكلها الزحاف وفضلة الزحاف أكلها الغوغاء وفضلة الغوغاء أكلها الطيار)،^(٥٤٢) وهكذا كل ما بقي بعد الضريبة أخذه المرابي، وما تركه المرابي أخذه المعشر، وكل ما فلت من هؤلاء أخذه الصافي (ويكون أن الهارب من صوت الرعب يسقط في الحفرة والصاعد من وسط الحفرة يؤخذ بالفتح، لأن ميازيب من العلاء انفتحت وأسس الأرض تزلزلت).^(٥٤٣)

(٥٤٢) العهد القديم: يونس ١: ٤.

(٥٤٣) العهد القديم: إشعياء ٢٤: ١٨.

عن الأمير الثالثى المكلف بالمرابط

عندما توفي خليل بن زاذان أمير المرابط الذى سبق أن تحدثنا عنه أخذ مكانه أبو عون. إن الحكام الذين عينهم موسى بن مصعب تعرضوا لأتباعه وطردوهم من المدينة، فجاء رجل فارسي مرسل من قبل الملك. كان رجلا شرسا دمويا، أفرع كل من فى المدينة. قاسى كل عرب المنطقة منه، لأنه فعل ما لم يكن من عادة الفرس.

إن عادة الفرس الأصلية هى أن يسجنوا طويلا دون رحمة، وقد اعتاد هذا أن يقتل بالضرب وحتى بالصلب. استولى الفرع على السوريين حيثما ذهب، بسبب طلبه إيواء دوابه أو بسبب جماعته، حيث كانوا يقيمون عند الأهالى، وغذاؤهم وغذاء دوابهم على نفقته (المضيف).

لقد قال النبى: (يأتون كلهم للظلم، منظر وجوههم إلى قدام ويجمعون سببا كالرمل)،^(٥٤٤) قبل أن يخرجوا من المدينة كانوا يرسلون رسولا مسبقا، لتجهيز مكان تقيم فيه دوابهم، وكانت هذا المراسلة تصل إلى المدينة قبل عشرين يوما مسبقا، وتُعرف كل أنواع الأذى والسلب والنهب. خرج مع جنوده إلى الطرقات والمزارع وأخذوا البغال والخيول التى يقودونها. كما أخذوا المعمرين واحتجزوهم فى منازل أو فى ساحات، وكانوا يطلقون سراح من يعطيهم زوزيين للبغل أو للجواد يأخذون جاره. كانوا يذهبون أيضا إلى الشوارع والخانات خارج المدينة، ويأخذون حمير المساكين، كانوا يفرضون زوزا للحمار ويتركونهم. كانوا يخرجون أيضا فى المنطقة يطلبون رجالا يقودون دوابهم، كانوا يستمرون فى طلب اللزواى زوزيين للبغل وزوزا للحمار، ومن لا يدفع يأخذون دابته؛ وبذلك أخذوا الكثير من الدواب من البلدة ومن الطرقات ومن السوق، وحبسوهم فى المنازل.

(٥٤٤) العهد القديم: حيقوق ١: ٩.

لقد قاسى الرجال كثيرا بسبب نفقاتهم ونفقات دوابهم، وعندما...^(٥٤٥)
أخذت دواب كثيرة من التجار والمارة، وبهذه الطريقة أخذت حيوانات كثيرة
كانت ملكا للفقراء خلال أيام كثيرة وشهور، ولم يخل سيلهم قبل أن يبيعوا
كل ما كانوا يملكون لينكفوا بالنفقات. لم يرد أن يترك لهم أى شىء. إن
الكتاب يقول: (وخيلها أسرع من النمر وأحد من ذئب المساء، وفرساتها
ينتشرون وفرساتها يتون من بعيد ويطيرون كالنسر المسرع إلى
الأكل)،^(٥٤٦) وأيضاً: (يأتون كلهم للظلم، منظر وجوههم إلى قدام ويجمعون
سبياً كالرمل).^(٥٤٧)

فلنقل أيضاً شيئاً بخصوص الرجل نفسه.

كان الخوف والرعب يستحوذ على الجميع عندما يتحدثون عنه فى
البلدة، كان الفرع والرعدة يسيطران على العالم كله، يضرب دون رحمة
ويقتل وحتى يصلب. كل مدينة دخلها كان يصلب شخصين أو ثلاثة أشخاص
أو خمسة، وكان الرجال يرتعدون فى وجوده، كانوا يقولون إنه لا يقتل إلا...
للصوص، القتلى، قطاع الطرق الكبار. وقد عرفنا... ولكن أيضاً المبتهلون
يطلق عليهم لفظ متسولين.

لقد عبر كل مدن المنطقة السفلى للجزيرة، ضارباً قاتلاً صالِباً حتى
وصل إلى أمد. ظل هناك فترة طويلة، وصلب أربعة رجال ثم اتجه إلى
ميافرقاط، ومن هناك رجع إلى أمد حيث استقر بها.
وعندما...^(٥٤٨)

(٥٤٥) هنا جملة ناقصة فى المخطوطة.

(٥٤٦) المهد القديم: حبقوق ١ : ٨.

(٥٤٧) المهد القديم: حبقوق ١ : ٩.

(٥٤٨) بقية صفحات المخطوطة غير موجودة.

مراجع الترجمة

المراجع العربية:

- ١- د.إبراهيم أحمد العدوي: الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، القاهرة، ١٩٥١م.
- ٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت، ١٩٦٥م.
- ٣- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، بيروت، ١٨٩٠م.
- ٤- أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، بيروت، ١٩٦٣م.
- ٥- أسد رستم: الروم وصلاتهم بالعرب، لبنان، ١٩٥٥م.
- ٦- أغناطيوس أفرام الأول برصوم: اللؤلؤ المنثور، حمص، ١٩٤٣م.
- ٧- أوليري: مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، ١٩٥٧م.
- ٨- بروكلمان (كارل): تاريخ الشعوب الإسلامية، بيروت، ١٩٧٩م.
- ٩- البلاذري: فتوح البلدان، القاهرة، ١٩٣٢م.
- ١٠- جريجوريس صليبيا شمعون: تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، دمشق.
- ١١- رفائيل بابو إسحاق:
 - أحوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية، بغداد، ١٩٦٠م.
 - تاريخ نصارى العراق منذ انتشار النصرانية، بغداد، ١٩٤٨م.
 - مدارس العراق قبل الإسلام، بغداد، ١٩٥٥م.
- ١٢- فيليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٢م.

- ١٣- فيليب دى طرازى: السلام التاريخى فى أسقفية الأبرشيات
السريانية، ١٩٤٨م.
- ١٤- المسعودى: مروج الذهب، القاهرة، ١٢٤٦هـ.
- ١٥- يوسف حبي: تواريخ سريانية من القرن ٧م إلى ٩م، المجمع
العلمى العراقى، الهيئة السريانية ١٩٨٢م.
- ١٦- السريان نقلة حضارات: التراث السريانى، أعمال المؤتمر التاسع،
مركز الدراسات والأبحاث الشرقية، للرهبانية الأنطونية
المارونية، عام ٢٠٠٥م.

المراجع الأجنبية

- 1- ASSEMANI: Y.S.
BIBLIOTHECA ORIENTALIS, 1924
- 2- DUCHESNE
JEAN D'ASIE ECCLESIASTIQUE
- 3- DUVAL:R.
HISTOIRE POLITIQUE, RELIGIEUSE ET LITTERAIRE
D'EDESSE PARIS, 1892
- 4- LANGLOIS:
CHRONIQUE DE MICHEL LE GRAND, PARIS 1934
- 5- LEBEAU:
HISTOIRE DU BAS EMPIRE, PARIS 1929
- 6- GOUBERT:
BYSSANCE AVANT L'ISLAM, PARIS 1951
- 7- ST. MARTIN: PAULIN(ABBE)
CHRONIQUE DE JOSUEE LE STYLITE, LEIPZIG, 1876
- 8- NAU: F.
ANALYSE DES PARTIES INEDITES DE CHRONIQUE
ATTRIBUE A D. TELLMAHRE.PARIS1898
- 9- WRIGHT:W.
THE CHRONICLE OF JOSHUA THE STYLITE,
CAMBRIDGE 1882.
SHORT HISTORY OF SYRIAC LITERATURE, LONDON
1895.

المؤلف فى سطور

ديونسيوس التلمحرى

يعتبر "ديونسيوس التلمحرى" من أشهر مؤرخى القرن القرن التاسع الميلادى، وقد قام بتأليف كتاب "تاريخ الأزمان" وهو عبارة عن تاريخ عام باللغة السريانية يشتمل على أحداث ٢٦٠ عاما، تناول فيه ديونسيوس أخبار ظهور الإسلام وانتشاره وما قام به المسلمون من فتوحات. كما أنه عاش فى الفترة التى تولى فيها أمور الخلافة العباسية كل من المأمون والمعتصم والواثق، وقد عاش فى الرها وأنطاكية، أى فى ظل ولاية أقاليم الشام والجزيرة، وزار مصر وسوريا وعاصر العديد من الاضطرابات الداخلية والخارجية. ولم يعتمد ديونسيوس فقط على الأحداث السياسية ولكنه قام بربط تلك الوقائع بغيرها من موضوعات كنسية واجتماعية.

المترجمة فى سطور

شادية توفيق حافظ

ليسانس الآداب - جامعة القاهرة - قسم اللغات الشرقية، تقدير ممتاز مع
مرتبة الشرف ١٩٧٣م.

الماجستير ثم الدكتوراه فى اللغة السريانية وآدابها فى كلية الآداب - جامعة
القاهرة.

أهم الوظائف التى تقلدتها:

- رئيس مجلس قسم اللغات الشرقية وآدابها بكلية الآداب من ١٩٩٩ حتى ٢٠٠٤م.
- عضو لجنة ترقيات أستاذ مساعد وأستاذ من ١٩٩٨ حتى ٢٠٠٤م.
- عضو بمجلس كلية الآداب من ١٩٩٩ حتى ٢٠٠٤م.
- عضو لجنة الدراسات العليا من ١٩٩٩ حتى ٢٠٠٤م.
- عضو لجنة تشكيل اللانحة الجديدة لكلية الآداب ٢٠٠٢م.
- عضو لجنة "تقويم الأداء الجامعى" عن كلية الآداب ٢٠٠٢م.
- عضو بجمعية خريجي أقسام اللغات الشرقية بالقاهرة منذ إنشائها.
- الإشراف على العديد من الرسائل العلمية (الماجستير والدكتوراه) فى كلية
الآداب جامعة القاهرة والمعهد العالى لحضارات الشرق الأدنى بالزقازيق.

كتب للمترجمة:

- قصة أهل الكهف فى المصادر السريانية (مجلة للدراسات الشرقية العدد ٥،
١٩٨٧م)
- التآنيث بين العربية والسريانية (لدار العالمية للنشر، ١٩٨٧م)

- كتابة المخطوط السرياني (الدار العالمية للنشر، ١٩٨٧م)
- السريان وتاريخ الطب (دار نهضة مصر، ١٩٩٢م)
- آدم وحواء بين المصادر العربية والمصادر السريانية (دار نهضة مصر، ١٩٩٢م)
- الخير والشر بين هابيل وقابيل (دار نهضة مصر، ١٩٩٣م)
- قصة يوسف دراسة مقارنة بين العربية والسريانية (دار نهضة مصر، ١٩٩٣م)
- إبليس في المصادر السريانية والعربية (دار نهضة مصر، ١٩٩٣م)
- الأعداد ورموزها في السريانية (دار نهضة مصر، ١٩٩٣م)

المراجع فى سطور

السباعى محمد السباعى

- ليسانس الآداب - جامعة القاهرة - قسم اللغات الشرقية - فرع لغات الأمم الإسلامية عام ١٩٦٣ بتقدير جيد جداً مع مرتبة الشرف.
- الماجستير ١٩٦٦ ثم الدكتوراه ١٩٧٢م بمرتبة الشرف الأولى.
- شغل منصب رئيس قسم اللغات الشرقية من ١٩٨٣ إلى ١٩٨٩م
- عين خبيراً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة للغتين الفارسية والتركية اعتباراً من ١٩٩٢م.
- رئيس تحرير مجلة "الدراسات الشرقية" التى تصدر عن جمعية خريجي أقسام اللغات الشرقية لمدة ثلاثة أعوام.
- رئيس تحرير مجلة "رسالة المشرق" التى تصدر عن مركز الدراسات الشرقية منذ ١٩٩٢ حتى ١٩٩٧م.

الإنتاج والأعمال العلمية:

أولاً الكتب:

- ١- اللغة الفارسية (نحو وصرف وتعبير)، ١٩٧٥م.
- ٢- النثر الفارسى منذ نشأته حتى نهاية العصر الفاجارى فى إيران، ١٩٧٨م.
- ٣- الثورة الإسلامية فى إيران من وجهة النظر الإيرانية، ٢٠٠٠م، الموسوعة العامة، مقاتل من الصحراء (المملكة العربية السعودية).
- ٤- عبد الوهاب عزلم، رائداً ومفكراً، القاهرة، الكتاب المصرى اللبنانى، يناير ٢٠٠٥م.

ثانياً الترجمات:

- ١- تاريخ إيران القديم تأليف حسن بيريا والترجمة بالاشتراك مع د. محمد نور الدين عبد المنعم ومراجعة د. يحيى الخشاب.

- ٢- الإسلام في إيران لمؤلفه الروسي بطرشوفسكى ترجمه عن الفارسية وقدم له، الطبعة الرابعة، مارس ٢٠٠٥م.
- ٣- "من الفكر الصوفي الإيراني المعاصر" تأليف صادق عنقا، وتقديم الترجمة بالاشتراك مع د. إبراهيم الدسوقي شتاء.
- ٤- ترجمات لمواد خاصة بإيران وتركيا وتاريخ آسيا الوسطى في الدوريات المختلفة.
- ٥- ترجمة عدد من أعلام الفكر والتاريخ الإسلامى ورواد الدراسات الشرقية لليونسكو.
- ٦- مراجعة المعجم الذهبى "قرهنگ ثلاثى" - المعجم الفاريسى العربى - تأليف الدكتور النونجى، لونغمان ١٩٩٦م، القاهرة.

الإشراف اللغوي: محمد عيسى
الإشراف الفني: حسن كامل